بسم الله الرحمن الرحيم

وهي مكية .

سميت السورة الكريمة (سورة الإسراء) لتلك المعجزة الباهرة معجزة الإسراء التي خص الله تعالى بها نبيه الكريم خاتم النبيين ﷺ، احتفاء به ، وتكريما له ، على صبره ، وتحمله ضروب البلاء والأذى ، في سبيل تبليغ دعوة الله ، وانها لحفاوة عظيمة ان يُسرى به إلى بيت المقدس ، ثم أن يُصعد به إلى السماء ، لم ينلها قبله أحد من الأنبياء .

وتسمى سورة (بني إسرائيل) .

قال ابن عاشور : وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود أنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم : " إنهن من العتاق الأول وهن من تلادي " .

وبذلك ترجم لها البخاري في كتاب التفسير ، والترمذي في أبواب التفسير.

ووجه ذلك أنها ذكر فيها من أحوال بني إسرائيل ما لم يذكر في غيرها.

وتسمى أيضا سورة " سبحان " ، لأنها افتتحت بهذه الكلمة.

فضلها :

عن ابْنَ مَسْعُودٍ قال فِي بني إسرائيل والكهف ومريم وطه وَالْأَنْبِيَاءِ: إِنَّهُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الْأُوَلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي) رواه البخاري .

وَقَوْلُهُ: "مِنَ الْعِتَاقِ الْأُوَلِ" أَيْ: مِنْ قَدِيمِ مَا نَزَلَ، وَقَوْلُهُ: "وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي" أَيْ: مِنْ قَدِيمِ مَا قَنِيتُ وَحَفِظْتُ. وَالتَّالِدُ فِي لُغَتِهِمْ: قَدِيمُ الْمَالِ وَالْمَتَاعِ، وَالطَّارِفُ حَدِيثُهُ وَجَدِيدُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وعن عَائِشَة قالت (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ: مَا يُرِيدُ أَنْ يُفْطِرَ، وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ: مَا يُرِيدُ أَنْ يَصُومَ، وَكَانَ يَقْرَأُ كل ليلة " بني إسرائيل "، و " الزمر) رواه أحمد .

أغراضها :

سورة الإسراء من السور المكية التي تهتم بشئون العقيدة ، شأنها كشأن سائر السورة المكية من العناية بأصول الدين (الوحدانية ، والرسالة ، والبعث) ولكن العنصر البارز في هذه السورة الكريمة هو (شخصية الرسول) وما أيده الله به من المعجزات الباهرة، والحجج القاطعة ، الدالة على صدقه عليه الصلاة والسلام .

* تعرضت السورة الكريمة لمعجزة (الإسراء) التي كانت مظهراً من مظاهر التكريم الإلهي ، لخاتم الأنبياء والمرسلين ، وآية باهرة تدل على قدرة الله جل وعلا في صنع العجائب والغرائب.

* وتحدثت عن بني إسرائيل ، وما كتب الله عليهم من التشرد في الأرض مرتين ، بسبب طغيانهم وفسادهم ، وعصيانهم لأوامر الله [وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين . .] الآيات .

* وتحدثت عن بعض الآيات الكونية، التي تدل على العظمة والوحدانية، وعن النظام الدقيق الذي يحكم الليل والنهار، ويسير وفق ناموسٍ ثابت لا يتبدل [وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل ...] الآيات .

* وتعرضت السورة إلى بعض الآداب الاجتماعية، والأخلاق الفاضلة الكريمة ، فحثت عليها ، ودعت إلى التحلي بها ، ليكون هناك المجتمع المثالي الفاضل الذي ينشده الإسلام ، بدءا من قوله تعالى : [وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه] الآيات .

* وتحدثت عن ضلالات المشركين، حيث نسبوا إلى الله تعالى الصاحبة والولد، والعجيب في أمرهم أنهم يكرهون البنات، ثم ينسبونها إلى العلي الكبير، المنزه عن الشبيه والنظير [أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا؟ إنكم لقولون قولاً عظيماً ...] الآيات.

* وتحدثت عن البعث والنشور ، والمعاد والجزاء ، الذي كثر حوله الجدل ، وأقامت الأدلة والبراهين على إمكانه ، ثم تحدثت عن القرآن العظيم (معجزة محمد (ص) الخالدة) ، وذكرت تعنت المشركين في اقتراحاته حيث طلبوا معجزة أخرى غير القرآن ، أن يفجر لهم الأنهار ، ويجعل لهم مكة حدائق وبساتين [وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا .] الآيات .

* ثم ختمت السورة بتنزيه الله عن الشريك والولد ، وعن صفات النقص والعجز ، واتصافه بالعزة والكبرياء [وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا] .

(**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (١)**) .

[الإسراء : ١] .

==========

(**سُبْحَانَ**) يُمَجِّدُ تَعَالَى نَفْسَهُ، وَيُعَظِّمُ شَأْنَهُ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ سِوَاهُ، فَلَا إله غيره ولا رب سواه .

–قال ابن عاشور : الافتتاح بكلمة التسبيح من دون سبق كلام مُتضمّنٍ ما يَجب تنزيه الله عنه يؤذن بأن خبراً عجيباً يستقبله السامعون دالاً على عظيم القدرة من المتكلم ورفيع منزلة المتحدث عنه.

(**الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ**) محمداً ﷺ .

أجمع المفسرون على أن المراد محمد عليه الصلاة والسلام .

قال ابن الجوزي : ولا خلاف أن المراد بعبده هاهنا : محمد ﷺ .

قال الخازن: أجمَعَ المفَسِّرونَ والعُلَماءُ والمتكَلِّمونَ: أنَّ المرادَ به محمَّدٌ ﷺ، لم يختلِفْ أحَدٌ من الأمَّةِ في ذلك .

قال الشوكاني : والإسراء قيل : هو سير الليل ، وقيل هو سير أوّل الليل خاصة .

قال ابن عاشور : وفي هذا لطيفة تناسب المقام هنا إذ قال (أسرى بعبده) دون سرّى بعبْدَه ، وهي التلويح إلى أن الله تعالى كان مع رسوله في إسرائه بعنايتهِ وتوفيقه ، كما قال (فإنك بأعيننا) وقال : إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا .

فالمعنى : الذي جعل عبده مُسرياً ، أي سارياً ، وهو كقوله تعالى (فأسر بأهلك بقطع من الليل) .

(**لَيْلاً**) أي : في جنح الليل .

فإن قيل : الإسراء لا يكون إلا بالليل فما معنى ذكر الليل ؟

قلنا : أراد بقوله : {لَيْلاً} بلفظ التنكير تقليل مدة الإسراء وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة ، وذلك أن التنكير فيه قد دل على معنى البعضية .

وذكر بعضهم : ان التنكير في قوله { ليلاً } للتعظيم. أي ليلاً أي ليل ، دنا فيه المحب إلى المحبوب! وقيل فيه غير ذلك .

قال الشوكاني : ... وإذا كان الإسراء لا يكون إلاّ في الليل فلا بدّ للتصريح بذكر الليل بعده من فائدة :

فقيل : أراد بقوله (ليلاً) تقليل مدّة الإسراء ، وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسافة أربعين ليلة.

ووجه دلالة { ليلاً } على تقليل المدّة ما فيه من التنكير الدالّ على البعضية ، بخلاف ما إذا قلت : سريت الليل فإنه يفيد استيعاب السير له جميعاً.

وقد استدلّ صاحب الكشاف على إفادة ليلاً للبعضية بقراءة عبد الله وحذيفة (من الليل).

(**مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**) وهو مسجد مكة .

قال البقاعي : أي من الكعبة المشرفة مسجد إبراهيم عليه السلام ، قيل : كان نائماً في الحطيم ، وقيل : في الحجر ، وقيل : في بيت أم هانئ – وهو قول الجمهور ، فالمراد بالمسجد حينئذ الحرم لأنه فناء المسجد .

وقال ابن الجوزي : قوله (من المسجد الحرام) قولان.

أحدهما : أنه أُسري به من نفس المسجد ، قاله الحسن ، وقتادة ، ويسنده حديث مالك بن صعصعة ، وهو في "الصحيحين" "بينا أنا في الحطيم" وربما قال بعض الرواة : في "الحِجر".

والثاني : أنه أُسري به من بيت أم هانئ ، وهو قول أكثر المفسرين ، فعلى هذا يعني بالمسجد الحرام : الحرم.

والحرم كلُّه مسجد ، ذكره القاضي أبو يعلى وغيره.

(**إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى**) وهو بيت المقدس معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا جمعوا له هناك كُلُّهُمْ فَأَمَّهُمْ فِي مَحِلَّتِهِمْ وَدَارِهِمْ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ، وَالرَّئِيسُ الْمُقَدَّمُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

وسمي بالأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام .

(**الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ**) أي : في الزروع والثمار .

قال ابن عطية : "البركة حوله" هي من جهتين، إحداهما النبوءة والشرائع والرسل الذين كانوا في ذلك القطر وفي نواحيه وبواديه، والأخرى النعم من الأشجار والمياه والأرض المفيدة التي خص الله الشام بها .

–قال الشنقيطي : أي أكثرنا حوله الخير والبركة بالأشجار والثمار والأنهار. وقد وردت آيات تدل على هذا.

كقوله تعالى (وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأرض التي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) .

وقوله (وَلِسُلَيْمَانَ الريح عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأرض التي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ) .

فإن المراد بتلك الأرض : الشام. والمراد بأنه بارك فيها : أنه أكثر فيها البركة والخير بالخصي والأشجار والثمار والمياه كما عليه جمهور العلماء.

وقال بعض العلماء : المراد بأنه بارك فيها أنه بعث الأنبياء منها. وقيل غير ذلك. والعلم عند الله تعالى.

(**لِنُرِيَهُ**) أي : محمداً .

مِنْ آيَاتِنَا) العظام .

قال الشنقيطي : أي بعض آياتنا فجعله يراها بعينه. وذلك ما رآه صلى الله عليه وسلم بعينه ليلة الإسراء من الغرائب والعجائب. كما جاء مبيناً في الأحاديث الكثيرة.

ويدل لما ذكرنا في الآية الكريمة قوله تعالى في سورة النجم (مَا زَاغَ البصر وَمَا طغى لَقَدْ رأى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكبرى) .

–قال الشوكاني : (لِنُرِيَهُ مِنْ ءاياتنا) أي : ما أراه الله سبحانه في تلك الليلة من العجائب التي من جملتها قطع هذه المسافة الطويلة في جزء من الليل .

(**إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ**) لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ، مُصَدِّقِهِمْ وَمُكَذِّبِهِمْ .

والسميع: اسم من أسماء الله تعالى ، متضمن لصفة السمع لله تعالى ، فهو سبحانه يسمع جميع الأقوال والأصوات ، السر والجهر عنده سواء.

كما قال تعالى (سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ).

وقال تعالى (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى).

وقال تعالى (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ).

وقال تعالى (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ).

وسمع الله ينقسم إلى قسمين:

أولاً: سمع إدراك: أي أن الله يسمع كل صوت خفي أو ظاهر.

قال تعالى: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي ...).

هذا السمع قد يراد به الإحاطة ، كالآية السابقة.

وقد يراد به التهديد ، كقوله تعالى: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء).

وقد يراد به التأييد ، ومنه قوله تعالى لموسى: (قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى) أي أسمعك وأؤيدك.

ثانياً: سمع إجابة: أي أن الله يستجيب لمن دعاه.

ومنه قول إبراهيم (إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء) أي مجيب الدعاء.

ومنه قول المصلي (سمع الله لمن حمده) يعني استجاب لمن حمده.

ومنه كقوله ﷺ (اللهم إني أعوذ بك من قول لا يسمع) أي: من دعاء لا يستجاب.

آثار الإيمان بهذا الاسم:

أولاً: مراقبة الله تعالى فيما يقوله اللسان ، سواء أسر أو جهر به ، وسواء كان ذلك في جماعة أو في خلوة.

ثانياً: اللجوء إلى الله وسؤاله سبحانه من حاجات الدنيا والآخرة ، فهو السميع لدعاء عباده سرهم ونجواهم ، وهذا المعنى من معاني السميع (المجيب) يسكب في القلب الطمأنينة والأنس بالله وحسن الظن به سبحانه ، والرجاء فيما عنده ، وعدم الملل من دعائه.

وقد دعا الأنبياء والصالحون ربهم سبحانه بهذا الاسم ليقبل منهم طاعتهم أو ليستجيب لدعائهم:

فإبراهيم وإسماعيل قالا (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

وامرأة عمران عندما نذرت ما في بطنها خالصاً لله لعبادته ولخدمة بيت المقدس قالت (فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

ودعا زكريا ربه أن يرزقه ذرية صالحة ثم قال (إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ).

ودعا يوسف عليه السلام ربه أن يصرف عنه كيد النسوة (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

وأمر بالالتجاء إليه عند حصول وساوس شياطين الإنس والجن، قال تعالى (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ).

(**البَصِيرُ**) البصير بهم فيعطي كلا منهم مَا يَسْتَحِقُّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

والبصير: اسم من أسماء الله متضمن لصفة البصر، قال السعدي: الذي يُبصر كلَّ شيء وإن رقَّ وصغُر، فيبصر دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، ويبصر ما تحت الأرضين السبع كما يبصر ما فوق السماوات السبع.

قال ابن القيم:

وهو البصيرُ يرى دبيبَ النملةِ الـ ... سوداءِ تحت الصخرِ والصَّوَانِ

ويرى مجاري القوت في أعضائها ... ويَرى عُروق بياضِها بعيانِ

ويرى خيانات العيون بِلْحظِها ... ويرى كذلك تقلبَ الأجفانِ

– وصفة البصر من صفات الكمال كصفة السمع، فالمتصف بها أكمل ممن لا يتصف بذلك، قال تعالى (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ).

وقد أنكر إبراهيم على أبيه عندما عَبَد ما لا يبصر ولا يسمع (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً).

– والله بصير بأحوال عباده خبير بها، بصير بمن يستحق الهداية منهم ممن لا يستحقها، بصير بمن يصلح حاله بالغنى والمال، وبمن يفسد حاله بذلك (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ).

فائدة : ١

الإيمان بالإسراء والمعراج .

الإسراء لغة: السير بالشخص ليلاً. وشرعاً: سير جبريل بالنبي ﷺ من مكة إلى بيت المقدس.

والمعراج: الآلة التي تعرج بها ، وهي المصعد. وشرعاً: السلم الذي عرج به رسول الله ﷺ من الأرض إلى السماء .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ (كَانَ أَبُو ذَرٍّ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : فُرِجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَاناً، فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَلَمَّا جِئْتُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا قَالَ جِبْرِيلُ لِخَازِنِ السَّمَاءِ افْتَحْ. قَالَ مَنْ هَذَا قَالَ هَذَا جِبْرِيلُ. قَالَ هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ قَالَ نَعَمْ مَعِي مُحَمَّدٌ ﷺ. فَقَالَ أُرْسِلَ إِلَيْهِ قَالَ نَعَمْ. فَلَمَّا فَتَحَ عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَإِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ عَلَى يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ وَعَلَى يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ، إِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَسَارِهِ بَكَى، فَقَالَ مَرْحَباً بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ. قُلْتُ لِجِبْرِيلَ مَنْ هَذَا قَالَ هَذَا آدَمُ. وَهَذِهِ الأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى، حَتَّى عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَقَالَ لِخَازِنِهَا افْتَحْ. فَقَالَ لَهُ خَازِنُهَا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُ فَفَتَحَ».

قال أنس (... فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ. فَقِيلَ مَنْ أَنْتَ قَالَ جِبْرِيلُ. قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ. قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِابْنَيِ الْخَالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّاءَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ. فَقِيلَ مَنْ أَنْتَ قَالَ جِبْرِيلُ. قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ – صلى الله عليه وسلم –. قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ ﷺ إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ﷺ قِيلَ مَنْ هَذَا قَالَ جِبْرِيلُ. قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ. قَالَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيًّا) ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ. قِيلَ مَنْ هَذَا قَالَ جِبْرِيلُ. قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ. قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ ﷺ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ. قِيلَ مَنْ هَذَا قَالَ جِبْرِيلُ. قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ، قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا

بِمُوسَى ﷺ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ مَنْ هَذَا قَالَ جِبْرِيلُ. قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ. قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ ﷺ مُسْنِداً ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لاَ يَعُودُونَ إِلَيْه).

وفي رواية (... ثم عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الأَقْلاَمِ ... قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «فَفَرَضَ اللَّهُ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلاَةً، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى فَقَالَ مَا فَرَضَ اللَّهُ لَكَ عَلَى أُمَّتِكَ قُلْتُ فَرَضَ خَمْسِينَ صَلاَةً. قَالَ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ. فَرَاجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى قُلْتُ وَضَعَ شَطْرَهَا.

فَقَالَ رَاجِعْ رَبَّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ، فَرَاجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَاجَعْتُهُ. فَقَالَ هِيَ خَمْسٌ وَهْىَ خَمْسُونَ، لاَ يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ. فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ رَاجِعْ رَبَّكَ. فَقُلْتُ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي. ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لاَ أَدْرِى مَا هِيَ، ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا حَبَايِلُ اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْك) .

الحديث دليل على أن الصلاة أول ما فرضت فرضت خمسين ثم خففت إلى خمس صلوات (فقال الله: هِيَ خَمْسٌ وَهْيَ خَمْسُون).

فائدة : ٢

الإسراء والمعراج ثابت بالقرآن والسنة.

قال تعالى (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ).

والأحاديث كثيرة في ذلك.

وملخص ما حدث : (أن النبي ﷺ أتي بالبراق حتى جاء بيت المقدس ثم عرج به إلى السماء، فوجد في السماء الأولى آدم، وفي السماء الثانية عيسى ويحيى، وفي السماء الثالثة يوسف، وفي السماء الرابعة إدريس، وفي السماء الخامسة هارون، وفي السماء السادسة موسى، وفي السماء السابعة إبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وفرضت عليه الصلوات الخمس ثم رجع من ليلته ...). متفق عليه .

فائدة : ٣

الإسراء كان من مكة.

كان من مكة باتفاق أهل العلم، وبنص القرآن والسنة المتواترة، كما قال تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ). (مجموع الفتاوى ٣/ ٣٨٧)

فائدة : ٤

كان بعد المبعث وقبل الهجرة.

وكان ذلك بعد المبعث وقبل الهجرة بالاتفاق. (لكن لا يعرف أي سنة بالتحديد: فقيل قبل الهجرة بثلاث سنين، وقبل بسنتين وقيل بسنة، وهذا قول جماهير العلماء).

وذهب بعض العلماء إلى أن الإسراء والمعراج كان قبل البعثة.

واستدلوا بما جاء في صحيح البخاري في رواية شَرِيكِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي نَمِرٍ سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُنَا عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِىَ بِالنَّبِيِّ ﷺ مِنْ مَسْجِدِ الْكَعْبَةِ (جَاءَ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْه).

والصحيح مذهب جماهير العلماء وأن الإسراء والمعراج كان بعد البعثة:

أ- ويدل لذلك ما جاء في أحاديث الإسراء من قول بواب السماء لجبريل: وقد بعث إليه؟

ففي حديث أنس. أن رسول الله ﷺ (أتيت بالبراق ... فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ مَنْ أَنْتَ قَالَ جِبْرِيلُ. قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ. قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْه؟).

اختلف متى كان على أقوال كثيرة:

فقيل: قبل الهجرة بسنة.

قاله ابن مسعود، وجزم به النووي، ونقل ابن حزم الإجماع على هذا القول، لكن تعقبه الحافظ ابن حجر، وبيّن أن في ذلك اختلافاً كثيراً.

وقيل: قبل الهجرة بثمانية أشهر، حكاه ابن الجوزي.

وقيل: بستة أشهر، حكاه أبو الربيع ابن سالم.

وقيل: بأحد عشر شهراً، قاله إبراهيم الحربي، ورجحه ابن المنير.

وقيل: بخمسة عشر شهراً، حكاه ابن فارس.

وقيل: بسبعة عشر شهراً، قاله السدي.

وقيل: بثمانية عشر شهراً، حكاه ابن عبد البر.

وقيل: بعشرين شهراً.

وقيل: بثلاث سنين، حكاه ابن الأثير.

وقيل: بخمس سنين، قاله الزهري، وممن حكاه عنه القاضي عياض، وتبعه القرطبي، والنووي ورجحوه.

سابعاً: واختلفوا في أي الشهور كانت؟

فجزم ابن الأثير وجمع منهم النووي بأنها كانت في ربيع الأول، قال النووي: ليلة سبع وعشرين، وعلى هذا جمع من العلماء.

وقيل: كانت في رجب، وجزم به النووي، وقال السيوطي: المشهور أنه في رجب.

وقيل: رمضان.

وقيل: شوال، قاله الواقدي .

فائدة : ٥

جماهير أهل السنة أن الإسراء والمعراج كان بروحه وجسده يقظة مرة واحدة لا مناماً.

فالأكثرون من العلماء أنه أسري ببدنه وروحه يقظة لا مناماً.

ومما يدل على أن الإسراء بجسده وروحه في اليقظة:

أ-قوله تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ...) والعبد عبارة عن مجموع الجسد والروح، كما أن الإنسان اسم لمجموع الجسد والروح.

ب-قوله تعالى (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى) فأضاف الأمر إلى البصر، وهو لا يكون إلا يقظةً بجسده.

ج-لأنه عليه السلام حُمِل على البراق والروح لا تحمل، وإنما يحمل البدن.

د–لو كان الإسراء والمعراج بروحه؛ لم يحصل الاستبعاد والتكذيب من قريش، لأنهم قالوا لأبي بكر: إن صاحبك يزعم أنه أسري به إلى بيت المقدس في ليلةٍ واحدة، وأصبح بين ظهرانينا، وهو مسيرة شهرين. فلو كان بالروح فقط لما أحدث خلافاً، إذ أننا نسري بأرواحنا كلَّ ليلة عند نومنا .

قال ابن كثير: فالأكثرون من العلماء على أنه أسري ببدنه وروحه يقظة لا مناماً ... والدليل على هذا قوله تعالى (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ)، فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء، ولم يكن مستعظماً، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم، وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، وقال تعالى: (أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً) وقال تعالى: (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ)، قال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، والشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم .

وقال القرطبي : وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه كان إسراء بالجسد وفي اليقظة ، وأنه ركب البراق بمكة ، ووصل إلى بيت المقدس وصلّى فيه ثم أسْرِيَ بجسده.

وعلى هذا تدل الأخبار التي أشرنا إليها والآية.

وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة ، ولا يُعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة ، ولو كان مناماً لقال بروح عبده ولم يقل بعبده. (تفسير القرطبي) .

فائدة : ٦

من أين كان الإسراء (موضعه في مكة)؟

أ–جاء في رواية قتادة عن أنس (بينما أنا في الحطيم، وربما قال: في الحجر) متفق عليه. (الشك من قتادة كما بينته رواية أحمد)

قال الحافظ: المراد بالحطيم هنا: الحِجر.

ب–وجاء في رواية (بينا أنا عند البيت).

ج–وجاء في رواية شريك (أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة).

د– وجاء كما في حديث البيت (فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل)

ولا تعارض بين هذه الروايات، لأن الحجر جزء من مسجد الكعبة، الذي هو البيت، فتحمل الرواية العامة – البيت – على الرواية الخاصة وكونه في الحجر، ورواية (فرج عن سقف بيتي ...) والجمع بينها وبين ما تقدم: أن النبي ﷺ كان في بيته بمكة، فأُخِذ من هناك إلى الحجر، ومنه أسري برسول الله – صلى الله عليه وسلم –، ويؤيد هذا الجمع، ما وقع في مرسل الحسن عند ابن إسحاق (أن جبريل أتاه فأخرجه إلى المسجد فأركبه البراق).

وقد قيل غير ما تقدم في تحديد المكان، كالقول بأنه أسري به من بيت أم هانئ ، لكن الروايات في ذلك ضعيفة.

قال ابن الجوزي : قوله تعالى (من المسجد الحرام) قولان.

أحدهما : أنه أُسري به من نفس المسجد ، قاله الحسن ، وقتادة ، ويسنده حديث مالك بن صعصعة ، وهو في "الصحيحين" "بينا أنا في الحطيم" وربما قال بعض الرواة : في "الحِجر".

والثاني : أنه أُسري به من بيت أم هانئ ، وهو قول أكثر المفسرين ، فعلى هذا يعني بالمسجد الحرام : الحرم.

والحرم كلُّه مسجد ، ذكره القاضي أبو يعلى وغيره.

فائدة " ٧

في الروايات المشهورة أنه صلى بالأنبياء إماماً في بيت المقدس، لكن اختلفوا متى صلى بهم، هل كان قبل المعراج أم بعد المعراج؟ فالأكثر أنه قبل المعراج.

وذهب ابن كثير وجمع أنه كانت بعد المعراج، لأنه لو كان صلى بهم قبل المعراج لعرفهم.

فائدة : ٨

بعض ما رآه النبي ﷺ :

عنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (لما عَرَجَ بِي رَبِّي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ، يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ. فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِم) رواه أبو داود .

وروى أحمد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (مرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ. قَالَ: قُلْتُ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالُوا: خُطَبَاءُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا مِمَّنْ كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ، وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، أَفَلَا يَعْقِلُون).

قال ﷺ (رَأَيتُ لَيلةَ أُسريَ بي رَجُلًا يَسبَحُ في نَهرٍ ويُلقَمُ الحِجارةَ، فسَأَلتُ: ما هذا؟ فقِيلَ لي: آكِلُ الرِّبا) .

ورأى ﷺ موسى يصلي في قبره .

أعطيَ رسولُ الله (ثلاثاً لم يُعطَهُنَّ نبيٌّ قبلَه ؛ أعطِيَ الصلواتِ الخمسَ ، وجُعِلَتْ بخمسينَ صلاة ، وأُعطِيَ خواتيمَ سورةِ البقرة ، وغُفِرَ لمن ماتَ لم يشرِكْ بالله من أمته شيئاً المقحمات) .

فائدة : ٩

قوله (بعبده) فيه عظيم منزلة العبودية، حيث وصف الله تبارك وتعالى نبيه بهذا الوصف في مقام الإسراء .

-وقد وصف الله نبيه بالعبودية في أعلى المقامات:

في مقام التحدي:

قال تعالى (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ) .

وفي مقام الإسراء والمعراج:

قال تعالى (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ).

وفي مقام الإيحاء:

قال تعالى (فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى).

وفي مقام الدعوة:

قال تعالى (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً).

وقد قال تعالى عن المسيح ابن مريم (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه)، وقال ﷺ (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد الله ورسوله) رواه البخاري.

– وصفه بالعبودية لأسباب :

أولاً : لمعرفة فضل وشرف أن يكون الإنسان عبداً لله .

ثانياً : أن أعظم صفات الرسل هي عبوديتهم لله .

ثالثاً : ليجتهد الإنسان ليكون عبداً لله ليصل للمراتب العالية عند الله .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : والعبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له : كان أقرب إليه وأعز له وأعظم لقدره .

قال ابن تيمية: والعبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له: كان أقرب إليه وأعز له، وأعظم لقدره، فأسعد الخلق: أعظمهم عبودية لله، وأما المخلوق فكما قيل: احتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره.

(وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)) .

[الإسراء : ٢ –٣] .

==========

(**وَآتَيْنَا مُوسَى**) ابن عمران .

(**الْكِتَابَ**) يعني التوراة .

وموسى هو ابن عمران، أفضل أنبياء بني إسرائيل، وأحد أولي العزم من الرسل، وهو كليم الرحمن.

أحد أولي العزم من الرسل .

قال السعدي : كثيرا ما يقرن الباري بين نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوة موسى ﷺ وبين كتابيهما وشريعتيهما لأن كتابيهما أفضل الكتب وشريعتيهما أكمل الشرائع ونبوتيهما أعلى النبوات وأتباعهما أكثر المؤمنين .

(**وَجَعَلْنَاهُ**) أي : هذا الكتاب .

(**هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ**) أي : هادياً لهم، أي يخرجهم بواسطة ذلك الكتاب من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والدين الحق.

كما قال تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ) .

وقال تعالى (إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ) .

(**أَلاَّ تَتَّخِذُواْ**) أي : لئلا تتخذوا .

(**مِن دُونِي وَكِيلاً**) أي : ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً دوني ، لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبده وحده لا شريك له .

فإن اتخاذ الوكيل الذي تسند إليه الأمور ، وتفوض من دون الله ليس من الهدى ، فالتوكل إنما يكون على الله وحده .

وقد كرر الله هذا الأمر فقال تعالى (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً) .

وقال تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) .

وقال تعالى (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً) .

قال القرطبي : (وكيلاً) أي شريكاً. عن مجاهد. وقيل : كفيلاً بأمورهم. حكاه الفراء. وقيل : ربًّا يتوكلون عليه في أمورهم. قاله الكلبي. وقال الفراء : كافياً اه والمعاني متقاربة، ومرجعها إلى شيء واحد، وهو أن الوكيل : من يتوكل عليه. فتفوض الأمور إليه،

ليأتي بالخير ، ويدفع الشر. وهذا لا يصح إلا لله وحده جل وعلا. ولهذا حذر من اتخاذ وكيل دونه. لأنه لا نافع ولا ضار ، ولا كافي إلا هو وحده جل وعلا.. عليه توكلنا ، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(**ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ**) تقديره يا ذرية من حملنا مع نوح ، فيه تهييج وتنبيه على المنة ، أي : سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة تشبهوا بأبيكم .

قال العلماء : ووجه الإنعام على الخَلْق بهذا القول ، أنهم كانوا في صلب من نجا.

– الذين حملهم مع نوح : هم أهله ومن آمن معه من قومه .

كما قال تعالى (قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ) .

– والذين آمنوا معه قليل .

كما قال تعالى (وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ) .

– والذي حملهم فيه هو السفينة .

كما قال تعالى (قلنا احمل فيها ..) أي السفينة .

(**إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا**) ثناء على نوح بكثرة الشكر لله .

تعليل لإنجائه وهو أنه كان عبداً شكوراً لربه تعالى ، مثنياً بها عليه ، مستعملاً لها في مرضاته على كل حال وفي كل حين .

وفي الحديث (إن الناس يوم القيامة ... فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ يَا نُوحُ إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ

–**قال القرطبي** : ومقصود الآية : إنكم من ذرية نوح وقد كان عبداً شكوراً فأنتم أحق بالاقتداء به دون آبائكم الجهال.

–**قال الشوكاني** : (إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا) أي : نوحاً ، وصفه الله بكثرة الشكر وجعله كالعلة لما قبله إيذاناً بكون الشكر من أعظم أسباب الخير ، ومن أفضل الطاعات حثاً لذريته على شكر الله سبحانه.

– **والشكر له ٣ أركان** :

يكون بالقلب ، ويكون باللسان ، ويكون بالجوارح .

بالقلب : هو إيمان القلب بأن النعمة من الله تعالى ، وأن له المنة في ذلك . (وما بكم من نعم

باللسان : التحدث بنعمة الله اعترافاً – لا افتخاراً . (وأما بنعمة ربك ...

بالجوارح : وهو القيام بطاعة المنعِم . [ولذلك في الحديث كان النبي يقوم الليل حتى تتفطر قدماه].

وفي ذلك يقول الشاعر :

أفادتكم مني النعماءُ ثلاثةً يدي ولساني والضميرَ المحجبا .

يدي : الجوارح . **لساني** : القول بالثناء على الله بالنعمة . **الضمير المحجبا** : الاعتقاد .

– والله عز وجل يذكر عباده بنعمه عليهم ويدعوهم إلى تذكرها :

كما قال تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة) .

وقال تعالى (يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ...) .

–فضائل نوح:

أولاً: ثناء الله عليه.

قال تعالى (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً).

ثانياً: أول رسول للبشر.

لحديث أبي هريرة – حديث الشفاعة – قال ﷺ (... فيأتون نوحاً فيقولون أنت أول رسول إلى البشر، وسماك الله عبداً شكوراً).

ثالثاً: أحد أولي العزم من الرسل المذكورين في آيتي الشورى والأحزاب.

قال تعالى (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً) .

وقال تعالى (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) .

رابعاً: استجاب الله دعاءه ونجاه من الكرب.

قال تعالى (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ. وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ).

الفوائد :

١. فضل موسى حيث أعطي التوراة .
٢. إثبات نبوة ورسالة موسى .
٣. تحريم التوكل والاعتماد على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله .
٤. وجوب التوكل على الله .
٥. أن أعظم ما في الكتب المنزلة الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك .
٦. عظم منزلة العبودية ، وأنها من أعظم صفات المسلم .
٧. تحفيز بني إسرائيل وحضهم في التوراة على عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، والتوكل عليه دون غيره ، بتذكيرهم بإنجاء آبائهم مع نوح في السفينة .
٨. ثناء الله على عبده ورسوله نوح بأنه كان شكوراً .
٩. الترغيب والحث على شكر الله .

(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا (٧) عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨))

[الإسراء : ٤ – ٨] .

==========

(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ)أي أخبرناهم وأعلمناهم .

لأن القضاء له عدة معاني في القرآن :

يأتي بمعنى الإخبار والإعلام . كقوله تعالى (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ) .

ويأتي بمعنى الخلق ، كقوله تعالى (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ..) أي فخلقهن .

ويأتي بمعنى الحُكْم ، كقوله تعالى (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ) أي يحكم .
ويأتي بمعنى الأمر ، كقوله تعالى (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ...) أي أمر .
(**فِي الْكِتَابِ**) أي : في اللوح المحفوظ ، وقيل : في التوراة .
(**لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ فِي الأرض وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا**) يخبر تَعَالَى إِنَّهُ قَضَى إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ، أَيْ تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرَهُمْ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ سَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ، وَيَعْلُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا، أَيْ يَتَجَبَّرُونَ وَيَطْغَوْنَ
(**فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا**) أَيْ : أُولَى الْإِفْسَادَتَيْنِ .
المراد بالوعد: الموعد المحدد لعقابهم بسبب إفسادهم في الأرض .
(**بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ**) أَيْ: سَلَّطْنَا عَلَيْكُمْ جُنْدًا مِنْ خَلْقِنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ أي قوة وعدة وسلطنة شَدِيدَةٍ.
(**فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ**) أَيْ : تَمَلَّكُوا بِلَادَكُمْ وَسَلَكُوا خِلَالَ بُيُوتِكُمْ، أَيْ بَيْنَهَا وَوَسَطَهَا، وَانْصَرَفُوا ذَاهِبِينَ وَجَائِينَ لَا يَخَافُونَ أَحَدًا وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا.
وأصل الجوس: طلب الشيء باستقصاء واهتمام لتنفيذ ما من أجله كان الطلب.
قال الزجاج : معناه طافوا خلال الديار ، هل بقي أحد لم يقتلوه؟ قال : والجوس طلب الشيء باستقصاء.
قال الجوهري : الجوس مصدر قولك جاسوا خلال الديار ، أي : تخللوها ، كما يجوس الرجل للأخبار ، أي : يطلبها ، وكذا قال أبو عبيدة.
قال ابن جرير : معنى جاسوا طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين.
قال الشوكاني : قيل : هو بختنصر وجنوده ؛ وقيل : جالوت ؛ وقيل : جند من فارس ؛ وقيل : جند من بابل .
(**وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً**) أي : كان ذلك التسليط والانتقام قضاء جزما حتما ، لا يقبل النقض والتبديل .
قال المفسرون : إن بني إسرائيل لما استحلوا المحارم ، وسفكوا الدماء ، سلط الله عليهم (بختنصر) المجوسي ، ملك بابل فقتل منهم سبعين ألفا ، حتى كاد يفنيهم ، وذلك أول الفسادين .
قال السعدي : واختلف المفسرون في تعيين هؤلاء المسلطين إلا أنهم اتفقوا على أنهم قوم كفار.
إما من أهل العراق أو الجزيرة أو غيرها سلطهم الله على بني إسرائيل لما كثرت فيهم المعاصي وتركوا كثيرا من شريعتهم وطغوا في الأرض.
اختلف السلف والخلف في هؤلاء المسلطين عليهم من هم ، واختلفوا أيضاً متى وقع هذا الإفساد ؟
– اختلف متى هذا الإفساد :
قيل : وقع قبل بعثة النبي ﷺ مرتين .
وقيل : إن الإفساد الأول وقع أيام بختنصر قبل بعثة النبي ﷺ بقرون ، فسلط الله عليهم بختنصر فقهرهم .
وأن الإفساد الثاني والعلو الثاني هو العلو المعاصر وقالوا يؤيده ان الله قال: وجعلناكم أكثر نفيراً، ومعلوم ان اليهود لهم سيطرة على أكثر إعلام العالم ، وقهرهم يكون بدخول المؤمنين الصالحين الى ارض المقدس وطردهم منها .
وهذا القول يرد عليه بأن بختنصر الأول ليس مسلماً ، فلا ينطبق عليه (عباداً لنا أولي بأس شديد) .
وقيل : إن كلا الإفسادين وكلا العلوَيْن لم يقعا .

وانما هذا الذي هو معاصر الآن هو العلو الأول ، فسيسلط الله عليهم من جنوده المؤمنين فيخرجوهم من أرض المقدس إلى تل أبيب . ثم بعد ذلك أن العالم يعين اليهود فيعودون مرة ثانية للأقصى ثم يأتي مؤمنون فيخرجونهم من المسجد وتكون نهايتهم على يد المسيح ابن مريم .

وقيل غير ذلك والله أعلم .

قال الماوردي : أما المقتول من الأنبياء في الفساد الثاني فيحيى بن زكريا في قول الجميع .

قال الرازي : واعلم أنه لا يتعلق كثير غرض في معرفة أولئك الأقوام بأعيانهم ، بل المقصود هو أنهم لما أكثروا من المعاصي سلط عليهم أقواماً قتلوهم وأفنوهم.

قال ابن كثير : "وقد روى ابن جرير في هذا المكان حديثا أسنده عن حذيفة مرفوعا مطولا ، وهو حديث موضوع لا محالة ، لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث ، والعجب كل العجب ، كيف راجَ عليه مع جلالة قدره ، وإمامته ، وقد صرح شيخنا : أبو الحجاج المزي رحمه الله بأنه موضوع مكذوب ، وكتب ذلك على حاشية الكتاب يعني كتاب تفسير ابن جرير وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية ، لم أرَ تطويل الكتاب بذكرها ، لأن منها : ما هو موضوع من وضع بعض زنادقتهم ، ومنها : ما قد يحتمل أن يكون صحيحاً ، ونحن في غنية عنها ولله الحمد ، وفيما قص الله علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله ، ولم يحوجنا الله ، ولا رسوله إليهم ، وقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغَوا ، وبغَوا سلط الله عليهم عدوهم ، فاستباح بيضتهم ، وسلك خلال بيوتهم ، وأذلهم ، وقهرهم جزاء وفاقا ، وما ربك بظلام للعبيد ، فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقا كثيرا من الأنبياء والعلماء .

وهذا هو الحق الذي ينبغي أن يصار إليه في الآية ، والقصص القرآني لا يعنى بذكر الأشخاص ، ولا الأماكن ؛ لأن الغرض منه العبرة ، والتذكير ، والتعليم والتأويل ، والذي دلت عليه الآية : أنهم أفسدوا مرتين في الزمن الأول ، وظلموا وبغوا ، فسلط الله عليهم في الأولى من أذلهم وسباهم ، ولا يغنيني أن يكون هذا "سنجاريب" أو "بختنصر" وجيشه ؛ إذ لا يترتب على العلم به فائدة تُذكر ، وسلط الله عليهم في الثانية من أذلهم ، وساء وجوههم ، ودخل المسجد الأقصى ، فأفسد فيه ، ودمر ، ولا يعنينا أن يكون هذا الذي نكل بهم هو : "طيطوس" الروماني أو غيره ؛ لأن المراد من سياق قصته ما قضاه الله على بني إسرائيل أنهم أهل فساد ، وبطر ، وظلم ، وبغي ، وأنهم لما أفسدوا وطغوا ، وتجبروا سلطه الله عليهم من عباده من نكل بهم ، وأذلهم ، وسباهم ، وشردهم ، ثم إن الآيات دلت أيضا على أن بني إسرائيل لا يقف طغيانهم ، وبغيهم ، وإفسادهم عند المرتين الأوليين ، بل الآية توحي بأن ذلك مستمر إلى ما شاء الله ، وأن الله سيسلط عليهم من يسومهم العذاب ، ويبطش بهم ، ويرد ظلمهم وعدوانهم ، قال عز شأنه : {عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا} ، أليس في قوله هذا إنذار ووعيد لهم إلى يوم القيامة ؟! بلى.

وما يؤكد هذا الإنذار والوعيد قوله تعالى : {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}

جاء في (التفسير الوسيط) فإن قال قائل: وما فائدة أن يخبر الله- تعالى- بنى إسرائيل في التوراة أنهم يفسدون في الأرض مرتين. وأنه يعاقبهم على ما كان منهم من استعلاء وطغيان، بأن يسلط عليهم من يذلهم ويقهرهم ويقضى عليهم؟.

فالجواب: أن إخبارهم بذلك يفيد أن الله- عز وجل- لا يظلم الناس شيئا، وإنما يعاقبهم على ما يكون منهم من إفساد ويعفو عن كثير، وأن رحمته مفتوحة للعصاة متى تابوا وأنابوا وأصلحوا من شأن أنفسهم.

وهناك فائدة أخرى لهذا الإخبار، وهو تنبيه العقلاء في جميع الأمم أن يحذروا من مواقعة المعاصي التي تؤدى إلى الهلاك، وأن يحذروا أممهم من ذلك، ويبصروهم بسوء عاقبة السير في طريق الغي، حتى لا يعرضوا أنفسهم لعقاب الله- عز وجل-.

ومن فوائد إيراد هذا الخبر في القرآن الكريم، تنبيه اليهود المعاصرين للنبي صلّى الله عليه وسلم ومن على شاكلتهم في الفسوق والعصيان من المشركين، إلى سنة من سنن الله في خلقه، وهي أن الإفساد عاقبته الخسران.

فعلى اليهود وغيرهم من الناس أن يتبعوا الرسول ﷺ الذي ثبتت نبوته ثبوتا لا شك فيه، لكي يسعدوا في دنياهم وآخرتهم.

ثم أشار- سبحانه- إلى الفائدة الثالثة من هذا الإخبار، وهي أن الأمم المغلوبة على أمرها. تستطيع أن تسترد مجدها، متى أصلحت من شأن أنفسها، ومتى استقامت على أمر الله- تعالى

-ثم ذكر الله تعالى ما حصل لبني إسرائيل بعد أن تابوا وأنابوا :

(**ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ**) أي : ثم لما تبتم وأنبتم أهلكنا أعداءكم ، ورددنا لكم الدَّولةَ والغلبة عليهم ، بعد ذلك البلاء الشديد .

فالمراد بالكرة هنا الدولة والغلبة على سبيل المجاز .

(**وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ**) أي : أعطيناكم الأموال الكثيرة والذرية الوفيرة بعد أن نُهبت أموالكم ، وسُبيت أولادكم .

(**وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا**) أي : جعلناكم أكثر عددا ورجالا من عدوكم ، لتستعيدوا قوتكم وتبنوا دولتكم .

فالواجب عليكم أن تقدروا هذه النعم، وأن تحسنوا الاستفادة منها، بأن تشكروا الله- تعالى- وتخلصوا له العبادة والطاعة، فقد نصركم بعد هزيمتكم، وأغناكم بعد فقركم، وكثّركم بعد قتلكم.

(**إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا**) أي : أَنَّ مَنْ أَحْسَنَ - أَيْ بِالْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ - فَإِنَّهُ إِنَّمَا يُحْسِنُ إِلَى نَفْسِهِ ; لِأَنَّ نَفْعَ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ خَاصَّةً . وَأَنَّ مَنْ أَسَاءَ - أَيْ بِالْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي - فَإِنَّهُ إِنَّمَا يُسِيءُ عَلَى نَفْسِهِ . لِأَنَّ ضَرَرَ ذَلِكَ عَائِدٌ إِلَى نَفْسِهِ خَاصَّةً .

وَبَيَّنَ هَذَا الْمَعْنَى فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ :

كقوله تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا) .

وَقَوْلِهِ (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) .

وَقَوْلِهِ (مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ) . إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ

وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ (وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) بِمَعْنَى عَلَى ، أَيْ فَعَلَيْهَا .

بِدَلِيلِ قَوْلِهِ (وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا) .

وَمِنْ إِتْيَانِ اللَّامِ بِمَعْنَى عَلَى ، قَوْلُهُ تَعَالَى (وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ) أَيْ عَلَيْهَا ، وَقَوْلُهُ (فَسَلَامٌ لَكَ) . أَيْ سَلَامٌ عَلَيْكَ عَلَى مَا قَالَهُ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ . (أضواء) .

(**فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ**) أي : إذا أفسدتم الكرة الثانية .

(**لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ**) أَيْ : يُهِينُوكُمْ وَيَقْهَرُوكُم .

قال ابن الجوزي : ومعنى { ليسوؤوا وجوهكم } أي : ليُدخِلوا عليكم الحزن بما يفعلون من قتلكم وسَبْيِكُم ؛ وخصت المساءاة بالوجوه ، والمراد : أصحاب الوجوه ، لما يبدو عليها من أثر الحزن والكآبة.

(**وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ**) أي : بيت المقدس .

(**كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ**) أي : في الحال التي جاسوا فيها خلال الديار .

قال أبو حيان : أي : بالسيف والقهر والغلبة والإذلال .

(**وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا**) أي : وليدمروا ويهلكوا ما غلبوا عليه تدميرا! ! وقد سلط الله عليهم (مجوس الفرس) فشردوهم في الأرض وقتلوهم ودمروا مملكتهم تدميراً .

(**عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ**) أي : لعل الله أن يرحمكم ويغفر عنكم ، إن تبتم وأنبتم ، وهذا وعد منه تعالى بكشف العذاب عنهم إن رجعوا إلى الله – و[عسى] من الله واجبة .

(**وَإِنْ عُدتُّمْ**) إلى الإفساد .

(**عُدْنَا**) إلى الإدالة عليكم في الدنيا مع ما ندخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال .

(**وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا**) في قوله تعالى (حصيراً) قولان :

الأول : أَنَّ الْحَصِيرَ : الْمَحْبَسُ وَالسِّجْنُ ; مِنَ الْحَصْرِ وَهُوَ الْحَبْسُ .

والثاني : أَنَّ مَعْنَى حَصِيرًا ; أَيْ : فِرَاشًا وَمِهَادًا ، مِنَ الْحَصِيرِ الَّذِي يُفْرَشُ ; لِأَنَّ الْعَرَبَ تُسَمِّي الْبِسَاطَ الصَّغِيرَ حَصِيرًا . قَالَ الثَّعْلَبِيُّ : وَهُوَ وَجْهٌ حَسَنٌ . وَيَدُلُّ لِهَذَا الْوَجْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى (لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ) ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ . وَالْمِهَادُ : الْفِرَاشُ .

قال السعدي : فعادوا لذلك فسلط الله عليهم رسوله محمدا صلى الله عليه وسل ، فانتقم الله به منهم، فهذا جزاء الدنيا وما عند الله من النكال أعظم وأشنع .

–قال الشنقيطي : بيّن تعالى أَنَّهُمْ إِنْ عَادُوا لِلْإِفْسَادِ الْمَرَّةَ الثَّالِثَةَ فَإِنَّهُ جَلَّ وَعَلَا يَعُودُ لِلِانْتِقَامِ مِنْهُمْ بِتَسْلِيطِ أَعْدَائِهِمْ عَلَيْهِمْ ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : (وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا) وَلَمْ يُبَيِّنْ هُنَا : هَلْ عَادُوا لِلْإِفْسَادِ الْمَرَّةَ الثَّالِثَةَ أَوْ لَا ؟

وَلَكِنَّهُ أَشَارَ فِي آيَاتٍ أُخَرَ إِلَى أَنَّهُمْ عَادُوا لِلْإِفْسَادِ بِتَكْذِيبِ الرَّسُولِ ﷺ ، وَكَتْمِ صِفَاتِهِ وَنَقْضِ عُهُودِهِ ، وَمُظَاهَرَةِ عَدُوِّهِ عَلَيْهِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَفْعَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ . فَعَادَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا لِلِانْتِقَامِ مِنْهُمْ تَصْدِيقًا لِقَوْلِهِ : وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا) فَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ نَبِيَّهُ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ ، فَجَرَى عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ ، وَالنَّضِيرِ، وَبَنِي قَيْنُقَاعَ وَخَيْبَرَ مَا جَرَى مِنَ الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَالْإِجْلَاءِ، وَضَرْبِ الْجِزْيَةِ عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ، وَضَرْبِ الذِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ.

فَمِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُمْ عَادُوا لِلْإِفْسَادِ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ) .

وَقَوْلُهُ (أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ) .

وَقَوْلُهُ (وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ) وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

وَمِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى عَادَ لِلِانْتِقَامِ مِنْهُمْ :

قَوْلُهُ تَعَالَى (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) .

وقوله تَعَالَى (وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا) وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

الفوائد :

١-وفي هذه الآيات التحذير لهذه الأمة من العمل بالمعاصي لئلا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل، فسنة الله واحدة لا تبدل ولا تغير.

٢-من نظر إلى تسليط الكفرة على المسلمين والظلمة، عرف أن ذلك من أجل ذنوبهم عقوبة لهم وأنهم إذا أقاموا كتاب الله وسنة رسوله، مكن لهم في الأرض ونصرهم على أعدائهم.

٣-سنة من سنن الله التي لا تتبدل أن العصيان والكفر والطغيان سبب للهلاك .

٤-وجوب الاعتبار والاتعاظ بما حصل للأمم الكافرة من خلاك وتدمير بسبب عصيانها وكفرها .

٥-أن ما قضاه الله وحكم به كوناً كائن لا محالة .

٦-فضل التوبة والرجوع عن المعاصي .

٧-أن من تاب تاب الله عليه .

٨-أن من أسباب القوة والعزة والتمكين كثرة الأموال والبنين وكثرة العدد .

٩-غنى الله عن خلقه ، فلا ينفعه إحسان المحسن ولا يضره إساءة المسيء .

١٠-إثبات جهنم وأنها سجن للكافرين .

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠)) .

[الإسراء : ٩-١٠] .

==========

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) يَمْدَحُ تَعَالَى كِتَابَهُ الْعَزِيزَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُوَ الْقُرْآنُ بِأَنَّهُ يَهْدِي لِأَقْوَمِ الطُّرُقِ وَأَوْضَحِ السُّبُلِ ، فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره.

أي : إن هذا القرآن الكريم، الذي أنزله الله- تعالى- عليك يا محمد ﷺ، يرشد الناس ويدلهم ويهديهم- في جميع شئونهم الدينية والدنيوية- إلى الملة التي هي أقوم الملل وأعدلها، وهي ملة الإسلام. فمنهم من يستجيب لهذه الهداية فيظفر بالسعادة، ومنهم من يعرض عنها فيبوء بالشقاء.

ويهدى للتي هي أقوم، في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله.

ويهدى للتي هي أقوم في عالم العبادة، بالموازنة بين التكاليف والطاقة، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل، ولا تسهل حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار، ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال.

ويهدى للتي هي أقوم، في علاقات الناس بعضهم ببعض: أفرادا وأزواجا وحكومات وشعوبا، ودولا وأجناسا.

ويهدى للتي هي أقوم في نظام الحكم، ونظام المال، ونظام الاجتماع، ونظام التعامل.

قال الشنقيطي :وَمِنْ هَدْيِ الْقُرْآنِ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ إِبَاحَتُهُ تَعَدُّدَ الزَّوْجَاتِ إِلَى أَرْبَعٍ ، وَأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا خَافَ عَدَمَ الْعَدْلِ بَيْنَهُنَّ ، لَزِمَهُ الِاقْتِصَارُ عَلَى وَاحِدَةٍ ، أَوْ مِلْكِ يَمِينِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ

مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) وَلَا شَكَّ أَنَّ الطَّرِيقَ الَّتِي هِيَ أَقْوَمُ الطُّرُقِ وَأَعْدَلُهَا ، هِيَ إِبَاحَةُ تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ لِأُمُورٍ مَحْسُوسَةٍ يَعْرِفُهَا كُلُّ الْعُقَلَاءِ .

مِنْهَا : أَنَّ الْمَرْأَةَ الْوَاحِدَةَ تَحِيضُ وَتَمْرَضُ ، وَتَنْفَسُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعَوَائِقِ الْمَانِعَةِ مِنْ قِيَامِهَا بِأَخَصِّ لَوَازِمِ الزَّوْجِيَّةِ ، وَالرَّجُلُ مُسْتَعِدٌّ لِلتَّسَبُّبِ فِي زِيَادَةِ الْأُمَّةِ ، فَلَوْ حُبِسَ عَلَيْهَا فِي أَحْوَالِ أَعْذَارِهَا لَعُطِّلَتْ مَنَافِعُهُ بَاطِلًا فِي غَيْرِ ذَنْبٍ .

وَمِنْهَا : أَنَّ اللَّهَ أَجْرَى الْعَادَةَ بِأَنَّ الرِّجَالَ أَقَلُّ عَدَدًا مِنَ النِّسَاءِ فِي أَقْطَارِ الدُّنْيَا ، وَأَكْثَرُ تَعَرُّضًا لِأَسْبَابِ الْمَوْتِ مِنْهُنَّ فِي جَمِيعِ مَيَادِينِ الْحَيَاةِ ، فَلَوْ قَصَرَ الرَّجُلُ عَلَى وَاحِدَةٍ ، لَبَقِيَ عَدَدٌ ضَخْمٌ مِنَ النِّسَاءِ مَحْرُومًا مِنَ الزَّوَاجِ ، فَيَضْطَرُّونَ إِلَى رُكُوبِ الْفَاحِشَةِ فَالْعُدُولُ عَنْ هَدْيِ الْقُرْآنِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ ضَيَاعِ الْأَخْلَاقِ ، وَالِانْحِطَاطِ إِلَى دَرَجَةِ الْبَهَائِمِ فِي عَدَمِ الصِّيَانَةِ ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى الشَّرَفِ وَالْمُرُوءَةِ وَالْأَخْلَاقِ ، فَسُبْحَانَ الْحَكِيمِ الْخَبِيرِ ، كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ .

وَمِنْهَا : أَنَّ الْإِنَاثَ كُلَّهُنَّ مُسْتَعِدَّاتٌ لِلزَّوَاجِ ، وَكَثِيرٌ مِنَ الرِّجَالِ لَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَى الْقِيَامِ بِلَوَازِمِ الزَّوَاجِ لِفَقْرِهِمْ ، فَالْمُسْتَعِدُّونَ لِلزَّوَاجِ مِنَ الرِّجَالِ أَقَلُّ مِنَ الْمُسْتَعِدَّاتِ لَهُ مِنَ النِّسَاءِ ; لِأَنَّ الْمَرْأَةَ لَا عَائِقَ لَهَا ، وَالرَّجُلُ يَعُوقُهُ الْفَقْرُ وَعَدَمُ الْقُدْرَةِ عَلَى لَوَازِمِ النِّكَاحِ ، فَلَوْ قَصَرَ الْوَاحِدُ عَلَى الْوَاحِدَةِ ، لَضَاعَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْتَعِدَّاتِ لِلزَّوَاجِ أَيْضًا بِعَدَمِ وُجُودِ أَزْوَاجٍ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا لِضَيَاعِ الْفَضِيلَةِ وَتَفَشِّي الرَّذِيلَةِ ، وَالِانْحِطَاطِ الْخُلُقِيِّ ، وَضَيَاعِ الْقِيَمِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، كَمَا هُوَ وَاضِحٌ .

أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/ ٢٤)

وَمِنْ هَدْيِ الْقُرْآنِ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ : تَفْضِيلُهُ الذَّكَرَ عَلَى الْأُنْثَى فِي الْمِيرَاثِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [٤ \ ١٧٦] .

اقْتَضَتْ حِكْمَةُ الْحَكِيمِ الْخَبِيرِ أَنْ يُؤْثِرَ الرَّجُلَ عَلَى الْمَرْأَةِ فِي الْمِيرَاثِ وَإِنْ أَدْلَيَا بِسَبَبٍ وَاحِدٍ ; لِأَنَّ الرَّجُلَ مُتَرَقِّبٌ لِلنَّقْصِ دَائِمًا بِالْإِنْفَاقِ عَلَى نِسَائِهِ ، وَبَذْلِ الْمُهُورِ لَهُنَّ ، وَالْبَذْلِ فِي نَوَائِبِ الدَّهْرِ ، وَالْمَرْأَةُ مُتَرَقِّبَةٌ لِلزِّيَادَةِ بِدَفْعِ الرَّجُلِ لَهَا الْمَهْرَ ، وَإِنْفَاقِهِ عَلَيْهَا وَقِيَامِهِ بِشُئُونِهَا ، وَإِيثَارُ مُتَرَقِّبِ النَّقْصِ دَائِمًا عَلَى مُتَرَقِّبِ الزِّيَادَةِ دَائِمًا لِجَبْرِ بَعْضِ نَقْصِهِ الْمُتَرَقِّبِ ، حِكْمَتُهُ ظَاهِرَةٌ وَاضِحَةٌ ، لَا يُنْكِرُهَا إِلَّا مَنْ أَعْمَى اللَّهُ بَصِيرَتَهُ بِالْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي ، وَلِذَا قَالَ تَعَالَى : لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ [٤ \ ١١] ، وَلِأَجْلِ هَذِهِ الْحِكَمِ الَّتِي بَيَّنَا بِهَا فَضْلَ نَوْعِ الذَّكَرِ عَلَى نَوْعِ الْأُنْثَى فِي أَصْلِ الْخِلْقَةِ وَالطَّبِيعَةِ ، جَعَلَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ الرَّجُلَ هُوَ الْمَسْئُولَ عَنِ الْمَرْأَةِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهَا .

(**وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**) الذين آمنوا بالله وبرسوله وبكل ما يجب الإيمان به .

والتبشير الإخبار بما يسر ، سمي بذلك لأن البشر يظهر على الوجه ، والإنذار: هو الإعلام المقرون بالتخويف.

والبشارة أغلب ما تطلق على الإخبار بما يسر خاصة ، وجاء في القرآن إطلاقها على الإخبار بما يسوء كقوله (فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) إما تهكماً ، وإما أن هذا أسلوب من أساليب العرب.

(**الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ**) من واجبات ومستحبات.

– والإيمان إذا أفرد ولم يذكر معه (وعملوا الصالحات) فإنه يشمل جميع خصال الدين من اعتقادات وعمليات، وأما إذا عُطف العمل الصالح على الإيمان كقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) فإن الإيمان حينئذ ينصرف إلى ركنه الأكبر الأعظم وهو الاعتقاد القلبي، وهو إيمان القلب واعتقاده وانقياده بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وبكل ما يجب الإيمان به.

– والعمل الصالح لا يكون صالحاً إلا بشرطين:

الشرط الأول: أن يكون خالصاً لله، قال ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى) متفق عليه.

الشرط الثاني: أن يكون متابعاً للنبي ﷺ، لقوله ﷺ (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم.

– ودائماً يقرن الله العمل بالصالح، لأنه ليس كل عمل يقبل إلا إذا كان صالحاً.

قال تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ...).

وقال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ....).

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً).

– قال السعدي: ووصفت أعمال الخير بالصالحات، لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه ودنياه، وحياته الدنيوية والأخروية، ويزول بها عنه فساد الأحوال، فيكون بذلك من الصالحين الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته.

(**أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا**) يوم القيامة .

كما قال تعالى (لْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا) .

فالإيمان والعمل الصالح سبب لدخول الجنة، وقد ورد هذا في آيات كثيرة.

قال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً).

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).

وقال تعالى (وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ).

وقال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً).

(**وأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ**) أَيْ : وَيُبَشِّرُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ .

قال الآلوسي : وتخصيص الآخرة بالذكر من بين سائر ما لم يؤمن به الكفرة، لكونها أعظم ما أمروا بالإيمان به .

(**أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيماً**) أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وقد ذكر القرآن أنواعاً كثيرة من عذاب الكفار .

كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ. وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ).

وقال تعالى (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ. لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ).

وقال تعالى (قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ. رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ. قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ).

وقال تعالى (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ).

وقال تعالى (كَلَّا إِنَّهَا لَظَى. نَزَّاعَةً لِلشَّوَى. تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى).وقال تعالى (تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ).

كَمَا قَالَ تَعَالَى (فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ) .

وقال تعالى (بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) .

التبشير في الأصل الإخبار بما يسر، وقد يطلق على الشر –كما هنا – تهكماً كما قال تعالى (ذق إنك أنت العزيز الكريم) وقال تعالى (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ).

الفوائد :

١. شرف القرآن .
٢. أن القرآن يهدي للتي هي قوم .
٣. الترغيب في اتباع القرآن .
٤. جمعت الآية بين الترغيب والترهيب .
٥. فالقرآن مشتمل على البشارة والنذارة وذكر الأسباب التي تنال بها البشارة وهو الإيمان والعمل الصالح والتي تستحق بها النذارة وهو ضد ذلك.
٦. لا بد من الجمع بين الإيمان والعمل الصالح .
٧. أن العمل لا يقبل إلا إذا كان صالحاً .
٨. الحث على الإيمان والعمل الصالح .
٩. شدة عذاب الكفار يوم القيامة .

(وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١)) .

[الإسراء : ١١] .

==========

(وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ) المراد بالإنسان هنا : الجنس ، لوقوع هذا الدعاء من بعض أفراده ، وهو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يحب أن يستجاب له {دُعَاءهُ بالخير} أي : مثل دعائه لربه بالخير لنفسه ولأهله كطلب العافية والرزق ونحوهما ، فلو استجاب الله دعاءه على نفسه بالشرّ هلك ، لكنه لم يستجب تفضلاً منه ورحمة ، ومثل ذلك (وَلَوْ يُعَجِّلُ الله لِلنَّاسِ الشر استعجالهم بالخير) .

وفي الحديث (لا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا عَلَى أَمْوَالِكُمْ أَنْ تُوَافِقُوا مِنَ اللَّهِ ساعة إجابة يَسْتَجِيبُ فِيهَا) وَإِنَّمَا يَحْمِلُ ابْنَ آدَمَ عَلَى ذلك قلقه وعجلته .

قال القرطبي : قال ابن عباس وغيره : هو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يحب أن يستجاب له : اللَّهُمَّ أهلكه ، ونحوه.

(دُعَآءَهُ بالخير) أي كدعائه ربَّه أن يَهَب له العافية؛ فلو استجاب الله دعاءه على نفسه بالشر هلك لكن بفضله لا يستجيب له في ذلك، نظيره (وَلَوْ يُعَجِّلُ الله لِلنَّاسِ الشر استعجالهم بالخير) .

وقال الشنقيطي : فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَجْهَانِ مِنَ التَّفْسِيرِ لِلْعُلَمَاءِ ، وَأَحَدُهُمَا يَشْهَدُ لَهُ قُرْآنٌ .

وَهُوَ أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ) كَأَنْ يَدْعُوَ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ بِالْهَلَاكِ عِنْدَ الضَّجَرِ مِنْ أَمْرٍ ، فَيَقُولُ اللَّهُمَّ أَهْلِكْنِي ، أَوْ أَهْلِكْ وَلَدِي ، فَيَدْعُو بِالشَّرِّ دُعَاءً لَا يُحِبُّ أَنْ يُسْتَجَابَ لَهُ ، وَقَوْلُهُ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ أَيْ يَدْعُو بِالشَّرِّ كَمَا يَدْعُو بِالْخَيْرِ فَيَقُولُ عِنْدَ الضَّجَرِ : اللَّهُمَّ أَهْلِكْ وَلَدِي ، كَمَا يَقُولُ فِي غَيْرِ وَقْتِ الضَّجَرِ : اللَّهُمَّ عَافِهِ ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الدُّعَاءِ .

وَلَوِ اسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ بِالشَّرِّ لَهَلَكَ .

وَيَدُلُّ لِهَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) أَيْ : لَوْ عَجَّلَ لَهُمُ الْإِجَابَةَ بِالشَّرِّ كَمَا يُعَجِّلُ لَهُمُ الْإِجَابَةَ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ; أَيْ لَهَلَكُوا وَمَاتُوا ، فَالِاسْتِعْجَالُ بِمَعْنَى التَّعْجِيلِ .

وَيَدْخُلُ فِي دُعَاءِ الْإِنْسَانِ بِالشَّرِّ قَوْلُ النَّضِرِ بْنِ الْحَارِثِ الْعَبْدَرِيِّ (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) .

وَمِمَّنْ فَسَّرَ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ بِمَا ذَكَرْنَا : ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَمُجَاهِدٌ ، وَقَتَادَةُ ، وَهُوَ أَصَحُّ التَّفْسِيرَيْنِ لِدَلَالَةِ آيَةِ يُونُسَ عَلَيْهِ .

الْوَجْهُ الثَّانِي فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ : أَنَّ الْإِنْسَانَ كَمَا يَدْعُو بِالْخَيْرِ فَيَسْأَلُ اللَّهَ الْجَنَّةَ ، وَالسَّلَامَةَ مِنَ النَّارِ ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، كَذَلِكَ قَدْ يَدْعُو بِالشَّرِّ فَيَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُيَسِّرَ لَهُ الزِّنَى بِمَفْسُوقَتِهِ ، أَوْ قَتْلَ مُسْلِمٍ هُوَ عَدُوٌّ لَهُ وَنَحْوَ ذَلِكَ .

(**وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً**) بيان للسبب الذي حمل الإنسان على أن يدعو بالشر كما يدعو بالخير.

والعجول من العجل- بفتح العين والجيم- وهو الإسراع في طلب الشيء قبل وقته.

يقال: عجل- بزنة تعب- يعجل فهو عجلان، إذا أسرع.

أي: وكان الإنسان متسرعا في طلب كل ما يقع في قلبه، ويخطر بباله، لا يتأنى فيه تأنى المتبصر، ولا يتأمل تأمل المتدبر.

وشبيه بهذه الجملة قوله تعالى (خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ، سَأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ) ومَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ جِنْسَ الْإِنْسَانِ مِنْ طَبْعِهِ الْعَجَلُ وَعَدَمُ التَّأَنِّي .

فالْمُرَادَ بِالْعَجَلِ هُوَ الْعَجَلَةُ الَّتِي هِيَ خِلَافُ التَّأَنِّي ، وَالتَّثَبُّتِ . وَالْعَرَبُ تَقُولُ : خُلِقَ مِنْ كَذَا . يَعْنُونَ بِذَلِكَ الْمُبَالِغَةَ فِي الْإِنْصَافِ . كَقَوْلِهِمْ : خُلِقَ فُلَانٌ مِنْ كَرَمٍ ، وَخُلِقَتْ فُلَانَةُ مِنَ الْجَمَالِ . وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْف) .

من الأمثلة على العجلة المذمومة:

الاستعجال بالدعاء على الأهل والمال والولد عند الغضب، قال تعالى : (وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولاً).

وعن جابر ﷺ قال: قال النبي ﷺ لا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلا تَدْعُوا عَلَى أَوْلادِكُمْ وَلا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ لا تُوَافِقُوا مِنْ اللَّهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءً فَيَسْتَجِيبُ لَكُم) .

ولعل كثيرًا مما نرى من المصائب والأمراض وفساد الأولاد يكون بسبب الدعاء عليهم، وكثير من الناس لا يشعر بذلك، فهل من مدكر؟!

ومنها: استعجال المرء إجابة دعائه .

فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال(يُسْتَجَابُ لأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ فَيَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ رَبِّي فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِي) .

ومنها استعجال بعض المصلين في صلاتهم، فلا يُتِمّونَ رُكُوعَهَا ولا سُجُودَهَا ولا يَطْمَئِنّونَ فيها :

وقد جاء في حديث أبي هريرة ﷺ أنَّ رجُلاً صلَّى عند النبي ﷺ فقال له النبيُّ ﷺ: (ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ) – ثلاث مرات – في كل مرة يقول له ذلك.

ومنها أن يستبطئ الإنسان الرزق فيستعجل، فيطلبه من طرق محرمة ووجوه غير مشروعة :

فعن أبي أمامة ﷺ قال: ﷺ (إِنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فِي روعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أَجَلَهَا، وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلاَ يَحْمِلَنَّ أَحَدَكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ يَطْلُبَهُ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لاَ يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلاَّ بِطَاعَتِه) .

وهناك عجلة محمودة :

الاستعجال في التوبة إلى الله:

يقول جل في علاه :(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا *وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيماً) .

قضاء الدين :

عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: (من أخذ أموال الناس يريد أداءَها، أدَّى الله عنه، ومن أخذ يريد إتلافَها، أتلفه الله) .

الاستعجال في أداء الحقوق إلى أصحابها:

عن عمر بن سعيد قال: أخبرنا ابن أبي مُلَيْكةَ، عن عقبة، قال: صليت وراء النبي ﷺ بالمدينة العصرَ، فسلم ثم قام مسرعًا، فتخطى رقابَ الناس إلى بعض حُجَر نسائه، ففزع الناس من سرعته، فخرج عليهم، فرأى أنهم عجبوا من سرعته، فقال: ((ذكرتُ شيئًا من تِبْرٍ عندنا؛ فكرهت أن يحبسني، فأمرت بقسمته) .

الاستعجال في دفن الميت .

الفوائد :

١. رحمة الله بعباده الله حيث لا يعاجلهم بالعذاب .
٢. عجلة الإنسان وتأثره حال الغضب والضجر .
٣. الحذر من حالة الغضب والضجر .
٤. لا لوم على الإنسان بدعائه بالخير .
٥. أن الإنسان خلق من عجل .

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (١٢)) .

[الإسراء : ١٢] .

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ) من أعظم آيات الله الدالة على قدرته وإلهيته وتوحيده ، وأنه المستحق للعبادة وحده سبحانه .

كما قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ).

وقال تعالى (وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ).

فالإتيانُ بالليلِ بدلَ النهارِ والإتيانُ بالنهارِ بدلَ الليلِ من أعظمِ آياتِ اللَّهِ – جل وعلا – الدالة على أنه المعبودُ وحدَه، وأنه الربُّ وحدَه، ومع كونِ الليلِ والنهارِ آيتين فَهُمَا أيضًا نعمتانِ عظيمتانِ من أعظمِ نِعَمِ اللَّهِ على خَلْقِهِ، فهما جامعانِ بينَ كونِهما آيتين وكونهما نعمتين .

وَبيَّنَ أنهما آيتانِ بقولِه (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَار) .

وَبَيَّنَ أنهما نعمتانِ وآيتانِ في مواضعَ كثيرةٍ من أصرحِها سورةُ القصصِ :

حيث قال فيها: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ) ثم بَيَّنَ أنهما نعمتانِ بعدَ بيانِ أنهما آيتانِ قال: (وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) .

فَقَوْلُهُ (لِتَسْكُنُوا فِيهِ) أَيْ فِي اللَّيْلِ ، وَقَوْلُهُ (وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) أَيْ فِي النَّهَارِ

(**فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ**) أي : فجعلنا الآية التي هي الليل. ممحوة الضوء، مظلمة الهيئة، مختفية فيها الأشياء، ساكنة فيها الحركات.

(**وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً**) أي : وجعلنا الآية التي هي النهار مضيئة، تبصر فيها الأشياء وترى بوضوح وجلاء.

(**لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ**) أي : لتطلبوا في النهار أسباب معايشكم .

أي : جعلنا النهار مضيئا، لتطلبوا فيه ما تحتاجونه من أمور معاشكم، ومن الأرزاق التي قسمها الله بينكم.

قال ابن عاشور : وجاء التعليل لحكمة آية النهار خاصةً دون ما يقابلها من حكمة الليل لأن المنة بها أوضح ، ولأن من التنبه إليها يحصل التنبه إلى ضدها وهو حكمة السكون في الليل ، كما قال (لتسكنوا فيه والنهار مبصراً) .

–قال الآلوسي : وفي التعبير عن الرزق بالفضل، وعن الكسب بالابتغاء: دلالة على أنه ليس للعبد في تحصيل الرزق تأثير سوى الطلب، وإنما الإعطاء من الله– تعالى– بطريق التفضل .

كما قال تعالى (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ، لِتَسْكُنُوا فِيهِ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) .

فقوله تعالى (لِتَسْكُنُوا فِيهِ) يعود إلى الليل. وقوله تعالى (وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) يعود على النهار.

–قال الشنقيطي : يَعْنِي أَنَّهُ جَعَلَ اللَّيْلَ مُظْلِمًا مُنَاسِبًا لِلْهُدُوءِ وَالرَّاحَةِ ، وَالنَّهَارَ مُضِيئًا مُنَاسِبًا لِلْحَرَكَةِ وَالِاشْتِغَالِ بِالْمَعَاشِ فِي الدُّنْيَا ، فَيَسْعَوْنَ فِي مَعَاشِهِمْ فِي النَّهَارِ ، وَيَسْتَرِيحُونَ مِنْ تَعَبِ الْعَمَلِ بِاللَّيْلِ ، وَلَوْ كَانَ الزَّمَنُ كُلُّهُ لَيْلًا لَصَعُبَ عَلَيْهِمُ الْعَمَلُ فِي مَعَاشِهِمْ ، وَلَوْ كَانَ كُلُّهُ نَهَارًا لَأَهْلَكَهُمُ التَّعَبُ مِنْ دَوَامِ الْعَمَلِ .

ثم بين– سبحانه– حكمة أخرى ونعمة أخرى لجعله الليل والنهار على هذه الهيئة فقال:

(**وَلِتَعْلَمُواْ**) بتوالي الليل والنهار واختلاف القمر .

(**عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ**) نِعْمَةً أُخْرَى عَلَى خُلُقِهِ ، وَهِيَ مَعْرِفَتُهُمْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ ، لِأَنَّهُمْ بِاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ يَعْلَمُونَ عَدَدَ الْأَيَّامِ وَالشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ، وَيَعْرِفُونَ بِذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِيُصَلُّوا فِيهِ صَلَاةَ الْجُمُعَةِ، وَيَعْرِفُونَ شَهْرَ الصَّوْمِ ، وَأَشْهُرَ الْحَجِّ، وَيَعْلَمُونَ مُضِيَّ أَشْهُرِ الْعِدَّةِ لِمَنْ تَعْتَدُّ بِالْأَشْهُرِ الْمُشَارِ إِلَيْهَا فِي قَوْلِهِ (وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ) وَقَوْلِهِ (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا) وَيَعْرِفُونَ مُضِيَّ الْآجَالِ الْمَضْرُوبَةِ لِلدُّيُونِ وَالْإِجَارَاتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

(**وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً**) أي: بينا الآيات وصرفناه لتتميز الأشياء ويستبين الحق من الباطل كما قال تعالى (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) .

الفوائد :

١. من أعظم آيات الله الليل والنهار .

٢. حكمة الله في جعل الليل مظلماً للراحة .

٣. حكمة الله في جعل الليل مبصراً للعمل .

٤. إثبات أفعال الله للحكمة .

٥. أن الله فصل كل شيء وبينه .

(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤))

[الإسراء : ١٣-١٥] .

==========

(**وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ**) المراد بطائره: عمله الصادر عنه باختياره وكسبه، حسبما قدره الله- تعالى- عليه من خير وشر.

أي : كل إنسان مرهون بعمله ، مجزي به ، وعملُه ملازم له لزوم القلادة للعُنُق ، لا ينفك عنه أبداً .

كَقَوْلِهِ تَعَالَى (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) .

وَقَوْلِهِ (إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) .

وَقَوْلِهِ (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا) .

وَقَوْلِهِ (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) وَالْآيَاتُ بِمِثْلِ هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا .

وقوله سبحانه (فِي عُنُقِهِ) تصوير لشدة اللزوم وكمال الارتباط بين الإنسان وعمله.

وخص- سبحانه- العنق بالذكر من بين سائر الأعضاء، لأن اللزوم فيه أشد، ولأنه العضو الذي تارة يكون عليه ما يزينه كالقلادة وما يشبهها، وتارة يكون فيه ما يشينه كالغل والقيد وما يشبههما.

-قال ابن كثير : والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه، قليله وكثيره: ويكتب عليه ليلا ونهارا، صباحا ومساء .

(**وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا**) ذَكَرَ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّ ذَلِكَ الْعَمَلَ الَّذِي أَلْزَمَ الْإِنْسَانَ إِيَّاهُ يُخْرِجُهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي كِتَابٍ يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ، أَيْ مَفْتُوحًا يَقْرَؤُهُ هُوَ وَغَيْرُهُ .

وَبَيَّنَ أَشْيَاءَ مِنْ صِفَاتِ هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي يَلْقَاهُ مَنْشُورًا فِي آيَاتٍ أُخَرَ .

فَبَيَّنَ أَنَّ مِنْ صِفَاتِهِ : أَنَّ الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقُونَ ; أَيْ خَائِفُونَ مِمَّا فِيهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَتْرُكُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ، وَأَنَّهُمْ يَجِدُونَ فِيهِ جَمِيعَ مَا عَمِلُوا حَاضِرًا لَيْسَ مِنْهُ شَيْءٌ غَائِبًا ، وَأَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا لَا يَظْلِمُهُمْ فِي الْجَزَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا .

وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) .

وَبَيَّنَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يُؤْتَى هَذَا الْكُتَّابُ بِيَمِينِهِ - جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِخْوَانِنَا الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ - وَأَنَّ مَنْ أُوتِيَهُ بِيَمِينِهِ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ، وَيَرْجِعُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ، وَأَنَّهُ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ، قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ .

قَالَ تَعَالَى (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا) .

وَقَالَ تَعَالَى (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ) .

وَبَيَّنَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : أَنَّ مَنْ أُوتِيَهُ بِشِمَالِهِ يَتَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يُؤْتَهُ ، وَأَنَّهُ يُؤْمَرُ بِهِ فَيَصْلَى الْجَحِيمَ ، وَيُسْلَكُ فِي سِلْسِلَةٍ مِنْ سَلَاسِلِ النَّارِ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا .

وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ) .

وَبَيَّنَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : أَنَّ مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ يَصْلَى السَّعِيرَ ، وَيَدْعُو الثُّبُورَ .

وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصْلَى سَعِيرًا) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى (اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) يَعْنِي أَنَّ نَفْسَهُ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَظْلِمْ ، وَلَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ إِلَّا مَا عَمِلَ ; لِأَنَّهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ يَتَذَكَّرُ كُلَّ مَا عَمِلَ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَوَّلِ عُمْرِهِ إِلَى آخِرِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى (يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ).

وَقَدْ بَيَّنَ تَعَالَى فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ : أَنَّهُ إِنْ أَنْكَرَ شَيْئًا مِنْ عَمَلِهِ شَهِدَتْ عَلَيْهِ جَوَارِحُهُ .

كَقَوْلِهِ تَعَالَى (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) .

وَقَوْلِهِ (وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) .

وَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا (بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) .

(**اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا**) أي يُقال له : اقرأ كتاب عملك ، كفى أن تكون نفسُك اليوم شهيداً عليك بما عملتَ ! لا تحتاج إلى شاهد أو حسيب .

الفوائد :

١. إثبات يوم القيامة .
٢. يوم القيامة لا ينفع الإنسان إلا عمله الصالح .
٣. يوم القيامة تبرز وتظهر أعمال العباد .
٤. لا أنساب ولا أحساب يوم القيامة وإنما العبرة بالعمل .
٥. الحرص على العمل الصالح .
٦. إثبات نشر الدواوين يوم القيامة .
٧. أن صحف الأعمال مكتوب فيها كل شيء .
٨. عدل الله حيث كل إنسان يحاسب على حسب عمله .

(مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥))

[الإسراء : ١٥] .

=========

(**مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا**) يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ مَنِ اهْتَدَى وَاتَّبَعَ الْحَقَّ وَاقْتَفَى آثَارَ النُّبُوَّةِ، فَإِنَّمَا يُحَصِّلُ عَاقِبَةَ ذَلِكَ الْحَمِيدَةَ لِنَفْسِهِ {وَمَنْ ضَلَّ} أَيْ: عَنِ الْحَقِّ، وَزَاغَ عَنْ سَبِيلِ الرَّشَادِ، فَإِنَّمَا يَجْنِي عَلَى نَفْسِهِ، وَإِنَّمَا يَعُودُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَيْهِ.

وَبَيَّنَ هَذَا الْمَعْنَى فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ ، كَقَوْلِهِ (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا) .

وَقَوْلِهِ (مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ) .

وَقَوْلِهِ (قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ) .

وَقَوْلِهِ (فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) .

(**وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**) أَيْ: لَا يَحْمِلُ أَحَدٌ ذَنْبَ أَحَدٍ، وَلَا يَجْنِي جانٍ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ) .

وَقَال تعالى (وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ) .

وَقَال تعالى (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالا مَعَ أَثْقَالِهِمْ) . وَقَوْلُهُ تعالى (وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) فَإِنَّ الدُّعَاةَ عَلَيْهِمْ إِثْمُ ضَلَالِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَإِثْمٌ آخَرُ بِسَبَبِ مَا أَضَلُّوا مَنْ أَضَلُّوا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ أَوْزَارِ أُولَئِكَ، وَلَا يَحْمِلُوا عَنْهُمْ شَيْئًا. وَهَذَا مِنْ عَدْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ.

فإن قيل : ما الجواب : عن حديث ابْنِ عُمَرَ فِي قوله ﷺ (أَنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ) فَيُقَالُ : مَا وَجْهُ تَعْذِيبِهِ بِبُكَاءِ غَيْرِهِ ، إِذْ مُؤَاخَذَتُهُ بِبُكَاءِ غَيْرِهِ قَدْ يَظُنُّ مَنْ لَا يَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ أَخْذِ الْإِنْسَانِ بِذَنْبِ غَيْرِهِ ؟

وَالْجَوَابُ : هُوَ أَنَّ الْعُلَمَاءَ حَمَلُوهُ عَلَى أَحَدِ أَمْرَيْنِ :

الْأَوَّلُ : أَنْ يَكُونَ الْمَيِّتُ أَوْصَى بِالنَّوْحِ عَلَيْهِ .

الثَّانِي : أَنْ يَهْمِلَ نَهْيَهُمْ عَنِ النَّوْحِ عَلَيْهِ قَبْلَ مَوْتِهِ مَعَ أَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ سَيَنُوحُونَ عَلَيْهِ : لِأَنَّ إِهْمَالَهُ نَهْيَهُمْ تَفْرِيطٌ مِنْهُ ، وَمُخَالَفَةٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى (قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا) فَتَعْذِيبُهُ إِذًا بِسَبَبِ تَفْرِيطِهِ ، وَتَرْكِهِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ قَوْلِهِ : قُوا أَنْفُسَكُمْ الْآيَةَ ، وَهَذَا ظَاهِرٌ كَمَا تَرَى .

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) إِخْبَارٌ عَنْ عَدْلِهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عليه بإرسال الرسول إليه.

كقوله تَعَالَى (كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَقُلْنا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ) .

وكذا قوله (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُوها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قالُوا بَلى وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ) .

وَقَالَ تَعَالَى (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ)

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تعالى لا يدخل أحد النَّارَ إِلَّا بَعْدَ إِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِ.

الفوائد :

١. أن الهداية بيد الله .

٢. من اهتدى فهدايته لنفسه ، ومن ضل فإنما عليه إثم ضلاله .

٣. أن الله غني عن العالمين .

٤. أن الله لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين .

٥. أن الله لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه .

٦. تمام عدل الله .

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦)) .

[الإسراء : ١٦] .

=========

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ...) فيه هذه الآية أقوال للعلماء :

القول الأول : أي :وإذا أردنا هلاك قوم من الأقوام ، أمرنا المتنعمين فيها والقادة والرؤساء – بالطاعة على لسان رسلنا – فعصوا أمرنا ، وخرجوا عن طاعتنا وفسقوا وفجروا ، ففي الآية محذوف ، دل عليه السياق ، تقديره : أمرناهم بالعبادة والطاعة ، وسلوك طريق الأنبياء والمرسلين ، فعصوا الأمر ، وفسقوا وفجروا ، لأن الله لا يأمر بالفحشاء .

ورجح هذا القول ابن جرير ، والرازي ، واستظهره أبو حيان ، واكتفى به القاسمي ، ورجحه الشنقيطي .

قال الرازي : فقال الأكثرون : معناه أنه تعالى يأمرهم بالطاعات والخيرات ، ثم إنهم يخالفون ذلك الأمر ويفسقون .

وقال الشوكاني : اختلف المفسرون في معنى { أمرنا } على قولين : الأوّل أن المراد به الأمر الذي هو نقيض النهي ، وعلى هذا اختلفوا في المأمور به ، فالأكثر على أنه : الطاعة والخير.

وقال الشنقيطي : وَهَذَا الْقَوْلُ الَّذِي هُوَ الْحَقُّ فِي هَذِهِ الآيَةِ تَشْهَدُ لَهُ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ : كَقَوْلِهِ (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ) فَتَصْرِيحُهُ جَلَّ وَعَلَا بِأَنَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ (أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا) أَيْ : أَمَرْنَاهُمْ بِالطَّاعَةِ فَعَصَوْا ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى أَمَرْنَاهُمْ بِالْفِسْقِ فَفَسَقُوا ; لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ .

وَمِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) .

فَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ الْآيَةَ ، لَفْظٌ عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْمُتْرَفِينَ مِنْ جَمِيعِ الْقُرَى أَنَّ الرُّسُلَ أَمَرَتْهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ فَقَالُوا لَهُمْ : إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ، وَتَبَجَّحُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ ، وَالْآيَاتُ بِمِثْلِ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ .

القول الثاني : أَنَّ الْأَمْرَ فِي قَوْلِهِ (أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا) أَمْرًا كَوْنِيًّا قَدَرِيًّا ، أَيْ قَدَّرْنَا عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَسَخَّرْنَاهُمْ لَهُ .

وهذا القول بدأ به ابن كثير ، واكتفى به السعدي .

لِأَنَّ كَلًّا مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ . وَالْأَمْرُ الْكَوْنِيُّ الْقَدَرِيُّ كَقَوْلِهِ (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) وَقَوْلِهِ (فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) .

ورجح هذا القول ابن تيمية ، وابن القيم ، والسيوطي .

قال ابن القيم : فهذا أمر تقدير كوني لا أمر ديني شرعي ، فإن الله لا يأمر بالفحشاء والمعنى : قضينا ذلك وقدرناه .

لقول الثالث : أن (أَمَرْنَا) بمعنى : أَكْثرنا ، أي : أكثرنا مترفيها ، ففسقوا.

وقال أبو عبيدة : (أَمْرُنَا) بمعنى : أكثرنا ، لغة فصيحة ، كآمرنا ، بالمد.

القول الرابع : أن المراد بقوله تعالى (أمرنا) أمّرنا ، أي : جعلناهم أمراء ففسقوا فيها .

والراجح الأول وهو قول جمهور العلماء :

فائدة : ١

خطر الترف .

والمترف هو الذي أبطرته النعمة وسعة العيش .

قال ابن الجوزي : فأما المترَفون ، فهم المتنعّمون الذين قد أبطرتهم النعمة وسَعة العيش ، والمفسرون يقولون : هم الجبَّارون والمسلَّطون والملوك ، وإنما خص المترَفين بالذكر ، لأنهم الرؤساء ، ومَن عداهم تبع لهم.

دائماً أهل الغنى والترف هم من يقفون في وجه الرسل ودعوتهم.

قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ. وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ).

وقال تعالى (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ).

ذم الترف ، حيث لم يذكر الترف إلا في مقام الذم.

قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ).

وقال تعالى (كَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ).

وقال تعالى (وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ. فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ. لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ).

وقال تعالى (حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ).

وقال تعالى (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا [فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا).

فائدة : ٢

عنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ وَهُوَ يَقُولُ « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ » وَعَقَدَ سُفْيَانُ بِيَدِهِ عَشَرَةً. قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ « نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ) متفق عليه .

فائدة : ٣

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ سُؤَالٌ مَعْرُوفٌ ، وَهُوَ أَنْ يُقَالَ : إنَّ اللَّهَ أَسْنَدَ الْفِسْقَ فِيهَا لِخُصُوصِ الْمُتْرَفِينَ دُونَ غَيْرِهِمْ فِي قَوْلِهِ (أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا) مَعَ أَنَّهُ ذَكَرَ عُمُومَ الْهَلَاكِ لِجَمِيعِ الْمُتْرَفِينَ وَغَيْرِهِمْ ، فِي قَوْلِهِ (فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) يَعْنِي الْقَرْيَةَ ، وَلَمْ يَسْتَثْنِ مِنْهَا غَيْرَ الْمُتْرَفِينَ ؟

وَالْجَوَابُ مِنْ وَجْهَيْنِ :

الْأَوَّلُ : أَنَّ غَيْرَ الْمُتْرَفِينَ تَبَعٌ لَهُمْ ، وَإِنَّمَا خَصَّ بِالذِّكْرِ الْمُتْرَفِينَ الَّذِينَ هُمْ سَادَتُهُمْ وَكُبَرَاؤُهُمْ ; لِأَنَّ غَيْرَهُمْ تَبَعٌ لَهُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ) ، وَكَقَوْلِهِ (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ) الْآيَةَ وَقَوْلِهِ (حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا) وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) .

وَقَوْلِهِ (وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ) .

–قال ابن الجوزي : إنما خص المترفين بالذكر ، لأنهم الرؤساء ، ومَن عداهم تبع لهم.

الْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّ بَعْضَهُمْ إِنْ عَصَى اللَّهَ وَبَغَى وَطَغَى وَلَمْ يَنْهَهُمُ الْآخَرُونَ فَإِنَّ الْهَلَاكَ يَعُمُّ الْجَمِيعَ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) .

وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أَنَّهَا لَمَّا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبْ ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلَ هَذِهِ» – وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا – قَالَتْ لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ ؟ قَالَ : «نَعَمْ ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ) .

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧)) .

[الإسراء : ١٧] .

==========

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ) يقول تعالى منذراً كفار قريش في تكذيبهم رسوله ﷺ محمداً ، بأنه قد أهلك من المكذبين للرسل من بعد نوح . (ابن كثير) .

–قال الشنقيطي : ذَكَرَ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّهُ أَهْلَكَ كَثِيرًا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ; لِأَنَّ لَفْظَةَ كَمْ فِي قَوْلِهِ (وَكَمْ أَهْلَكْنَا) خَبَرِيَّةٌ ، مَعْنَاهَا الْإِخْبَارُ بِعَدَدٍ كَثِيرٍ ، وَأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا خَبِيرٌ بَصِيرٌ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ ، وَأَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ (وَكَفَى بِرَبِّكَ ...) .

وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَوْضَحَتْهُ آيَاتٌ أُخَرُ مِنْ أَرْبَعِ جِهَاتٍ :

الْأُولَى : أَنَّ فِي الْآيَةِ تَهْدِيدًا لِكُفَّارِ مَكَّةَ ، وَتَخْوِيفًا لَهُمْ مِنْ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ مَا نَزَلَ بِغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي كَذَّبَتْ رُسُلَهَا ; أَيْ أَهْلَكْنَا قُرُونًا كَثِيرَةً مِنْ بَعْدِ نُوحٍ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ ، فَلَا تُكَذِّبُوا رَسُولَنَا لِئَلَّا نَفْعَلَ بِكُمْ مِثْلَ مَا فَعَلْنَا بِهِمْ .

وَالْآيَاتُ الَّتِي أَوْضَحَتْ هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ ;

كَقَوْلِهِ فِي قَوْمِ لُوطٍ (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) .

وَكَقَوْلِهِ فِيهِمْ أَيْضًا (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ) .

وَقَوْلِهِ فِيهِمْ أَيْضًا (وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) .

وَقَوْلِهِ (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا) .

وَقَوْلِهِ بَعْدَ ذِكْرِهِ جَلَّ وَعَلَا إِهْلَاكَهُ لِقَوْمِ نُوحٍ ، وَقَوْمِ هُودٍ ، وَقَوْمِ صَالِحٍ ، وَقَوْمِ لُوطٍ ، وَقَوْمِ شُعَيْبٍ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) .

وَقَوْلِهِ فِي قَوْمِ مُوسَى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ الدَّالَّةِ عَلَّ تَخْوِيفِهِمْ بِمَا وَقَعَ لِمَنْ قَبْلَهُمْ .

فائدة :

مباحث في إهلاك القرى المكذبة :

أولاً: أخبر الله أنه أهلك كثيراً من القرى.

قال تعالى (وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ).

وقال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً).

وقال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً).

وقال تعالى (وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً).

وقال تعالى (وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ).

ثانياً: أخبر الله أن هلاك القرى والأمم بسبب ذنوبهم وكفرهم.

قال تعالى (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ).

وقال تعالى (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً).

وقال تعالى (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا).

وقال تعالى (وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ).

وقال تعالى (وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ).

ثالثاً: أن الله لا يهلك القرى حتى يرسل إليهم الرسل.

قال تعالى (ومَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً).

وقال تعالى (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ).

وقال تعالى (ومَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا).

رابعاً: أن الله يقص خبر الأمم السابقة للعبرة والاتعاظ.

قال تعالى (فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ. أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ).

وقال تعالى (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ).

وقال تعالى (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا).

خامساً: أخبر تعالى أن أهل الترف والغنى هم من يكذب بالرسول من القرى.

قال تعالى (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُون).

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ).

سادساً: أخبر تعالى لو أن أهل القرى آمنوا لكان خيراً لهم.

قال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ).

(فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) أي: فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم، وأنهم حقيقون بهذا.

فائدة : ٢

قَوْله تعالى (مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ...) يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقُرُونَ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ أَنَّهَا عَلَى الْإِسْلَامِ ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كَانَتْ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشَرَةُ قُرُونٍ ، كُلُّهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ . نَقَلَهُ عَنْهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ .

وَهَذَا الْمَعْنَى تَدُلُّ عَلَيْهِ آيَاتٌ أُخَرُ :

كَقَوْلِهِ (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ) .

وَقَوْلِهِ (وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا) لِأَنَّ مَعْنَى ذَلِكَ عَلَى أَصَحِّ الْأَقْوَالِ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى طَرِيقِ الْإِسْلَامِ ، حَتَّى وَقَعَ مَا وَقَعَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ مِنَ الْكُفْرِ ، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ يَنْهَوْنَ عَنْ ذَلِكَ الْكُفْرِ ، مُبَشِّرِينَ مَنْ أَطَاعَهُمْ بِالْجَنَّةِ ، وَمُنْذِرِينَ مَنْ عَصَاهُمْ بِالنَّارِ ، وَأَوَّلُهُمْ فِي ذَلِكَ نُوحٌ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ) .

وَفِي أَحَادِيثِ الشَّفَاعَةِ الثَّابِتَةِ فِي الصِّحَاحِ وَغَيْرِهَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ لِنُوحٍ : إِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ .

(**وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا**) أي : هو عالم بجميع أعمالهم ، خيرها وشرها لا يخفى عليه منها خافية .

وفي هذا أَعْظَمُ زَجْرٍ عَنِ ارْتِكَابِ مَا لَا يُرْضِي اللَّهَ تَعَالَى .

وَالْآيَاتُ الْمُوَضِّحَةُ لِذَلِكَ كَثِيرَةٌ جِدًّا :

كَقَوْلِهِ (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) .

وَقَوْلِهِ (أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) .

وَقَوْلِهِ (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ . (أضواء) .

الفوائد :

١. أن الله أهلك كثيراً من القرى .

٢. خطر الظلم والشرك وأنه سبب للهلاك والتعذيب .

٣. قوة الله وعظمته .

٤. أن الله مطلع على عباده لا تخفى عليه خافية .

(مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩)

[الإسراء : ١٨ – ١٩] .

==========

(**مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ**) أي من كان يريد بعمله الدنيا فقط، ولها يعمل ويسعى، ليس له هم إلا الدنيا، دون التفات للآخرة.

(**عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ**) للآخرة ، عجلنا له فيها ما نشاء تعجيله من نعيمها ، لا كل ما يريد .

(**لمن نريد**) أي : للذي نريد التعجيل له ممن أرادوا العاجلة ، أي : فليس كل مريد للعاجلة يعجل له فيها ما يريده ، وإنما ذلك بحسب إرادتنا .

المراد بالعاجلة: دار الدنيا، وهي صفة لموصوف محذوف أي: الدار العاجلة التي ينتهي كل شيء فيها بسرعة وعجلة.

قال أبو حيان و{ العاجلة } هي الدنيا ومعنى إرادتها إيثارها على الآخرة .

قال ابن عاشور : فَمَعْنى كانَ يُرِيدُ العاجِلَةَ أنَّهُ لا يُرِيدُ إلّا العاجِلَةَ، أيْ دُونَ الدُّنْيا بِقَرِينَةِ مُقابَلَتِهِ بِقَوْلِهِ ومَن أرادَ الآخِرَةَ .

قال البقاعي : (ما نشاء) مما يريده لا جميع ما يريده ؛ (لمن نريد) أي لا لكل من أراد ذلك ، تنبيهاً على أن ذلك بقوتنا لا بقوة ذلك المريد

قوله تعالى (لِمَن نُّرِيدُ) يدل على أنه لا يحصل الفوز بالدنيا لكل أحد ، بل كثير من الكفار والضلال يعرضون عن الدين في طلب الدنيا، ثم يبقون محرومين عن الدنيا وعن الدين ، وهذا أيضاً فيه زجر عظيم لهؤلاء الكفار الضلال الذين يتركون الدين لطلب الدنيا ، فإنه ربما فاتتهم الدنيا فهم الأخسرون أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

قال الرازي : أن من الجهال من إذا ساعدته الدنيا اغتر بها وظن أن ذلك لأجل كرامته على الله تعالى ، وأنه تعالى بين أن مساعدة الدنيا لا ينبغي أن يستدل بها على رضا الله تعالى ، لأن الدنيا قد تحصل مع أن عاقبتها هي المصير إلى عذاب الله وإهانته ، فهذا الإنسان أعماله تشبه طائر السوء في لزومها له وكونها سائقة له إلى أشد العذاب.

وقال ابن عاشور : المَعْنى: أنَّ هَذا الفَرِيقَ الَّذِي يُرِيدُ الحَياةَ الدُّنْيا فَقَطْ قَدْ نُعْطِي بَعْضَهم بَعْضَ ما يُرِيدُ عَلى حَسَبِ مَشِيئَتِنا، وإرادَتِنا لِأسْبابٍ مُخْتَلِفَةٍ، ولا يَخْلُو أحَدٌ في الدُّنْيا مِن أنْ يَكُونَ قَدْ عُجِّلَ لَهُ بَعْضُ ما يَرْغَبُهُ مِن لَذّاتِ الدُّنْيا .

–وهكذا الحال، ترى كثيرا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضا منه، وكثيرا منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموا فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة وأما المؤمن التقى فقد اختار مراده، وهو غنى الآخرة فما يبالي أوتي حظاً من الدنيا أو لم يؤت. فإن أوتي فبها شكر، وإن لم يؤت صبر، فربما كان الفقر خيراً له، وأعون على مراده.

قال الرازي : قوله تعالى : {لِمَن نُّرِيدُ} يدل على أنه لا يحصل الفوز بالدنيا لكل أحد ، بل كثير من الكفار والضلال يعرضون عن الدين في طلب الدنيا، ثم يبقون محرومين عن الدنيا وعن الدين، وهذا أيضاً فيه زجر عظيم لهؤلاء الكفار الضلال الذين يتركون الدين لطلب الدنيا، فإنه ربما فاتتهم الدنيا فهم الأخسرون أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

قال ابن الجوزي : وفي هذا ذم لمن أراد بعمله الدنيا ، وبيان أنه لا ينال مع ما يقصده منها إلاَّ ما قُدِّرَ له ، ثم يدخل النار في الآخرة.

وقال ابن جرير : هذه الآية لمن لا يوقن بالمعاد.

(**ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ**) في الآخرة .

(**جَهَنَّمَ**) اسم من أسماء النار .

(**يَصْلاهَا**) أي : يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه .

(**مَذْمُومًا**) أي : في حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه ، إذ اختار الفاني على الباقي ، والذم ضد المدح .

(**مَّدْحُورًا**) مبعداً مقصياً ذليلاً مهاناً .

ثم ذكر تعالى بيان حسن عاقبة المؤمنين الصادقين بعد بيان سوء عاقبة المؤثرين لمتع الدنيا وشهواتها فقال :

(**وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ**) أي : ومن أراد بعمله الدار الآخرة .

(**وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا**) وعمل لها عملها الذي يليق بها ، من الطاعات .

قال ابن عاشور : وحَقِيقَةُ السَّعْيِ: المشْيُ دُونَ العَدْوِ، فَسَعْيُ الآخِرَةِ هو الأعْمالُ الصّالِحَةُ؛ لِأنَّها سَبَبُ الحُصُولِ عَلى نَعِيمِ الآخِرَةِ، فالعامِلُ لِلصّالِحاتِ كَأنَّهُ يَسِيرُ سَيْرًا سَرِيعًا إلى الآخِرَةِ؛ لِيَصِلَ إلى مَرْغُوبِهِ مِنها .

(**وَهُوَ مُؤْمِنٌ**) أي : موحد لله تعالى ، غير مشرك به ولا كافر به .

لأن من شرط قبول العمل الإيمان .

(**فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا**) من الله ، حيث يقبله منهم ، ويكافئهم عليه ، ويضاعفه لهم .

فائد : ١

أن من أراد الدنيا وسعى لها، وترك الآخرة فلم يعمل لها، فإنه قد يُعطى سُؤْلَهُ، فإذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له عند الله نصيب .

عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال" :مَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ هَمَّهُ، جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ، جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ"

فائدة : ٢

الذي ينبغي للإنسانِ العاقِلِ أنَّه كُلَّما رأى مِن نَفسِه طُموحًا إلى الدُّنيا، وانشِغالًا واغتِرارًا بها، تذَكَّرَ الموتَ، وتَذَكَّرَ حالَ الآخِرةِ؛ لأنَّ هذا هو المآلُ المتيقَّنُ؛ وأنَّ ما يُؤَمِّلُه الإنسانُ في الدُّنيا قد يحصُلُ وقد لا يحصُلُ

فائدة : ٣

الإنسانُ ينبغي له أن يجعلَ الدُّنيا وسيلةً إلى الآخرةِ؛ ولا يكون كلُّ هَمِّه وقَصْدِه الدُّنيا؛ فالإنسانُ إذا أراد الدُّنيا فقط، فإنَّه قد يُضَيِّعُ الدُّنيا والآخرةَ .

فائدة : ٤

فيه وجوبُ الإخلاصِ والنيَّةِ في العبادات .

فائدة : ٥

أن التفاضل الحقيقي في الآخرة وليس في الدنيا .

قال تعالى (وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً) .

وقال تعالى (لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِم) .

وقال تعالى (ومَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى) .

فائدة : ٦

أن النار دركات، كما أن الجنة درجات .

قال تعالى (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً) .

فائدة : ٧

أن من أراد الآخرة وسعى لها سعيها، فإن الله يثيبه على ذلك في الدنيا والآخرة .

قال تعالى (من عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُون) .

روى مسلم في صحيحه من حديث أنس أن النبي ﷺ قال (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا، وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ، فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا) .

فائدة : ٨

الناس في أعمالهم على قسمين :

قِسْمٌ لَمْ يُرِدْ إلّا الدُّنْيا فَكانَتْ أعْمالُهُ لِمَرْضاةِ شَهَواتِهِ مُعْتَقِدًا أنَّ الدُّنْيا هي قُصارى مَراتِعِ النُّفُوسِ لا حَظَّ لَها إلّا ما حَصَلَ لَها في مُدَّةِ الحَياةِ؛ لِأنَّهُ لا يُؤْمِنُ بِالبَعْثِ فَيَقْصُرُ عَمَلَهُ عَلى ذَلِكَ.

وقِسْمٌ عَلِمَ أنَّ الفَوْزَ الحَقُّ هو فِيما بَعْدَ هَذِهِ الحَياةِ؛ فَعَمِلَ لِلْآخِرَةِ مُقْتَفِيًا ما هَداهُ اللَّهُ إلَيْهِ مِنَ الأعْمالِ بِواسِطَةِ رُسُلِهِ، وأنَّ اللَّهَ عامَلَ كُلَّ فَرِيقٍ بِمِقْدارِ هِمَّتِهِ.

وقال تعالى :(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُون) .

فائدة : ٩

وفِي الْآيَةِ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ لَا تَنْفَعُ إِلَّا مَعَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ ، لِأَنَّ الْكُفْرَ سَيِّئَةٌ لَا تَنْفَعُ مَعَهَا حَسَنَةٌ ، لِأَنَّهُ شَرَطَ فِي ذَلِكَ قَوْلُهُ : وَهُوَ مُؤْمِنٌ .

وَقَدْ أَوْضَحَ تَعَالَى هَذَا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ :

كَقَوْلِهِ تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا) .

وَقَوْلُهُ تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

وَقَوْلُهُ (مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

فائدة : ١٠

ومفهوم هذه الآية وأمثالها، أن غير المؤمن إذا قدم عملا صالحا في الدنيا لا ينفعه في الآخرة لفقد شرط الإيمان، قال- تعالى-:

وَقَدِمْنا إلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً.

(كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١)) .

[الإسراء : ٢٠-٢١]

==========

(كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ) يَقُولُ تَعَالَى: كُلًّا أَيْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ الَّذِينَ أَرَادُوا الدُّنْيَا وَالَّذِينَ أرادوا الآخرة نمدهم فيما فِيهِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ أَيْ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ الحاكم الذي لا يجوز، فيعطي كلا ما يستحقه من السعادة والشقاوة، فلا رَادَّ لِحُكْمِهِ وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى وَلَا مُغَيِّرَ لِمَا أَرَادَ .

(وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا) أَيْ : لَا يَمْنَعُهُ أَحَدٌ، وَلَا يَرُدُّهُ رَادٌّ.

(انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) أي : فِي الدُّنْيَا، فَمِنْهُمُ الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْحَسَنُ وَالْقَبِيحُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَمَنْ يَمُوتُ صَغِيرًا، ومن يعمر حتى يبقى شيخاً كَبِيرًا، وَبَيْنَ ذَلِكَ .

ذهَب إلى أنَّ التفضيلَ المذكورَ في الدنيا بالغنَى والفقرِ، والحسنِ والقبحِ، والعلمِ والجهلِ، والعقلِ والسفهِ، والقوةِ والضعفِ، والصحةِ والمرضِ إلى غيرِ ذلك:

ابنُ كثير، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور.

ومِن المفسِّرينَ مَن قصَر هذا التفضيلَ على الرزقِ .

ومنهم: الواحدي، وهو ظاهرُ اختيارِ السمعاني .

وبعضهم جعل التفضيل على الهدى والرشاد والضلال والخذلان .

والمراد بالنظر نظر تعقل وتدبر واعتبار في أحوال الناس ، ولترى عن طريق المشاهدة كيف فضل الله- تعالى- بعض الناس على بعض في هذه الحياة، فهذا غنى وذاك فقير، وهذا قوى وذاك ضعيف، وهذا ذكى وذاك خامل، وهذا مالك وذاك مملوك..

إلى غير ذلك من الأحوال التي تدل على تفاوت الناس في هذه الدنيا، على حسب ما تقتضيه إرادة الله- تعالى- وحكمته، ومشيئته.

وقد بين تعالى وجه الحكمة في هذا التفاوت فقال (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ درجات لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً) .

لَوْلَا اختِلَافُ النَّاسِ هَذَا الاختِلَافَ لتَعطَّلَتِ المصَالِحُ، فلَوْ كَانُوا كُلُّهم أغنيَاءَ فَلَا أحَدَ يَقُومُ بالعَمَلِ؛ لأنَّهُ إِذَا طُلِبَ مِنْهُ أَنْ يَعْمَلَ قَال لَهُ: إِذَا كَانَ عِنْدَكَ أَلْفُ رِيالٍ أنَا عِنْدِي أَلفانِ. وكذَلِكَ أيضًا بَقِيَّةُ الأَوْصَافِ لَولَا هَذَا الاختِلَافُ مَا قَامَتِ الدُّنيَا أبَدًا، وهَذَا مِنْ حِكْمَةِ اللهِ عز وجل.

ثُمَّ هُنَاكَ حِكْمَةٌ أُخْرَى وهِيَ أَنْ يُعرَفَ بهَذَا قُدْرَةُ اللهِ تبارك وتعالى حيثُ جَعَلَ هَذَا البَشَرَ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ وبقُوَّةٍ وَاحِدَةٍ، ومَعَ ذَلِكَ يَتَفَاضَلُون تَفاضُلًا كَبِيرًا فِيمَا أَعطَاهُمُ اللهُ عز وجل مِنَ الغِنَى وغَيرِهِ»

وقال في آخر سورة الأنعام (وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ درجات لِّيَبْلُوَكُمْ فِيمَا ءاتاكم) .

قال ابن عاشور : لما كان العطاء المبذول للفريقين هو عطاء الدنيا وكان الناس مفضلين فيه على وجه يدركون حكمته لفت الله لذلك نظر نبيه عليه الصلاة والسلام لَفْتَ اعتبار وتدبر ، ثم ذَكَّرَهُ بأن عطاء الآخرة أعظم عطاء ، وقد فضل الله به المؤمنين.

والأمر بالنظر موجه إلى النبي ﷺ ترفيعاً في درجات علمه ويحصل به توجيه العبرة إلى غيره.

والنظر حقيقته توجه آلة الحس البَصري إلى المبصر.

(**وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً**) أَيْ : وَلَتَفَاوُتُهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ مِنَ الدُّنْيَا، فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فِي الدَّرَكَاتِ فِي جَهَنَّمَ وَسَلَاسِلِهَا وَأَغْلَالِهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يكون في الدرجات العليا ونعيمها وسرورها، ثم أهل الدركات يتفاتون في ما هُمْ فِيهِ، كَمَا أَنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ يَتَفَاوَتُونَ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ مِائَةُ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ : إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى لَيَرَوْنَ أَهْلَ عِلِّيِّينَ كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الْغَابِرَ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ .

قال تعالى :وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَملوا) .

وقال سُبحان : (وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى) .

وقال عزَّ وجل (وكنتمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُون) .

وقال تبارك وتعالى (إن الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) .

وعن أبي هُريرةَ ﷺ، أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قال (إن في الجنَّةِ مِئَةَ دَرَجةٍ أعدَّها اللهُ للمُجاهِدينَ في سَبيلِه، كلُّ درجتَينِ ما بينهما كما بينَ السَّماءِ والأرضِ، فإذا سألتُم اللهَ فسَلُوه الفِردَوسَ؛ فإنَّهُ أوسَطُ الجنَّةِ، وأعلى الجَنَّةِ، وفَوقَه عَرشُ الرَّحمنِ، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجَنَّةِ

قال ابن عاشور: والمراد التفضيل في عطاء الدنيا، لأنه الذي يدركه التأمل والنظر وبقرينة مقابلته بقوله: وللآخرة أكبر درجات . والمقصود من هذا التنظير التنبيه إلى أن عطاء الدنيا غير منوط بصلاح الأعمال ؛ ألا ترى إلى ما فيه من تفاضل بين أهل العمل المتحد ، وقد يفضل المسلم فيه الكافر ، ويفضل الكافر المسلم ، ويفضل بعض المسلمين بعضاً ، وبعض الكفرة بعضاً ، وكفاك بذلك هادياً إلى أن مناط عطاء الدنيا أسباب ليست من وادي العمل الصالح ولا مما يساق إلى النفوس الخيرة.

الفوائد :

١. أن الله رازق كل البشر .
٢. أن الرزق يطلب من الله .
٣. وجوب شكر الله على نعمه .
٤. أن إعطاء الله الدنيا لشخص لا يدل على رضاه .
٥. إثبات الحكمة الله .
٦. حكمة الله في تفاوت البشر في الدنيا في كل شيء .
٧. أن التفاوت في الآخر أعظم وأكبر .
٨. أن حصول العبد على الدنيا ليست دليل على رضا الله .

(لاَّ تَجْعَل مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً (٢٢)) .

[الإسراء : ٢٢] .

==========

(لاَّ تَجْعَل مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) قال المفسرون : هذا في الظاهر خطاب للنبي ﷺ، ولكن في المعنى عام لجميع المكلفين كقوله (يأيُّهَا النبي إِذَا طَلَّقْتُمُ النساء) .

قال الشنقيطي : الظَّاهِرُ أَنَّ الْخِطَابَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مُتَوَجِّهٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، لِيَشْرَعَ لِأُمَّتِهِ عَلَى لِسَانِهِ إِخْلَاصَ التَّوْحِيدِ فِي الْعِبَادَةِ لَهُ جَلَّ وَعَلَا ، لِأَنَّهُ ﷺ مَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يَجْعَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ، وَأَنَّهُ لَا يَقْعُدُ مَذْمُومًا مَخْذُولًا .

ويحتمل أيضاً أن يكون الخطاب للإنسان كأنه قيل : أيها الإنسان لا تجعل مع الله إلهاً آخر ، وهذا الاحتمال عندي أولى ، لأنه تعالى عطف عليه قوله (وقضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إياه) إلى قوله (إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا) وهذا لا يليق بالنبي عليه السلام ، لأن أبويه ما بلغا الكبر عنده فعلمنا أن المخاطب بهذا هو نوع الإنسان.

قال الشنقيطي : وَذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى أَنَّ الْخِطَابَ فِي قَوْلِهِ : لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ مُتَوَجِّهٌ إِلَى الْمُكَلَّفِ ، وَمِنْ أَسَالِيبِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ : إِفْرَادُ الْخِطَابِ مَعَ قَصْدِ التَّعْمِيمِ ; كَقَوْلِ طَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ فِي مُعَلَّقَتِهِ :

سَتُبْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا ... وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ

ومعنى الآية : النهي عن الشرك مع الله واتخاذ نداً مع الله .

والشرك: هو تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله تعالى.

قال الذهبي: وهو أن تجعل لله نداً وهو خلقك، وتعبد معه غيره من حجر أو بشر أو شمس أو قمر أو نبي أو شيخ أو غير ذلك.

وهو أعظم ذنب عصي الله به،، وأي ذنب أعظم من أن يجعل مع الله شريك في ألوهيته أو ربوبيته أو أسمائه وصفاته، وهو هضم للربوبية وتنقص للألوهية، وسوء ظن برب العالمين، وهو أقبح المعاصي، لأنه تسوية المخلوق الناقص بالخالق الكامل من جميع الوجوه.

فالمشرك لا يعفر له إذا مات من غير توبة .

قال تعالى (إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بالله فَقَدِ افترى إِثْماً عَظِيماً).

والمشرك الجنة عليه حرام ومأواه النار .

قال تعالى (إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بالله فَقَدْ حَرَّمَ الله عَلَيهِ الجنة وَمَأْوَاهُ النار).

وقوله (ونادى أَصْحَابُ النار أَصْحَابَ الجنة أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ المآء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله قالوا إِنَّ الله حَرَّمَهُمَا عَلَى الكافرين).

والمشرك لا يرجى له خلاص .

قال تعالى (وَمَن يُشْرِكْ بالله فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السمآء فَتَخْطَفُهُ الطير أَوْ تَهْوِي بِهِ الريح فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ).

والشرك أعظم الظلم : .

قال تعالى (إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ).

وهو أعظم الذنوب .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ قَالَ « أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ » ، قُلْتُ ثُمَّ أي قَالَ : أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ ، قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ : أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ) متفق عليه .

عن أبي بكرة قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ « أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ – ثَلاَثاً – الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ أَوْ قَوْلُ الزُّورِ » . وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَّكِئاً فَجَلَسَ فَمَازَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ) . ق

عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْكَبَائِرِ قَالَ (الشِّرْكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَقَتْلُ النَّفْسِ وَقَوْلُ الزُّورِ) . ق

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا هُنَّ قَالَ الشِّرْكُ بِاللَّهِ وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاَتِ) ق .

(**فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا**) الْمَذْمُومُ هُنَا : هُوَ مَنْ يَلْحَقُهُ الذَّمُّ مِنَ اللَّهِ وَمِنَ الْعُقَلَاءِ مِنَ النَّاسِ ; حَيْثُ أَشْرَكَ بِاللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ .

–قال الرازي : القعود المذكور في قوله (فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً) معناه : المكث أي فتمكث في الناس مذموماً مخذولاً ، وهذه اللفظة مستعملة في لسان العرب والفرس في هذا المعنى ، فإذا سأل الرجل غيره ما يصنع فلان في تلك البلدة فيقول المجيب : هو قاعد بأسوأ حال معناه : المكث سواء كان قائماً أو جالساً.

وقد يراد القعود حقيقة لأن من شأن المذموم المخذول أن يقعد حائراً متفكراً ، وعبر بغالب حاله وهي القعود.

وقيل بمعنى العجز والعرب تقول : ما أقعدك عن المكارم أي ما أعجزك عنها .

(**مَّخْذُولاً**) الْمَخْذُولُ : هُوَ الَّذِي لَا يَنْصُرُهُ مَنْ كَانَ يُؤَمِّلُ مِنْهُ النَّصْرَ .

الفوائد :

١. تحريم الشرك ، وقد تقدم أنه أكبر الذنوب وأخطرها وأعظمها .
٢. وجوب توحيد الله بالعبادة .

٣. أن من عبد غير الله خذل من جهته .

٤. كل من اعتمد على غير الله خذل وانهزم .

٥. وجوب الاعتماد على الله .

٦. أن من اعتمد على الله وتوكل عليه مدح ونصر واعتز .

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥)) .

[الإسراء : ٢٣- ٢٥] .

==========

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ) أي: وأمَرَ ربُّك -يا مُحمَّدُ- ووصَّى، وأوجَبَ ألَّا تَعبُدوا -أنت وجميعُ الخَلقِ- إلَّا اللهَ وَحده .

قال ابن عطية : (قضى) في هذه الآية هي بمعنى أمر وألزم وأوجب عليكم .

وقال ابنُ تيميَّةَ : معناه: أمَرَ ربُّك، باتِّفاقِ المسلِمين .

في هذه الآية وجوب عبادة الله عز وجل، وقد جاءت النصوص الآمرة بذلك:

قال تعالى (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

وقال تعالى (فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا).

وقال تعالى (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً).

وقال تعالى (بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ).

وقال تعالى (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ).

وأمر تعالى بعبادته حتى الموت. فقال تعالى (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ).

بل الناس ما خلقوا إلا لعبادة الله تعالى كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ).

وأمر الله بها جميع رسله:

كما قال نوح لقومه (اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)، وكذلك قال هود، وصالح، وشعيب، وغيرهم.

وأخبر الله أنه أرسل في كل أمة رسولاً لهذا الغرض.

قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ).

ووصف ملائكته بذلك:

فقال تعالى (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له، ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا الله تعالى.

(**وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**) أي : وقضى أيضاً بأن تحسنوا إلى الوالدين إحساناً كاملاً .

وهذا هو الحق الثاني في الآية، وهو حق الوالدين، وقد عطفه الله على حقه لعظم حق الوالدين .

– **قال ابن كثير**: ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين، فإن الله سبحانه جعلهما سبباً لخروجك من العدم إلى الوجود.

وقال القرطبي: قال العلماء: فأحق الناس بعد الخالق المنان بالشكر والإحسان والتزامِ البِرّ والطاعةِ له والإذعانِ مَن قَرن الله الإحسان إليه بعبادته وطاعته وشكره بشكره وهما الوالدان؛ فقال تعالى (أَنِ اشكر لِي وَلِوَالِدَيْكَ).

وقال ابنُ عاشور: شَمِلَ الإحسانُ كُلَّ ما يَصدُقُ فيه هذا الجِنسُ مِن الأقوالِ والأفعالِ، والبَذلِ والمواساة .

قال الشوكاني : ووجه ذكر الإحسان إلى الوالدين بعد عبادة الله سبحانه أنهما السبب الظاهر في وجود المتولد بينهما ، وفي جعل الإحسان إلى الأبوين قريناً لتوحيد الله وعبادته من الإعلان بتأكد حقهما والعناية بشأنهما ما لا يخفى ، وهكذا جعل سبحانه في آية أخرى شكرهما مقترناً بشكره فقال (أَنِ اشكر لِي ولوالديك) .

وقال ابن عاشور: قوله تعالى (وبالوالدين إحساناً) اهتمام بشأن الوالدين إذ جعل الأمر بالإحسان إليهما عقب الأمر بالعبادة، كقوله (أن اشكر لي ولوالديك)، وقوله (يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ووصينا الإنسان بوالديه).

والله تعالى كثيرًا ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين .

كما قال (أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ). فأمر بالإحسان إليهما، وإن كانا مشركين بحسبهما.

وقال تعالى (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا). والآيات في هذا كثيرة.

وقال تعالى (قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً).

وقال تعالى (وَاعْبُدُوا اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً).

– وأوصى تعالى بالوالدين إحساناً:

قال تعالى (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً).

وقال تعالى (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ).

وعن ابن مسعود قَالَ: (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: (الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا). قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: (ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ). قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: (ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ وَلَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي) متفق عليه.

وعن عبد الله بن عمرو قال (جاء رجل إلى النبي ﷺ فاستأذنه في الجهاد، فقال: أحي والداك؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهد) متفق عليه.

ولمسلم (فارجع إلى والديك فأحسن صحبتَهما).

ولحديث أبي هريرة. (أن رجلاً قال يا رسول الله! من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك؟ قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أبوك).

كيفية الإحسان لهما: بالقول والفعل:

في حياتهما: بالبر والطاعة والإكرام والتوقير والتواضع لهما.

بعد موتهما: الدعاء لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما.

– وللإحسان ضدان: الإساءة وهي أعظم جرماً، وترك الإحسان بدون إساءة، وهذا محرم، لكن لا يجب أن يلحق بالأول. (قاله السعدي)

– ومن الإحسان ألا يجاهد إلا بإذنهما.

للحديث السابق.

– وقد أثنى الله على يحيي بوصفه براً بوالديه:

قال تعالى (وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً).

– وكذلك عيسى عليه السلام فيذكر الله في كتابه قوله:

(وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً).

– نماذج من سلف الأمة:

عن محمد بن المنكدر أنه كان يضع خده على الأرض ثم يقول لأمه: قومي ضعي قدمك على خدي.

وعن ابن عون المزني: أن أمه نادته فأجابها، فعلا صوته صوتها فأعتق رقبتين.

قال ابن الجوزي: بلغنا عن عمر بن ذر، أنه لما مات ابنه قيل له: كيف كان بره بك؟ قال: ما مشى معي نهاراً إلا كان خلفي، ولا ليلاً إلا كان أمامي، ولا رقد على سطح أنا تحته.

كان أبو هريرة إذا أراد أن يخرج من بيته وقف على باب أمّه فقال: السلام عليك – يا أماه – ورحمة الله وبركاته، فتقول: وعليك السلام – يا ولدي – ورحمة الله وبركاته، فيقول: رحِمَك الله كما ربيتني صغيراً، فتقول: رحمك الله كما بررتني كبيراً.

وعن الزهري قال: كان الحسن بن علي لا يأكل مع أمه، وكان أبرَّ الناس بها، فقيل له في ذلك، فقال: أخاف أن آكل معها، فتسبق عينها إلى شيء من الطعام وأنا لا أدري فآكله، فأكون قد عققتها.

(**إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا**) معناه : أنهما يبلغان إلى حالة الضعف والعجز فيصيران عندك في آخر العمر كما كنت عندهما في أول العمر.

قال الشوكاني : ثم خص سبحانه حالة الكبر بالذكر ، لكونها إلى البر من الولد أحوج من غيرها .

(**فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ**) هو صوت يدل على تضجر ، أَيْ لَا تُسْمِعْهُمَا قَوْلًا سَيِّئًا حَتَّى وَلَا التَّأْفِيفَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى مَرَاتِبِ الْقَوْلِ السَّيِّئِ

(**وَلاَ تَنْهَرْهُمَا**) وَلا تَنْهَرْهُما أَيْ وَلَا يَصْدُرْ مِنْكَ إِلَيْهِمَا فِعْلٌ قَبِيحٌ .

قال البقاعي : والنهر : زجر بإغلاظ وصياح.

–قال المفسرون : وإنما نهى عن أذاهما في الكِبَر ، وإن كان منهياً عنه على كلِّ حالة ، لأن حالة الكِبَر يظهر فيها منهما ما يُضجِر ويؤذي ، وتكثر خدمتهما.

وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا) أي : حسناً جميلاً يرضاه الله ورسوله مع ما يظهر فيه من اللين والرقة والشفقة وجبر الخاطر وبسط النفس ، كما يقتضيه حسن الأدب وجميل المروءة ، ومن ذلك أنك لا تدعوهما بأسمائهما ، بل بيا أبتاه ويا أمتاه – ونحو هذا .

قال ابن كثير : أَيْ لَيِّنًا طَيِّبًا حَسَنًا بِتَأَدُّبٍ وَتَوْقِيرٍ وَتَعْظِيمٍ .

وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ) أي : ألِنْ لهما جانبك متذللاً لهما من رحمتك إياهما.

وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)

–قال القرطبي : قوله تعالى (كَمَا رَبَّيَانِي) خصّ التربية بالذكر ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما في التربية ، فيزيده ذلك إشفاقاً لهما وحناناً عليهما ، وهذا كله في الأبوين المؤمنين.

(**رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ**) أي: بما في ضمائركم من الإخلاص وعدمه في كل الطاعات، ومن التوبة من الذنب الذي فرط منكم أو الإصرار عليه، ويندرج تحت هذا العموم ما في النفس من البرّ والعقوق اندراجاً أوّلياً؛ وقيل: إن الآية خاصة بما يجب للأبوين من البرّ، ويحرم على الأولاد من العقوق، والأوّل أولى اعتباراً بعموم اللفظ، فلا تخصصه دلالة السياق ولا تقيده. (الشوكاني)

كما قال تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ) .

وقال سُبحانَه (وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) .

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ (إنَّ اللهَ لا يَنظُرُ إلى صُوَرِكم وأموالِكم، ولكِنْ يَنظُرُ إلى قُلوبِكم وأعمالِكم.

قال الرازي : لَمَّا دَلَّت الآيةُ السَّابِقةُ على وُجوبِ تَعظيمِ الوالِدَينِ مِن كُلِّ الوُجوهِ، ثمَّ إنَّ الولَدَ قد يَظهَرُ منه نادِرةٌ مُخِلَّةٌ بتَعظيمِهما؛ بيَّن سُبحانَه أنَّه عالمٌ بأحوالِ قُلوبِكم، فإن كانت تلك الهَفوةُ ليست لأجلِ العُقوقِ، بل ظهَرت بمقتضى الجِبِلَّةِ البَشريَّةِ، كانت في محَلِّ الغُفرانِ .

وقال أبو حيان : ... فإنَّه تعالى لَمَّا نهى عن عِبادةِ غَيرِه وأمَرَ بالإحسانِ إلى الوالِدَينِ، ولا سيَّما عند الكِبَر، وكان الإنسانُ ربَّما تظاهَرَ بعِبادةٍ وإحسانٍ إلى والِدَيه دونَ عَقدِ ضَميرٍ على ذلك، رياءً وسُمعةً؛ أخبَرَ تعالى أنَّه أعلَمُ بما انطَوَت عليه الضَّمائِرُ مِن دُونِ قَصدِ عِبادةِ اللهِ، والبِرِّ بالوالِدَينِ .

قال البقاعي : (**رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ**) من قصد البر بهما وغيره ، فلا يظهر أحدكم غير ما يبطن ، فإن ذلك لا ينفعه ولا ينجيه إلا أن يحمل نفسه على ما يكون سبباً لرحمتهما

(**إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ**) قاصدين الصلاح ، والتوبة من الذنب ، والإخلاص للطاعة فلا يضركم ما وقع من الذنب الذي تبتم عنه.

(**فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا**) أي: إنْ أنتم أصلَحْتُم نِيَّاتِكم –أيُّها النَّاسُ– فكُنتُم صادِقينَ في نيَّةِ البِرِّ بالوالِدَينِ، مُمتَثِلينَ أمْرَ اللهِ بالإحسانِ إليهما والبِرِّ بهما والقيامِ بحُقوقِهما؛ فإنَّ اللهَ للتَّائبينَ إليه مِنَ الزَّلَّاتِ والهَفَواتِ في حَقِّ الوالِدَينِ، الرَّجَّاعِينَ إلى اللهِ وإلى مَرضاتِه مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ– غَفورٌ، يَغفِرُ إساءاتِهم فيَستُرُها عليهم، ويتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها .

والأواب : هُوَ التائب من الذنب، الراجع من الْمَعْصِيَةِ إِلَى الطَّاعَةِ مِمَّا يَكْرَهُ اللَّهُ إِلَى مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ .

لِأَنَّ الْأَوَّابَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْأَوْبِ، وَهُوَ الرُّجُوعُ، يُقَالُ: آبَ فُلَانٌ إِذَا رَجَعَ، قَالَ تَعَالَى (إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ) وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا رَجَعَ مِنْ سَفَرٍ قَالَ: آيبون تائبون، عابدون لربنا حامدون .

الفوائد :

١. وجوب عبادة الله تعالى .
٢. تحريم عبادة غير الله .
٣. وجوب الإحسان إلى الوالدين
٤. تحريم عقوقهما .
٥. الدعاء الوالدين وهذا من البر .

(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا (٢٨)) .

[الإسراء : ٢٦-٢٨] .

=========

(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ) أي : وأعط القرابة حقهم الواجب والمسنون من البر والصلة والمواساة ، والإحسان والإكرام ، قولاً وفعلاً وبذلاً .

قال ابن عطية : اختلف المتأولون في " ذي القربى " ، فقال الجمهور : الآية وصية للناس كلهم بصلة قرابتهم ، خوطب بذلك النبي ﷺ ، والمراد الأمة ، وألحق في هذه الآية ما يتعين له من صلة الرحم وسد الخلة والمواساة عند الحاجة بالمال والمعونة بكل وجه ، قال بنحو هذا الحسن وعكرمة وابن عباس وغيرهم .

(وَالْمِسْكِينَ) المسكين، وهو من لا يجد تمام كفايته، سموا بذلك، لأن الفقر أذله وأسكنه، وقد استعاذ النبي ﷺ من الفقر والجوع، فعن أبي هريرة. أن النبي ﷺ كان يقول (اللهم إني أعوذ بك من الجوع، فإنه بئس الضجيع) رواه أبو داود، وفي حديث أبي بكرة. أن النبي ﷺ كان يقول دبر كل صلاة (اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر). رواه النسائي .

– ويدخل في المساكين هنا: الفقراء، لأن كلاً منهما يطلق على الآخر إذا انفرد كل واحد منهما، لكن إذا ذكرا معاً كما في قوله تعالى (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ) كان لكل واحد منهما معنى غير معنى الآخر.

(وَابْنَ السَّبِيلِ) وهو المسافر المنقطع به الطريق ، فيعطى حقه من الزكاة والضيافة وما يحتاجه في سفره .

(وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا) نهي عن التبذير .

والتبذير الإنفاق في غير حق .

قال القرطبي : قوله تعالى (وَلاَ تُبَذِّرْ) أي لا تُسرف في الإنفاق في غير حق.

قال الشافعيّ رضي الله عنه : والتبذير إنفاق المال في غير حقه ، ولا تبذير في عمل الخير ، وهذا قول الجمهور.

(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ) أي : في التبذير والسفه وترك طاعة الله وارتكاب معصيته .

قال الرازي : والمراد من هذه الأخوة التشبه بهم في هذا الفعل القبيح، وذلك لأن العرب يسمون الملازم للشيء أخاً له، فيقولون: فلان أخو الكرم والجود ، وأخو السفر إذا كان مواظباً على هذه الأعمال .

قال القاسمي : قوله تعالى (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ) أي : أمثالهم في كفران نعمة المال بصرفه فيما لا ينبغي . وهذا غاية المذمة؛ لأن لا شر من الشيطان. أو هم إخوانهم أتباعهم في المصادقة والإطاعة. كما يطيع الصديق صديقه والتابع متبوعة، أو هم قرناؤهم في النار على سبيل الوعيد . والجملة تعليل المنهي عنه عن التبذير ، ببيان أنه يجعل صاحبه مقروناً معهم .

(وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا) أي : جحوداً ، لأنه أنكر نعمة الله عليه ولم يعمل بطاعته ، بل أقبل على معصيته ومخالفته .

قال ابن الجوزي : وهذا يتضمن أن المسرف كفور للنِّعم.

قال ابن عاشور : فأحسن ما يبذل فيه وفر المال هو اكتساب الزلفى عند الله ، قال تعالى (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله) واكتساب المحمدة بين قومه.

وقديماً قال المثل العربي : نعم العون على المروءة الجِدة.

وقال...اللهم هب لي حمداً ، وهب لي مجداً ، فإنه لا حَمد إلا بِفعال ، ولا فِعال إلا بمال.

والمقصد الشرعي أن تكون أموال الأمة عُدة لها وقوة لابتناء أساس مجدها والحفاظ على مكانتها حتى تكون مرهوبة الجانب مرموقة بعين الاعتبار غير محتاجة إلى من قد يستغل حاجتها فيبتز منافعها ويدخلها تحت نِير سلطانه.

فائدة :

هناك فرق بين الإسراف والتبذير . فالإسراف هو صرف الشيء فيما ينبغي زائدًا على ما ينبغي، أما التبذير: فإنه صرف الشيء فيما لا ينبغي .

فالإسراف يعني أن الشخص يبالغ في ما أباحه الله وفوق ما يحتاج، مثال على ذلك أن يقوم الشخص بملء طبقه من مائدة الطعام حتى لو لم يكن محتاجاً لذلك، فهذا يعني أنه أسرف في شيء مباح أي الطعام؛ لأنه قد يأكل فقط نصف هذا الطبق والباقي سيرميه. وقد نهى الإسلام عن الإسراف . وجاء في سورة الأعراف في الآية يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ

أما التبذير، فهو أن يصرف المال في ما حرم الله مثلاً كأن يشتري شخص أي شيء من المحرمات (مثل الخمر مثلا) وقد حرم الإسلام التبذير ووصف فاعليه بأنهم أخوان للشياطين. يقول الله في سورة الإسراء في الآية (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا) .

(**وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ**) الضمير في قوله (عَنْهُمُ) راجع إلى المذكورين قبله في قوله (وَآتِ ذَا القربى حَقَّهُ والمسكين وابن السبيل).

ومعنى الآية : إن تعرض عن هؤلاء المذكورين فلم تعطهم شيئاً لأنه ليس عندك. وإعراضك المذكور عنهم .

(**ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا**) أي : رزق حلال. كالفيء يرزقك الله فتعطيهم منه .

قال الرازي : قوله تعالى (ابتغاء رَحْمَةٍ مّن رَّبّكَ تَرْجُوهَا) كناية عن الفقر ، لأن فاقد المال يطلب رحمة الله وإحسانه.

وقال ابن الجوزي : قوله تعالى : (وإما تعرضَنَّ عنهم) في المشار إليهم أربعة أقوال.

أحدها : أنهم الذين تقدَّم ذِكْرُهم من الأقارب والمساكين وأبناء السبيل ، قاله الأكثرون ، فعلى هذا في علَّة هذا الإعراض قولان.

أحدهما : الإعسار ، قاله الجمهور. (زاد المسير) .

(**فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا**) أي : ليناً لطيفاً طيباً. كالدعاء لهم بالغنى وسعة الرزق ، ووعدهم بأن الله إذا يسر من فضله رزقاً أنك تعطيهم منه.

وهذا تعليم عظيم من الله لنبيه لمكارم الأخلاق ، وأنه إن لم يقدر على الإعطاء الجميل فليتجمل في عدم الإعطاء. لأن الرد الجميل خير من الإعطاء القبيح.

قال الماوردي : معناه إذا أعرضت عمن سألك ممن تقدم ذكره لتعذره عندك (ابتغاء رحمة من ربك ترجوها) أي انتظاراً للرزق منه (فقل لهم قولاً ميسوراً) أي عِدْهم خيراً ورد عليهم رداً جميلاً .

وهذا الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة ، صرح به الله جل وعلا في سورة " البقرة " في قوله (قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى) .

قال ابن عطية : فأمر الله تعالى نبيه في هذه الآية إذا سأله منهم أحد ، فلم يجد عنده ما يعطيه فقابله رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإعراض تأدباً منه في أن لا يرده تصريحاً ، وانتظار الرزق من الله تعالى يأتي فيعطي منه ، أن يكون يؤنسه بالقول الميسور ، وهو الذي فيه الترجية بفضل الله تعالى والتأنيس بالميعاد الحسن والدعاء في توسعة الله تبارك وتعالى وعطائه .

قال ابن عاشور : فيه إشارة إلى أن الرزق سبب للرحمة لأنه إذا أعطاه مستحقه أثيب عليه ، وهذا إدماج.

وفي ضمن هذا الشرط تأديب للمؤمن إن كان فاقداً ما يبلغ به إلى فعل الخير أن يرجوَ من الله تيسير أسبابه ، وأن لا يحمله الشح على السرور بفقد الرزق للراحة من البذل بحيث لا يَعدِم البذلَ الآن إلا وهو راج أن يسهل له في المستقبل حرصاً على فضيلته ، وأنه لا ينبغي أن يعرض عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل إلا في حال رجاء حصول نعمة فإن حصلت أعطاهم.

وقال ابن عاشور أيضاً : أما إيتاء ذي القربى فالمقصد منه مقارب للمقصد من الإحسان للوالدين رعياً لاتحاد المنبت القريب وشدًّا لآصرة العشيرة التي تتكون منها القبيلة.

وفي ذلك صلاح عظيم لنظام القبيلة وأمنها وذبها عن حوزتها.

وأما إيتاء المسكين فلمقصد انتظام المجتمع بأن لا يكون من أفراده من هو في بؤس وشقاء ، على أن ذلك المسكين لا يعدو أن يكون من القبيلة في الغالب أقعده العجز عن العمل والفقر عن الكفاية.

وأما إيتاء ابن السبيل فلإكمال نظام المجتمع ، لأن المارّ به من غير بنيه بحاجة عظيمة إلى الإيواء ليلاً ليقيه من عوادي الوحوش واللصوص ، وإلى الطعام والدفء أو التظلل وقاية من إضرار الجوع والقر أو الحر.

الفوائد :

١. الأمر بإعطاء القريب حقه الواجب .
٢. التحذير من التهاون في القريب .
٣. فضل الصدقة على المسكين وابن السبيل .
٤. النهي عن التبذير .
٥. أن التبذير من وسوسة الشيطان .
٦. أن الشيطان يأمر بكل سوء .
٧. فضل التوسط في الإنفاق .
٨. مشروعية الرد على المسكين وابن السبيل بالمعروف واللين عند عدم وجود ما يعطيهم .
٩. مشروعية طلب الرزق من الله .
١٠. استحباب رجاء الله .

(وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩)) .

[٢٩]

==========

(وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ) أي : لا تكن بخيلاً منوعاً ، لا تعطي أحداً شيئاً .

قال ابن الجوزي : والمعنى : لا تمسك يدك عن البذل كلَّ الإمساك حتى كأنها مقبوضة إلى عنقك .

(وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) أي : ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك ، وتخرج أكثر من دخلك .

ثم بيّن سبحانه غائلة الطرفين المنهيّ عنهما فقال

(فَتَقْعُدَ) فتصير إن بخلت .

(مَلُومًا) أي : يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك بسبب ما أنت عليه من الشح .

(**مَّحْسُورًا**) أي : ومتى بسطت يدك فوق طاقتك ، قعدت بلا شيء تنفقه ، فتكون كالحسير ، وهو الدابة التي عجزت عن السير فوقفت ضعفاً وعجزاً .

وفي الحكمة : ما رأيت قطُّ سَرَفاً إلا ومعه حق مضيَّع.

قال الشوكاني : المراد : النهي للإنسان بأن يمسك إمساكاً يصير به مضيقاً على نفسه وعلى أهله ، ولا يوسع في الإنفاق توسيعاً لا حاجة إليه ، بحيث يكون به مسرفاً ، فهو نهى عن جانبي الإفراط والتفريط.

قال القاسمي : وفي النهيين استعارتان تمثيليتان شبه في الأولى فعل الشحيح في منعه ، بمن يده مغلولة لعنقه ، بحيث لا يقدر على مدِّها .

وفي الثانية شبه السرف ببسط الكف بحيث لا تحفظ شيئاً . وهو ظاهر .

قال ابن عاشور : قوله (فتقعد ملوما محسوراً) جواب لكلا النهيين على التوزيع بطريقة النشر المرتب ، فالملوم يرجع إلى النهي عن الشح ، والمحسور يرجع إلى النهي عن التبذير ، فإن الشحيح ملوم مذموم.

وقد قيل : إن البخيل ملوم حيثما كانا

وقال زهير: ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله... على قومه يُستغن عنه ويذمم

والمحسور : المنهوك القوى... يقال : بعير حسير ، إذا أتعبه السير فلم تبق له قوة ، ومنه قوله تعالى (ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير) ، والمعنى : غير قادر على إقامة شؤونك. (انتهى) .

ويتحصل من ذلك مشروعية التوسط ، وهو العدل الذي ندب الله إليه :

ولا تك فيها مُفْرِطاً أو مفَرّطا... كلا طرفي قصد الأمور ذميم

وقد مثّل الله سبحانه في هذه الآية حال الشحيح بحال من كانت يده مغلولة إلى عنقه ، بحيث لا يستطيع التصرّف بها ، ومثّل حال من يجاوز الحدّ في التصرف بحال من يبسط يده بسطاً لا يتعلق بسببه فيها شيء مما تقبض الأيدي عليه ، وفي هذا التصوير مبالغة بليغة.

قال العلماء : أن الحكماء ذكروا في كتب "الأخلاق" أن لكل خلق طرفي إفراط وتفريط وهما مذمومان ، فالبخل إفراط في الإمساك ، والتبذير إفراط في الإنفاق وهما مذمومان ، والخلق الفاضل هو العدل والوسط كما قال تعالى (وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا) .

قال ابن عطية : وكل هذا في إنفاق الخير ، وأما إنفاق الفساد فقليله وكثيره حرام .

الفوائد :

١. ففي هذا ذم البخل ، وقد تقدمت الأدلة الكثيرة في ذمه .
٢. ذم الإسراف .
٣. فضل التوسط ، ودين الإسلام دين التوسط ، وقد قال تعالى في صفات عباد الرحمن (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) .

(**إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠)**) .

[الإسراء : ٣٠] .

==========

(**إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ**) أي يوسع الرزق لمن يشاء من خلقه .

(**وَيَقْدِرُ**) أي ويضيق ويفقر من يشاء من خلقه لما له في ذلك من الحكمة .

والقدر في اللغة التضييق ، ومنه قوله تعالى (وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ) وقوله تعالى (وَأَمَّا إِذَا مَا ابتلاه فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ) أي ضيق .

والمعنى: أن الله تعالى وحده هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء من خلقه، وهو وحده- أيضاً- الذي يضيقه على من يشاء منهم لحكم هو يعلمها، ولا تعلق لذلك بالكفر أو الإيمان، فقد يوسع على الكافر استدراجا له، وقد يضيق على المؤمن امتحاناً له، أو زيادة في أجره.

قوله (لمن يشاء) كل فعل علقه الله بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة ، أي: أنها ليست مشيئة مجردة هكذا تأتي عفواً ، وهذا عام في أحكام الله الشرعية والقدرية:

في الشرعية قال تعالى في المواريث (فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً).

وفي الأمور القدرية قال تعالى (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً).

وهذه الحكمة قد تكون معلومة للجميع ، وقد تكون معلومة لبعض الناس ، وقد تكون مجهولة لكل الناس ، لا يحيطون بالله علماً.

- من الحكم في تفاوت حال الناس في الفقر والغنى:

منها: جد بعضهم ومهارته في التكسب، وخمول بعضهم وكسله.

ومنها: تسخير بعض العباد لبعض المهن التي لا يستطيع البعض مزاولتها.

كما قال تعالى (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ).

فأغنى الله بعض الناس وأفقر بعضاً ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً.

قال الصاوي: إن القصد من جعل الناس متفاوتين في الرزق، لينتفع بعضهم ببعض، ولو كانوا سواء في جميع الأحوال، لم يخدم أحد أحداً، فيفضي إلى خراب العالم، وفساد نظامه.

وقال أبو حيان: وقوله تعالى (سخرياً) بضم السين من التسخير بمعنى الاستخدام، لا من السخرية بمعنى الهزء، والحكمة هي أن يرتفق بعضهم ببعض، ويصلوا إلى منافعهم، ولو تولى كل واحد جميع أشغاله بنفسه، ما أطاق ذلك، وضاع وهلك، وفي قوله (نحن قسمنا) تزهيد في الإكباب على طلب الدنيا، وعون على التوكل على الله. ... (البحر المحيط).

وقال قتادة: تلقى إنساناً ضعيف القوة، قليل الحيلة، عيي اللسان، وهو موسع عليه في الرزق، وتلقى شديد الحيلة، بسيط اللسان، وهو مقتر عليه في الرزق، وقال الشافعي: ومن الدليل على القضاء وحكمه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق.

ومنها: كذلك أن الفقر قد يكون أصلح لبعضهم من الغنى، والعكس صحيح.

ومنها: ابتلاء الغني في غناه هل يشكر، وابتلاء الفقير هل يرضى ويصبر.

قال الله تعالى (ورفعنا بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم).

هذا وليعلم أن إغناء هذا وإفقار هذا لا يدل بالضرورة على تكريم الغني ولا إهانة الفقير.

كما قال الله تعالى (فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ* وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ كلا).

(**إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً**) أي خبيراً بصيراً بمن يستحق الغنى وبمن يستحق الفقر .

قال الرازي : يعنى أنه تعالى عالم بأن مصلحة كل إنسان في أن لا يعطيه إلا ذلك القدر ، فالتفاوت في أرزاق العباد ليس لأجل البخل ، بل لأجل رعاية المصالح .

الفوائد :

١-أنَّ الأَرْزاق بيَدِ الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لقوله تعالى (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ).

٢ – وَيترَتَّب على هذا فائِدة، وهي أن نَطلُب الرِّزْق من الله تعالى؛ لأنه هو الذي يَبسُط الرِّزْق وَيقدِر.

٣ – أن تفاوت الناس في الغنى والفقر من حكمة الله تعالى العظيمة.

٤ – إِثْبات المشيئة لله تعالى، لقوله تعالى: (لِمَنْ يَشَاءُ).

٥ – أنَّ كَثْرة المال والولَد لا يَدُلُّ على الرِّضا، وإنما هو تابع لمشيئة الله تعالى.

٦ – تمَام رُبوبية الله عَزَّ وَجَلَّ وسُلطانه؛ لكونه يَبسُط وَيقدِر، ولا أحَدَ يُمكِن أن يَعتَرِض عليه، وحتى لو اعتَرَض عليه فلا يَنفَع هذا الاعتِراضُ؛ لأنَّ الله تعالى مُدبِّر لما يَشاءُ.

(**وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١)**) .

[الإسراء : ٣١] .

==========

(**وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ**) أي لا تُقدموا على قتل أولادكم مخافة الفقر .

قال الآلوسي : وظاهر اللفظ النهي عن جميع أنواع قتل الأولاد ذكروا كانوا أو إناثاً مخافة الفقر والفارقة لكن روى أن من أهل الجاهلية من كان يئد البنات مخافة العجز عن النفقة عليهن فنهى في الآية عن ذلك فيكون المراد بالأولاد البنات وبالقتل الوأد .

وقال القاسمي : والمراد بالأولاد خصوص البنات لأنهن اللاتي كانوا يقتلونهن وأداً ، ولكن عبر عنهن بلفظ الأولاد في هذه الآية ونظائرها لأن البنت يقال لها : ولد.

(**نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم**) أي : إن رزقهم علينا لا عليكم فنحن نرزقهم ونرزقكم فلا تخافوا الفقر .

(**إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءاً كَبِيراً**) أي ذنباً عظيماً .

– الولد باللغة يشمل الذكر والأنثى .

قال ابن عطية : وهذه الآية نهي عن الوأد الذي كانت العرب تفعله ، وهو قوله تعالى : { وإذا الموءودة سئلت }، ويقال كان جهلهم يبلغ أن يغدو أحدهم كلبه ويقتل ولده .

قال الرازي : إن قتل الأولاد إن كان لخوف الفقر فهو سوء ظن بالله ، وإن كان لأجل الغيرة على البنات فهو سعي في تخريب العالم ، فالأول ضد التعظيم لأمر الله تعالى ، والثاني : ضد الشفقة على خلق الله تعالى وكلاهما مذموم ، والله أعلم.

الوجه الخامس : أن قرابة الأولاد قرابة الجزئية والبعضية ، وهي من أعظم الموجبات للمحبة.

– يحرم قتل الولد خشية الفقر .

قال تعالى في سورة الأنعام (وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ قَالَ « أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ » . قَالَ قُلْتُ لَهُ إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ . قَالَ قُلْتُ ثُمَّ أَيُّ قَالَ « ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ » . قَالَ قُلْتُ ثُمَّ أَيُّ قَالَ « ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ) متفق عليه .

والقتل يكون أعظم إذا قتل ولده خشية أن يطعم معه.

لأن في ذلك: ضعف دين، وقسوة قلب، وقلة رحمة، وشك بالله، وجهل، وخبث طبع، وبخل.

– هنا في سورة الإسراء بدأ برزق الأبناء (خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم) وفي سورة الأنعام بدأ برزق الآباء فقال (من إملاق نحن نرزقكم وإياهم)

في الإسراء لما كان القتل واقعاً بسبب الفقر والإملاق المتوقع في المستقبل قال لا تقتلوا أولادكم خشية املاق ، خوف من فقر بالمستقبل إذا كثر عيالكم، ولهذا قدم رزق الأولاد هنا لما كان الأهل أغنياء يخافون ان تتغير بهم الحال بسبب كثرة الأولاد قدم رزق الأولاد .

وفي الأنعام لما كان القتل بسبب فقر واقع (من إملاق نحن نرزقكم ..) قدم رزق الآباء (نحن نرزقكم وإياهم) .

– هذه الآية دليل على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالدة بولدها .

الفوائد :

١–تحريم القتل بغير حق ، وأنه من أكبر الكبائر .

٢–تحريم قتل الولد خشية أن يطعم معك .

٣–بيان ما كان عليه الجاهلية من الجهل والطغيان .

٤–أن الرازق هو الله .

٥–ما من نفس منفوسة إلا ورزقها بيد الله .

٦–أن الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها .

٧–من عقائد الجاهلية سوء الظن بالله .

٨–أن سوء الظن بالله من كبائر الذنوب .

٩–وجوب إحسان الظن بالله تعالى .

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢)) .

[الإسراء : ٣٢] .

==========

(**وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى**) أي: ولا تَدنُوا –أيُّها النَّاسُ– مِن فِعلِ الزِّنا، وابتَعِدوا عن مُقَدِّماتِه ودواعيه .

والتعبير بعدم القرب أبلغ من النهي عن مواقعته ، لأن التعبير (ولا تقربوا) يشمل الابتعاد عن كل سبب موصل له كالنظر المحرم والمشاهدة المحرمة والخلوة وغيرها .

قال القرطبي : قال العلماء : قوله تعالى (وَلاَ تَقْرَبُواْ الزنى) أبلغ من أن يقول : ولا تزنوا ؛ فإن معناه لا تدنوا من الزنى.

فتعليق النهى بقربانها للمبالغة في الزجر عنها، لأن قربانها قد يؤدى إلى مباشرتها، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، وهذا لون حكيم من ألوان الإصلاح، لأنه إذا حصل النهى عن القرب من الشيء، فلأن ينهى عن فعله من باب أولى.

وقال السعدي : ... وأيضًا فالنَّهيُ عن قِربانِه أبلَغُ مِن النَّهيِ عن مُجَرَّدِ فِعلِه؛ لأنَّ ذلك يَشمَلُ النَّهيَ عن جَميعِ مُقَدِّماتِه ودواعيه؛ فإنَّ مَن حامَ حولَ الحِمى يُوشِكُ أن يقَعَ فيه، خصوصًا هذا الأمرَ الذي في كثيرٍ من النُّفوسِ أقوى داعٍ إليه .

قال بعض العلماء: وكثيراً ما يتعلق النهى في القرآن بالقربان من الشيء، وضابطه بالاستقراء: أن كل منهى عنه كان من شأنه أن تميل إليه النفوس وتدفع إليه الأهواء النهى فيه عن (القربان) ويكون القصد التحذير من أن يأخذ ذلك الميل في النفس مكانة تصل بها إلى اقتراف المحرم، وكان من ذلك في الوصايا السابقة النهى عن الفواحش، ومن هذا الباب (وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ) (ولا تَقْرَبُوا الزِّنى) (وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ) إلخ.

أما المحرمات التي لم يؤلف ميل النفوس إليها ولا اقتضاء الشهوات لها، فإن الغالب فيها أن يتعلق النهى عنها بنفس الفعل لا بالقربان منه. ومن ذلك في الوصايا السابقة الشرك بالله، وقتل الأولاد، وقتل النفس التي حرم الله قتلها، فإنها وإن كان الفعل المنهي عنه فيها أشد قبحاً وأعظم جرماً عند الله من أكل مال اليتيم وفعل الفواحش، إلا أنها ليست ذات دوافع نفسية يميل إليها الإنسان بشهوته، وإنما هي في نظر العقل على المقابل من ذلك، يجد الإنسان في نفسه مرارة من ارتكابها، ولا يقدم عليها إلا وهو كاره لها أو في حكم الكاره.

– الزنا : الوطء المحرم .

(**إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً**) أي ذنباً عظيماً .

(**وَسَاء سَبِيلاً**) أي وساء سبيله سبيلاً وطريقاً .

لأنه يتضمن أنواع القبائح ولأن عاقبته سيئة في الدنيا والآخرة :

يوجب اختلاط الأنساب .

ويوجب الفقر ويقصر العمر .

ويكسو صاحبه سواد الوجه وثوب المقت بين الناس .

ويوجب تشتت القلب ويمرضه ، إن لم يمته .

ويجلب الهم والحزن والخوف .

ويباعد صاحبه من الملك ويقربه من الشيطان .

قال الرازي : أما كونه فاحشة فهو إشارة إلى اشتماله على فساد الأنساب الموجبة لخراب العالم وإلى اشتماله على التقاتل والتواثب على الفروج وهو أيضاً يوجب خراب العالم.

وأما أنه ساء سبيلاً ، فهو ما ذكرنا أنه لا يبقى فرق بين الإنسان وبين البهائم في عدم اختصاص الذكران بالإناث ، وأيضاً يبقى ذل هذا العمل وعيبه وعاره على المرأة من غير أن يصير مجبوراً بشيء من المنافع .

وقال القرطبي : (سبيلاً) أي لأنه يؤدّي إلى النار.

والزنى من الكبائر ، ولا خلاف فيه وفي قبحه لا سيما بحليلة الجار.

وينشأ عنه استخدام ولد الغير واتخاذه ابنا وغير ذلك من الميراث وفساد الأنساب باختلاط المياه. (القرطبي) .

وقال ابنُ القيم : أخبَر عن غايتِه [أي: الزنا] بأنَّه «سَاءَ سَبِيلًا» فإنَّه سبيلُ هلكةٍ وبوارٍ وافتقارٍ في الدُّنيا، وعذابٍ وخزيٍ ونكالٍ في الآخرةِ .

في الآية تحريم الزنا :

وهو حرام بالكتاب والسنة والإجماع.

أ- قال تعالى (وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً).

ب- وقال تعالى (وَلا تَقْرَبُوا الزنا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً).

ج- وعن ابن مسعود قال: (سألت رسول الله ﷺ : أي الذنب أعظم؟ فقال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تزني بحليلة جارك). متفق عليه. (حليلة جارك: زوجة جارك).

د- وقال ﷺ (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن).

هـ- وقال ﷺ (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: شيخ زانٍ، وملك كذاب، وعائل مستكبر). رواه مسلم

قال القرطبي: وقد أجمع أهل الملل على تحريمه، فلم يحل في ملة قط، ولذا كان حده أشد الحدود؛ لأنه جناية على الأعراض والأنساب، وهو من جملة الكليات الخمس، وهي حفظ النفس والدين والنسب والعقل والمال.

فائدة :

والزنا بعضه أشد من بعض:

فالزنا بالجارة أعظم من الزنا بالبعيدة:

لحديث ابن مسعود السابق (... قال: أن تزني بحليلة جارك).

ولحديث المقداد بن الأسود قال: قال ﷺ (لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره) رواه أحمد.

قال النووي: حليلة جارك: أي تزني بها برضاها، وذلك يتضمن الزنا وإفسادها على زوجها واستمالة قلبها إلى الزاني وذلك أفحش، وهو مع امرأة الجار أشد قبحاً وأعظم جرماً، لأن الجار يتوقع من جاره الذب عنه وعن حريمه ويأمن بوائقه ويطمئن إليه، وقد أمر بإكرامه والإحسان إليه، فإذا قابل هذا كله بالزنا بامرأته وإفسادها عليه مع تمكنه منها على وجه لا يتمكن غيره منه كان في غاية القبح.

والزنا بزوجات المجاهدين أعظم من غيرهن.

عن بريدة. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلاً مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ فَيَخُونُهُ فِيهِمْ إِلاَّ وُقِفَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَأْخُذُ مِنْ عَمَلِهِ مَا شَاءَ فَمَا ظَنُّكُم) رواه مسلم.

وزنا الشيخ الكبير أعظم من زنا الشاب.

لقوله ﷺ (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: شيخ زانٍ، وملك كذاب، وعائل مستكبر) رواه مسلم

وقال ﷺ (أربعة يبغضهم الله: البياع الحلاف، والفقير المحتال، والشيخ الزاني، والإمام الجائر) رواه النسائي.

والزنا بالمحارم أعظم من الزنا بغير المحارم.

قال ﷺ (من وقع على ذات محرم فاقتلوه) رواه الترمذي.

فائدة :

خص سبحانه حد الزنا من بين الحدود بثلاث خصائص :

أحدها : القتل بأبشع القتلات ، وحيث خففه جمع فيه بين العقوبة على البدن بالجلد ، وعلى القلب بتغريبه عن وطنه سنة .

الثاني : أنه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة في دينه ، بحيث تمنعهم من إقامة الحد عليهم .

الثالث : أنه سبحانه أمر أن يكون حدهما بمشهد من المؤمنين فلا يكون في خلوة بحيث لا يراهما أحد .

الفوائد :

١-تحريم الزنا ، وأنه من كبائر الذنوب .

٢-وجوب الابتعاد عن كل سبب يؤدي إلى الزنا ، كالنظر المحرم ، والخلوة بالأجنبية .

٣-تحريم النظر للنساء الأجنبيات ، وتحريم الخلوة بهن .

٤-الزنا فاحشة تستفحشه العقول السليمة .

٥-أن طريق الزنا طريق سيء ، فهو يضعف الدين ، ويهدم البيوت ، ويهتك الأعراض .

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣)) .

[الإسراء : ٣٣] .

==========

(وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ) أي لا تقتلوا نفساً حرم الله قتها بعير حق شرعي .

وهذا يشمل الذكر والأنثى ، والصغير والكبير .

إلا بالحق : كما جاء في حديث ابن مسعود قال : قال ﷺ (لا يحل دم امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة) متفق عليه .

(وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً) بغير سبب شرعي .

(فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ) وهم ورثته .

(سُلْطَاناً) أي سلطة على القاتل بالقصاص منه أو أخذ الدية أو العفو .

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ ﷺ قال (ومَن قُتِلَ له قَتيلٌ، فهو بخَيرِ النَّظَرَينِ؛ إما أن يُفدَى، وإمَّا أن يُقيدَ) .

(فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ) الإسراف مجاوزة الحد .

والسرف : الزيادة على ما يقتضيه الحق ، وليس خاصاً بالمال كما يفهم من كلام أهل اللغة.

- والإسراف في القتل يشمل عدة أمور :

أولاً : أن يقتل اثنين أو أكثر بواحد كما كانت العرب تفعله في الجاهلية .

ثانياً : أن يقتل بالقتيل واحداً فقط ولكنه غير القاتل ، لأن قتل البريء بذنب غيره إسراف في القتل .

ثالثاً : أن يقتل نفس القاتل ويمثل به ، فإن زيادة المثلة إسراف في القتل .

قال ابن عطية : (فلا يسرف) بالياء، وهي قراءة الجمهور، أي الولي لا يتعدى أمر الله، والتعدي هو أن يقتل غير قاتل وليه من سائر القبيل، أو يقتل اثنين بواحد، وغير وذلك من وجوه التعدي، وهذا كله كانت العرب تفعله، فلذلك وقع التحذير منه، وقال رسول الله ﷺ : "إن من أعتى الناس على الله ثلاثة، رجل قتل غير قاتل وليه، أو قتل بدحل الجاهلية، أو قتل في حرم الله " .

قال ابن الجوزي : وفي المراد بإسرافه خمسة أقوال.

أحدها : أن يَقتُل غير القاتل ، قاله ابن عباس ، والحسن.

والثاني : أن يقتُل اثنين بواحد ، قاله سعيد بن جبير.

والثالث : أن يقتُل أشرف مِن الذي قُتل ، قاله ابن زيد.

والرابع : أن يمثِّل ، قاله قتادة.

والخامس : أن يتولى هو قتل القاتل دون السلطان ، ذكره الزجّاج.

(**إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً**) أي إن الولي منصور على القاتل ، يعينه الله على القاتل .

وهو تعليلٌ للنهي والضميرُ للولي على معنى أنه تعالى نصره بأن أوجب له القِصاصَ أو الديةَ وأمَر الحكامَ بمعونته في استيفاء

قال ابن الجوزي : في هاء الكناية أربعة أقوال.

أحدها : أنها ترجع إلى الولي ، فالمعنى : إنه كان منصوراً بتمكينه من القَوَد ، قاله قتادة ، والجمهور. (زاد المسير) .

وهذا القول رجحه : الطبري ، والسمرقندي ، والواحدي ، والقرطبي ، وابن كثير ، والشوكاني ، والقاسمي ، والسعدي .

لتناسب الضمائر كما ذكر أبو حيان ، ، حيث أن معنى الآية ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف هذا الولي في القتل ، لأن هذا الولي من صور من عند الله .

فائدة : ١

في الآية تحريم قتل المسلم بغير حق ، وقد جاءت النصوص بتحريم ذلك وأنه من الكبائر .

قال تعالى (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً)

وقال تعالى (وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ).

وقال تعالى (وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ...).

وقال – صلى الله عليه وسلم – (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ». قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَأَكْلُ الرِّبَا وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ) متفق عليه.

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْكَبَائِرِ قَالَ (الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَشَهَادَةُ الزُّور) رواه البخاري.

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ (أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاء) متفق عليه.

وعن بريدة قال: قال رسول الله (لقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا) رواه النسائي.

وعن جَرِيرٍ قَالَ : قَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: اسْتَنْصِتِ النَّاسَ. ثُمَّ قَالَ (لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِى كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ) متفق عليه.

وعَبْدُ اللَّهِ قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ قَالَ «أَنْ تَدْعُوَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ». قَالَ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قَالَ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَصْدِيقَهَا (وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً) متفق عليه .

فائدة : ٢

– ما الجواب عن قوله تعالى (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً) استشكل العلماء ما الجواب عن الآية ، لأنه من المعلوم أن إثم قاتل مائة أعظم عند الله من إثم قاتل نفس واحدة .

أجاب العلماء بعدة أجوبة :

قيل: المعنى من قتل نبياً أو إمام عادل فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياه بأن شد عضده ونصره فكأنما أحيا الناس جميعاً.

وقيل: من قتل نفساً واحدة وانتهك حرمتها فهو مثل من قتل الناس جميعاً.

وقيل: المعنى فكأنما قتل الناس جميعاً عند المقتول، ومن أحياها واستنقذها من هلكة فكأنما أحيا الناس جميعاً عند المستنقذ، وقيل غير ذلك.

قال ابن القيم: إن هذا تشبيه ولا يلزم من التشبيه أن يكون المشبه مثل المشبه به في كل شيء، فإن من المعلوم قطعاً أن إثم من قتل مائة أعظم من إثم من قتل نفساً واحدة، فليس المراد التشبيه في مقدار الإثم والعقوبة وإنما كون كل منهما:

عاص لله ولرسوله، مخالف لأمره متعرض لعقوبته.

أنهما سواء في استحقاق القصاص.

أنهما سواء في الجرأة على سفك الدم الحرام.

أن كلاً منهما يسمى فاسقاً عاصياً بقتله نفساً واحدة.

فائدة : ٣

القاتل عمد مسلم وليس بكافر، لكنه مسلم ناقص الإيمان، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة.

لقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ) والشاهد قوله (من أخيه) فأثبت الله له وصف الأخوة وهي الأخوة الإيمانية مع أنه قاتل.

وقال تعالى (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ...) فسمى الله الفئة العادلة والفئة الباغية مؤمنين.

فائدة : ٤

فإن قيل ما الجواب عن قوله تعالى (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً)؟

فالجواب:

قيل: إن الآية على ظاهرها، لكن قد يوجد مانع يمنع من ذلك.

وهذا اختيار النووي وابن تيمية وابن القيم والسفاريني والسعدي.

وقيل: إن هذا جزاؤه إن جازاه.

وهذا اختيار الطبري، والشنقيطي، واستحسنه ابن كثير.

قال الطبري: وَأَوْلَى الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَاهُ: وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ إِنْ جَزَاهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا، وَلَكِنَّهُ يَعْفُو أَوْ يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ ، فَلاَ يُجَازِيهِمْ بِالْخُلُودِ فِيهَا ، وَلَكِنَّهُ عَزَّ ذِكْرُهُ إِمَّا أَنْ يَعْفُوَ بِفَضْلِهِ فَلاَ يُدْخِلُهُ

النَّارَ ، وَإِمَّا أَنْ يُدْخِلَهُ إِيَّاهَا ثُمَّ يُخْرِجَهُ مِنْهَا بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ لِمَا سَلَفَ مِنْ وَعْدِهِ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا).

وقيل: إن هذا وعيد، وإخلاف الوعيد لا يذم بل يمدح.

وذهب إلى هذا الواحدي.

وقيل: حمل الآية على عمومها، وتفسير الخلود بمعنى: المكث الطويل، اعتماداً على ما ورد في كلام العرب من إطلاق الخلود على غير معنى التأبيد، كقولهم: لأخلدن فلاناً في السجن، وقولهم: خلد الله ملكه.

ورجح هذا القول ابن حزم، ومحمد رشيد رضا، وابن عثيمين، وذهب إليه الرازي، وأبو السعود.

وقيل: إن الآية للتشديد والتخويف والتغليظ في الزجر عن قتل المؤمن.

وقيل: إن هذه الآية في القاتل المستحل.

وقال بهذا عكرمة.

الفوائد :

١-تحريم قتل النفس بغير حق .

٢-أن قتل النفس بغير حق من كبائر الذنوب .

٣-يجوز قتل بالنفس بأحد الأسباب المذكورة في حديث ابن مسعود (النفس بالنفس ، والزاني المحصن ، والتارك لدينه المفارق للجماعة) .

٤-أن للولي الحق في القصاص أو الدية أو العفو .

٥- تحريم الإسراف في القتل ، وقد تقدم معنى الإسراف .

٦- تهديد قاتل العمد .

٧-يفهم من قوله (مّظْلُوماً) أن من قتل غير مظلوم ليس لوليه سلطان على قاتله، وهو كذلك، لأن من قتل بحق فدمه حلال، ولا سلطان لوليه في قتله. كما قدمنا بذلك حديث بان مسعود المتفق عليه قال : قال رسول الله ﷺ :لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول لله ﷺ إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة .

٨- اختلف العلماء في تعيين ولي المقتول الذي جعل الله له هذا السلطان المذكور في هذه الآية الكريمة (وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً) .

فذهب جماعة من أهل العلم إلى أن المراد بالولي في الآية : الورثة من ذوي الأنساب والأسباب ، والرجال والنساء ، والصغار والكبائر. فإن عفا من له ذك منهم صح عفوه وسقط به القصاص ، وتعينت الدية لمن لم يعف.

وهذا مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، والإمام أبي حنيفة والإمام الشافعي رحمهم الله تعالى.

وقال ابن قدامة في " المغني " : هذا قول أكثر أهل العلم .

وقال الشنقيطي : قال مقيده عفا الله عنه : الذي يقتضي الدليل رجحانه عندي في هذه المسألة : ان الولي في هذه الآية هم الورثة ذكوراً كانوا أو إناثاً. ولا مانع من إطلاق الولي على الأنثى. لأن المراد جنس الولي الشامل لكل من انعقد بينه وبين غيره سبب يجعل كلاً منهما يوالي الآخر. كقوله تعالى (والمؤمنون والمؤمنات بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ) وقوله (وَأُوْلُواْ الأرحام بَعْضُهُمْ أولى بِبَعْضٍ).

(وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً (٣٤)) .

[الإسراء : ٣٤] .

==========

(وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) هذا من لطفه سبحانه وتعالى باليتيم، أن أمر أولياءه بحفظه وحفظ ماله وإصلاحه، وأن لا يقربوه .

قال البقاعي : ولما نهى عن الإغارة على الأرواح والأبضاع التي هي سببها ، أتبعه النهي عن نهب ما هو عديلها ، لأن به قوامها ، وهو الأموال ، وبدأ بأحق ذلك بالنهي لشدة الطمع فيه لضعف مالكه .

(إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) أي : إلا بالطريقة التي هي أحسن الطرائق وهي حفظه واستثماره حتى يبلغ أشده .

قال ابن العربي : يعني التي هي أحسن لليتيم ، وذلك بكل وجه تكون المنفعة فيه لليتيم لا للمتصرف فيه .

وقال القرطبي : أي بما فيه صلاحه وتثميره ، وذلك بحفظ أصوله وتثمير فروعه .

فدلت الآية على أن تصرفات الولي في مال اليتيم منوطة بالنظر والمصلحة .

(حَتَّى يَبْلُغَ) اليتيم .

(أَشُدَّهُ) أي بلوغه وعقله ورشده .

قال الآلوسي : والمراد ببلوغه الأشد بلوغه إلى حيث يمكنه بسبب عقله ورشده القيام بمصالح ماله

ففي هذا حماية لأموال اليتامى أن لا نقربها إلا بالخصلة التي هي أحسن، فإذا لاح للولي تصرفات أحدهما أكثر ربحاً فالواجب عليه أن يأخذ بما هو أكثر ربحاً لأنه أحسن.

واليتيم هو من مات أبوه وهو صغير.

والخطاب للأولياء والأوصياء. أي: احفظوا ماله حتى يبلغ الحلم فإذا بلغه فادفعوه إليه.

قال ابن الجوزي: انما خص مال اليتيم، لأن الطمع فيه، لقلة مراعيه وضعف مالكه.

وقال الماوردي : وخَصَّ اليتيمَ بالذِّكْرِ؛ لأنَّه إلى ذلك أحوَجُ، والطَّمعَ في مالِه أكثَرُ .

وقال ابنُ عاشور: هذا مِن أهَمِّ الوَصايا التي أوصى اللهُ بها في هذه الآياتِ؛ لأنَّ العَرَبَ في الجاهليَّةِ كانوا يَستَحِلُّونَ أموالَ اليتامى؛ لضَعفِهم عن التفَطُّنِ لِمَن يأكُلُ أموالَهم، وقِلَّةِ نَصيرِهم لإيصالِ حُقوقِهم، فحَذَّرَ اللهُ المسلِمينَ مِن ذلك؛ لإزالةِ ما عسى أن يبقى في نُفوسِهم من أثَرٍ مِن تلك الجاهليَّة .

– اهتمت الشريعة بالحفاظ على مال اليتيم وذلك من وجوه :

أولاً : الحجر عليه لمصلحته حتى يبلغ ويرشد .

قال تعالى (وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ) .

ففي هذه الآية اشترط الله لتسليم اليتامى أموالهم شرطين هما : البلوغ والرشد ، فدلت الآية على أن اليتيم محجور عليه ولا يجوز تسليم ماله إليه قبل البلوغ وإن كان معروفاً بالرشد ، ولا بعد البلوغ إلا بعد إيناس الرشد منه .

وكذلك الآية التي معنى (ولا تقربوا مال اليتيم ...) .

وفيها أن الله نهى أولياء اليتامى عن قربان أموالهم – إلا على وجه المصلحة لهم – بالتصرف فيها حتى يبلغوا أشدهم ، وما ذلك إلا لأن أموال اليتامى بأيدي الأولياء ، وأن اليتامى محجور عليهم .

ثانياً : التهديد الشديد والوعيد الكبير في أكل ماله بالباطل .

كما قال تعالى (وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً).

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً).

وقال تعالى (وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ).

وقال ﷺ (اجتنبوا السبع الموبقات: ... وذكر منها: وأكل مال اليتيم) متفق عليه.

وعن أبي هريرة. قال: قال ﷺ (أحَرّج مال الضعيفين: المرأة واليتيم) أي: أوصيكم باجتناب مالهما.

قال الرازي: ... وذلك كله رحمة من الله تعالى باليتامى، لأنهم لكمال ضعفهم وعجزهم استحقوا من الله مزيد العناية والكرامة، وما أشد دلالة هذا الوعيد على سعة رحمته وكثرة عفوه وفضله، لأن اليتامى لما بلغوا في الضعف إلى الغاية القصوى بلغت عناية الله بهم إلى الغاية القصوى.

– اليتيم : من مات أبوه وهو دون البلوغ .

– قال : ولا تقربوا ، ولم يقل : لا تأكلوا ..، أي لا تعملوا الوسائل التي تفضي إلى تلف مال اليتيم ، فكيف بإتلافه ؟ هذا من باب أولى .

(**وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ**) أي الذي تعاهدون عليه الناس والعقود التي تعاملونهم بها ، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه .

(**إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً**) أي: أوفُوا بالعهودِ؛ لأنَّ اللهَ سيَسألُكم عنها يومَ القيامةِ، ويُجازيكم على الوَفاءِ بها وعَدَمِه؛ فلا تَنقُضوها.

كما قال سُبحانَه (وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) .

قال الشَّوكاني: الوفاءُ بالعَهدِ: هو القيامُ بحِفظِه على الوَجهِ الشَّرعيِّ والقانونِ المرضيِّ، إلَّا إذا دلَّ دَليلٌ خاصٌّ على جوازِ النَّقضِ .

الفوائد :

١. حرص الشريعة على اليتيم .
٢. وجوب حفظ مال اليتيم .
٣. حِمايةٌ أموال اليتامى وألَّا تُقْرَبَ إلَّا بالخَصلةِ التي هي أحسَنُ؛ فلا تُقْرَبُ بأيِّ تَصَرُّفٍ إلَّا بما يُرى أنَّه أحسَنُ .
٤. تحريم أكل مال اليتيم .
٥. جوازِ تَصَرُّفِ الوليِّ في مالِ اليَتيمِ بما عادَ صلاحُه على اليَتيمِ .
٦. لا يعطى اليتيم ماله حتى يبلغ ويختبر .
٧. وجوب حفظ الأموال .
٨. حرص الشريعة على الضعفاء .
٩. اليتيم موطن الرحمة والعطف .
١٠. وجوب الوفاء بالعهد .
١١. تحريم الغدر بالوفاء .
١٢. من صفات المنافقين عدم الوفاء بالعهد .

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٣٥)

[الإسراء : ٣٥] .

==========

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ) أي أتموا الكيل إذا كلتم لغيركم من غير تطفيف ولا بخس .

(وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) أي : زنوا بالميزان العدل السوي بلا احتيال ولا خديعة .

– إذا كلتم : فيما يكال من الأطعمة والحبوب ، والوزن فيما يوزن : كاللحوم مثلاً .

(ذَلِكَ خَيْرٌ) أي وفاء الكيل وإقامة الوزن خير لكم في دنياكم بالبركة وانشراح الصدر وغير ذلك .

قال الآلوسي : (ذلك) أي إيفاء الكيل والوزن بالقسطاط المستقيم (خَيْرٌ) في الدنيا لأنه سبب لرغبة الناس في معاملة فاعله وجلب الثناء الجميل عليه .

(وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً) أي مآلاً ومنقلباً في آخرتكم .

قال الآلوسي : (وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً) أي : عاقبة لما يترتب عليه من الثواب في الآخرة .

قال القاسمي : (ذَلِكَ خَيْرٌ) أي : لكم في معاشكم لانتظام أموركم بالعدل ، وإيفاء الحقوق أربابها (وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً) أي : عاقبة ومآلاً ؛ إذ ليس معه مظلمة يطالب بها يوم القيامة .

– وقد أهلك الله أمة من الأمم بأنهم يبخسون الناس أشياءهم وهم قوم شعيب .

قال تعالى (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ . الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) .

(وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ) أي هلاك وعذاب لأولئك الفجار الذين ينقصون المكيال [التطفيف النقص في الكيل والميزان ، (إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ) أي إذا أخذوا الكيل من الناس أخذوه وافياً كاملاً لأنفسهم (وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) أي وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم ينقصون الكيل والوزن .

وقال تعالى (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا)

الفوائد :

١. وجوب العدل في الكيل .
٢. تحريم الغش في كل شيء .
٣. أن العدل والقسط خير للعبد في الدنيا والآخرة .
٤. الأمر بالنصح والصدق في المعاملة .

(وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦)) .

[الإسراء : ٣٦] .

==========

(وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)القفو : الاتباع ، يقال : قَفاه يقفوه إذا اتبعه ، وهو مشتق من اسم القفا ، وهو ما وراء العنُق. واستعير هذا الفعل هنا للعمل.

نهى تعالى في هذه الآية الكريمة عن اتباع الإنسان ما ليس له به علم، ويشمل ذلك قوله : رأيت ولم ير، وسمعت ولم يسمع، وعلمت ولم يعلم ، ويدخل فيه كل قول بلا علم، وأكبر ذلك القول على الله بغير علم كالفتوى بغير علم وغيرها. (أضواء البيان)

كما قال تعالى (إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) .

وقال تعالى (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ) .

وفي الحديث (إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث) متفق عليه .

قال النحاس : دخل في هذا النَّهيُ عن قَذفِ المحصَناتِ، وعن القَولِ في النَّاسِ بما لا يعلَمُ، وعن الكَلامِ في الفِقهِ والدِّينِ بالظَّنِّ، وألَّا يقولَ أحَدٌ ما لا يَحُقُّه .

قال أبو حيان : وحاصل هذا أنه نهى عن اتباع ما لا يكون معلوماً ، وهذه قضية كلية تندرج تحتها أنواع.

(**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أولئِكَ**) أي هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد .

(**كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**) أي : أن الإنسان يسأل يوم القيامة عن أفعال جوارحه ، فيقال له : لم سمعت ما لا يحل لك سماعه ، ولم نظرت إلى ما لا يحل لك النظر إليه ؟ ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه ؟

وفي هذا تحذير شديد من أن يقول الإنسان قولا لا علم له به، أو أن يفعل فعلا بدون تحقق، أو أن يحكم حكما بلا بينة أو دليل.

كما قال تعالى (وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) .

وقال تعالى (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

وهذا المعنى : وهو أن الإنسان يسأل عن أعمال جوارحه رجحه جمع من العلماء :

فهو قول ابن الجوزي ، واكتفى به السعدي ، واختاره الشنقيطي وقال : هو قول الجمهور .

وقال بعض العلماء : أن المعنى أن الجوارح هي التي تسأل عن أفعال صاحبها فتشهد عليه جوارحه بما فعل .

وهذا القول : ابن العربي ، والزمخشري ، ومال إليه ابن عطية ، ورجحه القرطبي وقال : هذا أبلغ في الحجة .

لقوله تعالى (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) .

وقوله تعالى (حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون) .

والأول قول الجمهور .

قال الشنقيطي : فيه وجهان من التفسير :

الأول – أن معنى الآية –أن الإنسان يسأل يوم القيامة عن أفعال جوارحه فيقال له : لم سمعت ما لا يحل لك سماعة؟ ولم نظرت إلى ما لا يحل لك النظر فيه!؟ ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه!؟

ويدل لهذا المعنى آيات من كتاب الله تعالى ، كقوله (وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) ، وقوله (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) ، ونحو ذلك من الآيات.

والوجه الثاني – أن الجوارح هي التي تسأل عن أفعال صاحبها ، فتشهد عليه جوارحه بما فعل.

قال القرطبي في تفسيره : وهذا المعنى أبلغ في الحجة. فإنه يقع تكذيبه من جوارحهن وتلك غاية الخزي كما قال (اليوم نَخْتِمُ على أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) ، وقوله (حتى إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ

قال مقيده عفا الله عنه : والقول الأول أظهر عندي ، وهو قول الجمهور. (الأضواء) .

– الله أنعم على الإنسان بالسمع والبصر والفؤاد ليقوم بشكر الله وبطاعته لا بمعصيته .

كما قال تعالى (وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) .

قال ابن الجوزي : قال المفسرون : الإشارة إلى الجوارح المذكورة ، يُسأل العبد يوم القيامة فيما إذا استعملها ، وفي هذا زجر عن النظر إلى ما لا يَحِلُّ ، والاستماع إلى ما يحرم ، والعزم على مالا يجوز .

الفوائد :

١. تحريم أن يتكلم الإنسان بشيء لا علم له به ، لقوله (وَلاَ تَقْفُ) وهذا نهي، ومعلوم أن النهي يدل على التحريم إلا لقرينة، ولا قرينة هنا تصرفه إلى غير ذلك مما يدل على أن اقتفاء العبد ما لا علم له به يعد من الأمور المحرمة.

٢. ٢على المسلم أن يتكلم بشيء يعلمه .

٣. التحذير من الكذب وشهادة الزور والقول على الله بغير علم ، لأنه سيسأل يوم القيامة .

٤. على العبد أن يحذر من كل كلام لا ينفعه ، لأنه سيسأل يوم القيامة .

٥. فيه زَجرٌ عن النَّظَرِ إلى ما لا يَحِلُّ، والاستِماعِ إلى ما يَحرُمُ، وإرادةِ ما لا يَجوزُ .

٦. وعلى العبد أن يحذر أيضاً ، لأن جوارحه ستشهد عليه يوم القيامة .

٧. مصداق لحديث (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت) .

٨. الحذر من النظر المحرم .

٩. في الآية : دعوة إلى التحري والتثبت، والمعنى: لا تتبع ما ليس لك به علم، بل الواجب أن تتثبت في كل ما تقوله أو تعمله أو تتلقاه.

١٠. في ذكر الفؤاد هنا مع السمع والبصر دليلٌ على المؤاخذة على الأمور القلبية، كما أن الإنسان يؤاخذ على ما يسمع ويبصر، ففيما يتعلق بالقلب فإن الإنسان يؤاخذ على المعتقدات التي يعتقدها فيثاب على التوحيد، ويعاقب على الشرك كما يؤاخذ على الأعمال القلبية الأخرى، فيثاب على اليقين والرضا والتوكل، ويعاقب على الأدواء التي تصيبه كالحسد والغل ونحو ذلك من سوء الظن... الخ، وهكذا العزم المصمم على المعصية .

١١. تخصيص هذه الثلاث بالذكر؛ نظراً لعظم خطرها، ولأنها الآلات التي بها يحصل العلم النافع للعبد، وهو ما يميز الإنسان عن غيره من الحيوان؛ إذ إن العلم تدور رحاه على هذه الأقطاب الثلاثة: السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَاد .

(وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨)) [الإسراء : ٣٧-٣٨] .

==========

(**وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً**) ينهى تعالى عن التبختر والتكبر في المشي .

قال السعدي : أي كبرا وتيها وبطرا متكبرا على الحق ومتعاظما على الخلق.

وتقييد النهى بقوله (في الأرض) للتذكير بالمبدأ والمعاد، المانعين من الكبر والخيلاء، إذ من الأرض خلق وإليها يعود، ومن كان كذلك كان جديراً به أن يتواضع لا أن يتكبر، قال تعالى (مِنْها خَلَقْناكُمْ وَفِيها نُعِيدُكُمْ، وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى). (التفسير الوسيط)

قال ابن عاشور : نهي عن خصلة من خصال الجاهلية ، وهي خصلة الكبرياء ، وكان أهل الجاهلية يتعمدونها.

وهذه الوصية الخامسة عشرة ، والخطاب لغير معين ليعم كل مخاطب ، وليس خطاباً للنبيء ﷺ إذ لا يناسب ما بَعده ، والمرح بفتح الميم وفتح الراء : شدة ازدهاء المرء وفرحه بحاله في عظمة الرزق.

قال ابن عطية : قرأ الجمهور " مرَحاً " بفتح الراء مصدر من مرَح يمرَح إذا تسبب مسروراً بدنياه مقبلاً على راحته ، فهذا هو المرح، فنهي الإنسان في هذه الآية أن يكون مشيه في الأرض على هذا الوجه .

قال الرازي : والمراد من الآية النهي عن أن يمشي الإنسان مشياً يدل على الكبرياء والعظمة.

قال الزجاج : لا تمش في الأرض مختالاً فخوراً ونظيره قوله تعالى في سورة الفرقان (وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً) .

كما قال تعالى عن لقمان (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) .

وقال تعالى (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً) .

(**إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ**) لن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها وشدة وطئك عليها .

ورجح هذا القول : ابن جزي ، والسمعاني ، والبغوي ، والبيضاوي ، والآلوسي ، والشنقيطي .

قال الشنقيطي : وأظهر القولين عندي في قوله تعالى (إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأرض) أن معناه لن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها وشدة وطئك عليها ، ويدل لهذا المعنى قوله بعده (وَلَن تَبْلُغَ الجبال طُولاً) أي انت إيها المتكبر المختال : ضعيف حقير عاجز محصور بين جمادين! أنت عاجز عن التأثير فيهما.

وقال الآلوسي : قوله تعالى (إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأرض) تعليل للنهي وفيه تهكم بالمختال أي إنك لن تقدر أن تجعل فيها خرقاً بدوسك وشدة وطأتك .

وقيل : لن تقطع الأرض بمشيك .

ورجحه ابن جرير ، وابن عطية ، والقرطبي ، والخازن .

وذكر القولين من غير ترجيح : الماوردي ، وابن الجوزي .

(**وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً**) أي لن تتطاول وتتجاوز الجبال ، أي : لن يبلغ طولك الجبال .

والمعنى : فأنت أحقر وأضعف من كل واحد من الجماديْن ، فكيف تتكبر وتختال وأنت أضعف من الأرض والجبال ؟ وفي هذا تهكم وتقريع للمتكبرين .

قال ابن عاشور : والمقصود من التهكم التشنيع بهذا الفعل ، فدل ذلك على أن المنهي عنه حرام لأنه فساد في خلق صاحبه وسوء في نيته وإهانة للناس بإظهار الشفوف عليهم وإرهابهم بقوته.

قال ابن كثير : ... بل قد يجازي فاعل ذلك بنقيض قصده : كما ثبت في الحديث :

(بينما رجل يمشي فيمن قبلكم وعليه بردان يتبختر فيهما ، إذ خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة) .

واخبر الله أنه خسف بقارون (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ المنتَصِرِينَ) .

في الآية تحريم التكبر :

والتكبر : هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير. (الغزالي) .

وقال بعضهم: الكبر: هو استعظام الإنسان نفسه واستحسان ما فيه من الفضائل والاستهانة بالناس واستصغارهم والترفع على من يجب التواضع له.

والكبْر له مخاطر كبيرة:

فهو من صفات أهل النار.

عَنْ حَارِثَةَ بْنِ وَهْبٍ الْخُزَاعِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَاعِفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ) رواه مسلم .

وقال ﷺ (احتجت الجنة والنار، فقالت النار: يدخلني الجبارون والمتكبرون) رواه مسلم.

والمتكبر لا يدخل الجنة.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ». قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَناً وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ) رواه مسلم.

وقال ﷺ (العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي) رواه مسلم.

وعقوبتهم يطأهم الناس يوم القيامة.

قال ﷺ (المتكبرون يحشرون يوم القيامة أمثال الذر يطأهم الناس بأقدامهم) رواه الترمذي.

والله لا يحبهم.

قال تعالى (إنه لا يحب المستكبرين).

ولا ينظر الله للمتكبر في إزاره.

قال ﷺ (لا ينظر الله إلى رجل يجر إزاره بطراً) متفق عليه.

قال مسروق: كفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله.

وقال بعضهم: إذا رأيت الرجل لجوجاً مماريا معجباً برأيه فقد تمت خسارته.

وعن محمد بن علي قال: ما دخل قلب امرئ من الكبر شيء إلا نقص من عقله مقدار ذلك.

قال مطرف بن عبد الله: لأن أبيت نائماً وأصبح نائماً أحب إليّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً.

قال الذهبي: لا أفلح والله من زكى نفسه أو أعجبته.

قال أبو سليمان الداراني: من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة.

قال أبو بكر: لا يحقرن أحدٌ أحداً من المسلمين، فإن صغير المسلمين عند الله كبير.

وقال الأحنف بن قيس: ما تكبر أحد إلا من ذلة يجدها في نفسه.

وقال مالك بن دينار: كيف يتكبر من أوله نطفة مذِرَة، وآخره جيفة قَذِرَة، وهو فيما بين ذلك حامل عَذِرة.

وقال حاتم الأصم: أصل المصيبة ثلاثة أشياء: الكبر، والحرص، والحسد.

يا ابنَ الترابِ ومأكولَ الترابِ غداً ... أقصِرْ فإنك مأكولٌ ومشروبُ.

وقال عمر بن عبد العزيز: إنه ليمنعني من كثير من الكلام مخافة المباهاة.

قال الغزالي: فالكبر آفة عظيمة هائلة، وفيه يهلك الخواص من الخلق، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء، فضلاً عن عوام الخلق، وكيف لا تعظم آفته وقد قال ﷺ لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، وإنما صار حجاباً دون الجنة، لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر يغلق تلك الأبواب كلها، لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، وفيه شيء من الكبر، فما من خُلُقٍ ذميم إلا وصاحب الكبر مضطر إليه ليحفظ كبره، وما من خُلُقٍ محمودٍ إلَّا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزه، فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه، والأخلاق الذميمة متلازمة، والبعض منها داع إلى البعض، وشر أنواع الكبر ما يمنع من الاستفادة من العلم، وقبول الحق، والانقياد له.

درجات التكبر:

الأول: التكبر على الله.

وهو أفحش أنواع الكبر، مثل فرعون حين استكبر وقال: أنا ربكم الأعلى ولذلك قال تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين).

ثانياً: التكبر على الرسل.

كما فعلت الأقوام المكذبة مع رسلها، فترفعت عن الانقياد لهم كما حكى الله عنهم (أنؤمن لبشرين مثلنا) وقال تعالى عنهم (إن أنتم إلا بشر مثلنا).

وهذا الكبر قريب من الأول، وإن كان دونه.

الثالث: التكبر على العباد.

وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره.

وهذا دون الأول والثاني بكثير، لكنه عظيم لأمرين:

-وفي الآية فضل التواضع وهو ضد الكبر.

قال الإمام الجنيد رحمه الله: التواضع هو خفض الجناح ولين الجانب.

وسئل الحسن البصري رحمه الله عن التواضع، فقال: التواضع: أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلماً إلا رأيت له عليك فضلاً.

وسئل الفضيل بن عياض عن التواضع فقال: يخضع للحق، وينقاد له، ويقبله ممن قاله، ولو سمعه من صبي قبله، ولو سمعه من أجهل الناس قبله.

- وللتواضع فضائل:

فهو سبب للرفعة.

لقوله ﷺ (من تواضع لله رفعه الله) رواه مسلم.

وهو من صفات عباد الرحمن.

قال تعالى (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا).

قال ابن كثير: هذه صفات عباد الله المؤمنين (الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا) أي: بسكينة ووقار من غير جَبَرية ولا استكبار، كما قال (وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولا). فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح، ولا أشر ولا بطر.

قال السعدي: فوصفهم بأنهم (يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا) أي: ساكنين متواضعين لله والخلق فهذا وصف لهم بالوقار والسكينة والتواضع لله ولعباده.

ويورث المحبة.

قيل: التواضع يورث المحبة، والقناعة تورث الراحة.

قال ابن حبان: ... والتواضع يكسب السلامة، ويورث الألفة، ويرفع الحقد، ويذهب الصد، وثمرة التواضع المحبة، كما أن ثمرة القناعة الراحة، وإن تواضع الشريف يزيد في شرفه، كما أن تكبر الوضيع يزيد في ضعته.

والتواضع من أخلاق الأنبياء وشِيَم النبلاء.

فهذا موسى عليه السلام رفع الحجرَ لامرأتين أبوهما شيخٌ كبير.

وداود – عليه السلام – كان يأكل من كسب يده.

وزكريّا عليه السلام كان نجّارًا.

وعيسى عليه السلام يقول (وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا).

وما مِن نبيّ إلاّ ورعى الغنم، ونبيّنا ﷺ .

والتواضعُ سبَب العدلِ والأُلفة والمحبّة في المجتمع.

عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ (إِنَّ اَللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

بعض أقوال السلف في فضل التواضع:

قال الشافعي: لا يطلب هذا العلم أحد بالملك وعزة النفس فيفلح لكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وخدمة العلم وتواضع النفس أفلح.

وقال عبد الله بن المعتز: المتواضع في طلب العلم أكثرهم علماً كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماء.

وقال إبراهيم بن شيبان: الشَّرف في التَّواضُع، والعزُّ في التَّقوى، والحرّية في القناعة

قال أبو بكر – رضي الله عنه –: "وجدنا الكرم في التقوى، والغنى في اليقين، والشرف في التواضع

عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: "إنكم لمغفلون، أفضل العبادة: التواضع .

تواضع تكن كالنجم لاح لناظرٍ *** على صفحات الماء وهو رفيعُ

ولا تك كالدخان يعلو بنفسه *** إلى طبقات الجو وهو وضيعُ

قال ابن الحاج رحمه الله: من أراد الرفعة فليتواضع لله تعالى؛ فإن العزة لا تقع إلا بقدرِ النزولِ، ألا ترى أن الماءَ لما نزلَ إلى أصلِ الشجرةِ صعدَ إلى أعلاها فكأن سائلاً سأله: ما صعدَ بِكَ هنا –أعني في رأس الشجرة– وأنت تحت أصلها؟ فكأن لسان حاله يقول: من تواضع لله رفعه.

قال عروة بن الورد: التواضع أحد مصائد الشرف، وكل نعمة محسود عليها إلا التواضع.

تنبيه:

قال النووي: قوله ﷺ (وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله) فيه وجهان:

أحدهما: يرفعه في الدنيا ، ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة ، ويرفعه الله عند الناس ، ويجل مكانه.

والثاني: أن المراد ثوابه في الآخرة ، ورفعه فيها بتواضعه في الدنيا.
قال العلماء: وقد يكون المراد الوجهين معا في جميعها في الدنيا والآخرة، والله أعلم. (شرح نووي).
(**كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً**) أي كل ذلك المذكور الذي نهى الله عنه [كالشرك والقتل والزنا وأكل مال اليتيم والتكبر] كان عمله قبيحاً ومحرماً عند الله تعالى .
قال ابن كثير : قوله تعالى (كُلُّ ذلِكَ كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً) أُمَّا مَنْ قَرَأَ سَيِّئَةٌ، أَيْ فَاحِشَةٌ فَمَعْنَاهُ عنده كل هذا الذي نهيناه عَنْهُ مِنْ قَوْلِهِ (وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ) إلى هنا فهو سيئة مؤاخذ عليها مكروه عِنْدَ اللَّهِ لَا يُحِبُّهُ وَلَا يَرْضَاهُ، وَأَمَّا مَنْ قَرَأَ (سَيِّئُهُ) عَلَى الْإِضَافَةِ فَمَعْنَاهُ عِنْدَهُ كُلُّ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ قَوْلِهِ: وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ [الْإِسْرَاءِ: ٢٣] إلى هنا فَسَيِّئُهُ أَيْ فَقَبِيحُهُ مَكْرُوهٌ عِنْدَ اللَّهِ، هَكَذَا وجه ذلك ابن جرير رحمه الله.

الفوائد :

١. تحريم الكبر .
٢. قبح هذه الصفة ، لأنها تدل على خبث النفس .
٣. من صفات المؤمن التواضع وعدم التكبر .
٤. بغض الله تعالى لهذه المحرمات .
٥. وجوب اجتناب هذه المحرمات .

(**ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً (٣٩)) .**
[الإسراء : ٣٩] .

==========

(**ذَلِكَ**) إشارة إلى كل ما تقدم ذكره من التكاليف
قال ابن عاشور : والإشارة إلى جميع ما ذكر من الأوامر والنواهي .
(**مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ**) يقول تعالى : هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة ، ونهيناك من الصفات الرذيلة ، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس .
قال الزمخشري: وسَمَّاه حِكمةً؛ لأنَّه كَلامٌ مُحكَمٌ لا مَدخَلَ فيه للفَسادِ بوَجهٍ .
وقال ابنُ الجوزيّ: قَولُه تعالى: ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ يُشيرُ إلى ما تقَدَّمَ مِن الفرائِضِ والسُّنَنِ. مِنَ الْحِكْمَةِ، أي: مِن الأُمورِ المحْكَمةِ والأدَبِ الجامِعِ لِكُلِّ خَيرٍ .
وقال السعدي : وهذه الأعمال المذكورة في هذه الآيات من الحكمة العالية التي أوحاها رب العالمين لسيد المرسلين في أشرف الكتب ليأمر بها أفضل الأمم فهي من الحكمة التي من أوتيها فقد أوتي خيرا كثيرا.
وقال ابن عاشور : في هذا التذييل تنبيه على أنّ ما اشتملت عليه الآيات السبع عشرةَ هو من الحكمة ، تحريضاً على اتباع ما فيها وأنه خير كثير ... وفيه امتنان على النبي ﷺ بأن الله أوحى إليه ، فذلك وجه قوله : مما أوحى إليك تنبيهاً على أن مثل ذلك لا يصل إليه الأميون لولا الوحي من الله ، وأنه علمه ما لم يكن يعلم وأمره أن يعلمه الناس.
والحكمة : معرفة الحقائق على ما هي عليه دون غلط ولا اشتباه ، وتطلق على الكلام الدال عليها.

(**وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ**) كرر سبحانه النهي عن الشرك تأكيداً وتقريراً وتنبيهاً على خطورته .

قال ابنُ عطية: الخطاب للنبي ﷺ، والمرادُ كلُّ مَن سمِع الآيةَ مِن البشرِ .

وقال ابنُ كثير: والمرادُ مِن هذا الخِطابِ الأُمَّةُ بواسِطةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّه ﷺ مَعصومٌ .

(**فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً**) تلومك نفسك ويلومك الناس والخلق .

قال ابن عاشور : والإلقاء : رمْي الجسم من أعلى إلى أسفل ، وهو يؤذن بالإهانة.

والملوم : الذي يُنكر عليه ما فعله.

(**مَّدْحُوراً**) مبعداً مطروداً .

قال بعض العلماء : ختم به الأحكام كما ابتدأها إشارة إلى أن التوحيد مبدأ الأمور ومنتهاها ، وهو رأس الأشياء وأساسها ، والأعمال بدونه باطلة لا تفيد شيئاً .

قال الرازي : من فوائد هذه الآية أنه تعالى بدأ في هذه التكاليف بالأمر بالتوحيد ، والنهي عن الشرك وختمها بعين هذا المعنى ، والمقصود منه التنبيه على أن أول كل عمل وقول وفكر وذكر يجب أن يكون ذكر التوحيد ، وآخره يجب أن يكون ذكر التوحيد ، تنبيهاً على أن المقصود من جميع التكاليف هو معرفة التوحيد والاستغراق فيه ، فهذا التكرير حسن موقعه لهذه الفائدة العظيمة .

وقال بعض العلماء : كرر للتَّنبيهِ على أنَّ التَّوحيدَ مبدَأُ الأمْرِ ومُنْتهاهُ، وقد رُتِّبَ عليه ما هو عائِدَةُ الإشراكِ أوَّلًا، حيث قيل :فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا، ورُتِّبَ عليه هاهنا نَتيجتُه في العُقبى، فقيل :فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا .

الفوائد :

١. إثبات الوحي .
٢. إثبات رسالة النبي ﷺ .
٣. أن أحكام الله (أوامر ونواهي) كلها حكمة ووفق الحكمة والعقل .
٤. فعل الله لا يدخله الخلل .
٥. إن الله يأمر بالأخلاق الفاضلة ، وينهى عن الصفات الرذيلة .
٦. تحريم الشرك بالله .
٧. تكرار الشيء المهم ، لبيان أهميته والتحذير منه .
٨. أن المشرك بالله مخلد في النار .
٩. أن المشرك مطرود عن رحمة الله .

(**أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا (٤٠)**) .

[الإسراء : ٤٠] .

==========

(**أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثًا ؟**) خطاب على وجه التوبيخ للعرب ، ، الذين قالوا : إن الملائكة بنات الله، والمعنى : هل خصكم ربكم وأخلصكم بالذكور ، واختار لنفسه – على زعمكم – البنات ؟ كيف يجعل لكم الأعلى من النسل ؟ ويختار لنفسه الأدنى ؟

كما قال تعالى (فاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) .

وقال سُبحانَه (أم لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ) .

وقال عزَّ وجل (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى) .

(**إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا**) أي : إنكم لتقولون قولا عظيما في شناعته وبشاعته ، حيث تنسبون إليه تعالى البنات ، وتجعلون لله ما تكرهون !!

قال ابن كثير: ... ثمَّ شدَّد الإنكارَ عليهم فقال: إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا أي: في زعمِكم لله ولدًا، ثمَّ جعْلِكم ولَدَه الإناثَ التي تأنَفون أن يكنَّ لكم، وربَّما قتلتُموهنَّ بالوأْدِ، فتلك إذًا قِسمةٌ ضِيزى .

– فادعاء لله الولد أمر خطير وكبير.

كما قال تعالى (إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً).

وقال تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً. تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً. وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً. إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً).

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (قَالَ اللَّهُ كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَزَعَمَ أَنِّي لاَ أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لِي وَلَدٌ ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَداً) رواه البخاري.

وقال ﷺ (لا أحد أصبر على اذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً ، وهو يرزقهم ويعافيهم) متفق عليه .

– والله منزه عن الولد لأمور متعددة:

أولاً: لأنه مالك كل شيء، والمالك لا بد أن يكون المملوك مبايناً له في كل الأحوال.

ثانياً: أنه ليس له زوجة، والابن إنما يكون غالباً ممن له زوجة كما ذكر الله ذلك في سورة الأنعام (أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ).

ثالثاً: أن الولد إنما يكون لمن يحتاج للبقاء، أي: بقاء النوع باستمرار النسل، والرب عز وجل ليس بحاجة إلى ذلك، لأنه الحي الذي لا يموت.

رابعاً: أن الابن إنما يحتاج إليه والده ليساعده ويعينه على شؤونه وأموره، والله سبحانه وتعالى غني، وقد أشار إلى ذلك بقوله (سبحانه هو الغني). [قاله الشيخ ابن عثيمين]

قال الرازي: إن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه في الكبر ورجاء الانتفاع بمعونته حال عجز الأب عن أمور نفسه، فعلى هذا إيجاد الولد إنما يصح على من يصح عليه الفقر والعجز والحاجة، فإذا كان كل ذلك محال كان إيجاد الولد عليه سبحانه وتعالى محالاً واعلم أنه تعالى حكى في مواضع كثيرة عن هؤلاء الذين يضيفون إليه الأولاد قولهم، واحتج عليهم بهذه الحجة وهي أن كل من في السموات والأرض عبد له، وبأنه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، وقال في مريم (ذلك عِيسَى ابن مَرْيَمَ قَوْلَ الحق الذي فِيهِ يَمْتُرُون مَا كَانَ للَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سبحانه إِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُون) وقال أيضاً في آخر هذه السورة (وَقَالُوا اتخذ الرحمن وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً * أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً * وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً * إِن كُلُّ مَن فِي السموات والأرض إِلاَّ آتِي الرحمن عَبْداً).

الفوائد :

١. كفر من ادعى أن لله الولد .

٢. طغيان الكفار بجعل الملائكة بنات الله .

٣. كمال الله عز وجل وتنزيهه عن كل نقص .

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا (٤١)) .

[الإسراء : ٤١] .

==========

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ ...) ولقد بَيَّنَّا ونوَّعْنا وأكثَرْنا في هذا القُرآنِ العِبَرَ والمواعِظَ، والحِكَمَ والأمثالَ، والحُجَجَ والأدِلَّةَ؛ ليتَذَكَّروا ويتَّعِظوا، وما يزيدُ الظَّالِمينَ هذا التَّصريفُ والتَّذكيرُ بآياتِ القُرآنِ إلَّا ذَهابًا وهربًا من الحَقِّ، وتَباعُدًا عن الإيمانِ، وغفلةً عنِ النَّظَرِ والاعتبارِ ، وعكوفا على باطلهم، بسبب جحودهم وعنادهم وحسدهم للرسول ﷺ على ما آتاه الله من فضله.

قال الرازي : اعلم أن التصريف في اللغة عبارة عن صرف الشيء من جهة إلى جهة ، نحو تصريف الرياح وتصريف الأمور هذا هو الأصل في اللغة ، ثم جعل لفظ التصريف كناية عن التبيين ، لأن من حاول بيان شيء فإنه يصرف كلامه من نوع إلى نوع آخر ومن مثال إلى مثال آخر ليكمل الإيضاح ويقوي البيان .

وذكر الله آيات أخرى كهذه الآية : (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً) .

– من عظمة القرآن : أن الله عز وجل نوّع فيه الأساليب ترغيبا وترهيباً، وأمرا ونهياً، وأخباراً وأحكاماً ، وهذا كله لأجل هداية الخلق للطريق المستقيم ، وفي هذا درس للمربي (والداً أو ولياً أو معلماً أو داعية...إلخ) أن يحرص على تنويع أساليبه في تربية من تحت يده فهو أدعى –بإذن الله وتوفيقه– لنجاحه في التربية ، مع عدم إغفال دعاء الله له بالتوفيق في مسعاه.

الفوائد :

١– أن القرآن بيّن كل شيء ووضحه للناس كي يعتبروا ويتعظوا ويتذكروا .

٢– أنه ليس كل أحد ينتفع بالقرآن .

٣– شدة طغيان الكفار ، حيث مع وضوح الآيات والعبر لم يؤمنوا بهذا القرآن .

(قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣)).
[الإسراء : ٤٢-٤٣] .

==========

(قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً) اختلف العلماء في معنى الآية على قولين :

القول الأول : أي لو فرضنا أن مع الله آلهة أخرى- كما يزعم هؤلاء المشركون -إذا لطلبوا طريقاً إلى مغالبة ذي العزة والجلال ، ليسلبوا ملكه ، كما يفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض .

وهذا القول محكي عن الحسن وابن جبير كما في زاد المسير .

واستظهره أبو السعود ، وقال الآلوسي : واختاره المحققون ، ورجحه الشنقيطي .

أ-لأنه الأظهر والأنسب مع قوله تعالى (سبحانه) فإنه ظاهر في أن المراد بيان أنه يلزم ما يقولونه محذور عظيم .

ب-ولقوله تعالى (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) .

قال الشنقيطي : أن معنى الآية الكريمة : لو كان مع الله آلهة أخرى كما يزعم الكفار لابتغوا - أي الآلهة المزعومة - أي لطلبوا إلى ذي العرش - اي إلى الله سبيلاً - أي إلى مغالبته وإزالة ملكه ، لأنهم إذاً يكونون شركاءه كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض. سبحان الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً!

وهذا القول في معنى الآية هو الظاهر عندي ، وهو المتبادر من معنى الآية الكريمة.

ومن الآيات الشاهدة لهذا المعنى قوله تعالى (مَا اتخذ الله مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُون عَالِمِ الغيب والشهادة فتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ) وقوله (لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ الله رَبِّ العرش عَمَّا يَصِفُونَ) .وهذا المعنى في الآية مروي عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وأبي على الفارسي ، والنقاش ، وأبي منصور ، وغيره من المتكلمين. (الأضواء)

القول الثاني : لو كان الأمر كما تقولون لكان أولئك المعبودون يبتغون سبيلا إلى التقرب إليه بعبادته وطاعته ويطلبون الزلفى لديه.

وهذا اختيار ابن جرير ، وابن كثير ، حيث اقتصر عليه ابن كثير في تفسيره.

والوجه الأول أظهر كما يقول العلامة أبو السعود وهو المناسب للآية لقوله تعالى بعدها {سبحانه} فإنه صريح في الإنكار ، وأن قولهم فيه محذور عظيم ، وبلاء جسيم .

واختاره الشوكاني .

قال الشوكاني : قوله تعالى (لابْتَغَوْا إلى ذِي العَرْش) وهو اللَّهُ سُبْحانَهُ سَبِيلًا طَرِيقًا لِلْمُغالَبَةِ والممانَعَةِ كَما تَفْعَلُ المُلُوكُ مَعَ بَعْضِهِمُ البَعْضِ مِنَ المقاتَلَةِ والمصاوَلَةِ .

وقِيلَ: مَعْناهُ: إذَنْ لابْتَغَتِ الآلِهَةُ إلى اللَّهِ القُرْبَةَ والزُّلْفَةَ عِنْدَهُ، لِأنَّهم دُونَهُ، والمشْرِكُونَ إنَّما اعْتَقَدُوا أنَّها تُقَرِّبُهم إلى اللَّهِ ، والظّاهِرُ المعْنى الأوَّلُ، ومِثْلُ مَعْناهُ قَوْلُهُ سُبْحانَه (لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إلّا اللَّهُ لَفَسَدَتا . (فتح القدير)

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا) أي: تَنزيهًا للهِ عمَّا لا يَليقُ بعَظَمتِه، وتعالى عُلُوًّا كبيرًا عمَّا يقولُ المشرِكونَ مِن الكَذِبِ عليه، كنِسبةِ الوَلَدِ والشَّريكِ إليه .

– وما تضمنته هذه الآية الكريمة: من أنه لما ذكر وصف الكفار له بما لا يليق به ، نزه نفسه عن ذلك ، معلماً خلقه في كتابه أن ينزهوه عن كل ما لا يليق به ، جاء موضحاً في آيات كثيرة:

كقوله تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ).

وقوله تعالى (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ).

وقوله تعالى (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ).

وقوله تعالى (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ).

وقوله تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ).

وقوله تعالى (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً. سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً).

وقوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ).

وقوله تعالى (سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ).

الفوائد :

١. وجوب إفراد الله بالألوهية .
٢. استحالة أن يكون مع الله آلهة أخرى .
٣. الرد على من يقول من الكفار أن مع الله آلهة أخرى .
٤. جملةُ (كَمَا يَقُولُونَ) مُعترِضةٌ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ تعدُّدَ الآلهةِ لا تحقُّقَ له، وإنَّما هو مُجرَّدُ قولٍ عارٍ عن المطابقةِ لِمَا في نفْسِ الأمرِ.
٥. الأدلة كثيرة ومتنوعة على أن الإله واحد .
٦. تنزيه الله عن كل نقص .
٧. الإله الحق هو الله .
٨. خطر قول أن مع الله آلهة أخرى .
٩. الكون كله وبما فيه من السموات والأرض وغيرهما شاهد ودليل على وحدانية الله تعالى .

(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)) .

[الإسراء : ٤٤] .

==========

(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ) أي تسبح له الكائنات ، وتنزهه وتقدسه الأرض والسموات ومن فيهن من المخلوقات من الإنس والجن والملائكة .

أي : مجَّد اللهَ ونزَّهه عن السوء كلُّ ما في الكون من إنسان، وحيوان، ونبات قال الصاوي: والتسبيحُ تنزيهُ المولى عن كل ما لا يليق به قولاً، وفعلاً، واعتقاداً .

ثم عمم بعد ذلك الأشياء كلها :

(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ) من شجر وحجر وجبل وجماد وغير ذلك .

التسبيح: تنزيه الله عن العيوب والنقائص .

بحمده : أي تسبيحاً مصحوباً بحمدك، فتكون الجملة متضمنة لتنزيه الله عن النقص، وإثبات الكمال لله بالحمد.

وفي هذا فضل تسبيح الله وحمده.

قال ﷺ (أفضل الكلام ما اصطفى الله لملائكته: سبحان الله وبحمده) رواه مسلم.

وقال ﷺ (كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم) متفق عليه.

وقال ﷺ (من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة) رواه الترمذي.

وقال ﷺ (وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض) رواه مسلم.

وقال ﷺ (من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد) رواه مسلم.

وقال ﷺ (لأن أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس). رواه مسلم .

وعن عائشة قالت (كان رسول الله ﷺ يكثر من قول " سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه ". قالت فقلت: يا رسول الله! أراك تكثر من قول " سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه؟ " فقال " خبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي. فإذا رأيتها أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه. فقد رأيتها. إذا جاء نصر الله والفتح. فتح مكة. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً) متفق عليه .

وعن جويرية (أنَّ النبيَّ ﷺ خرج من عندِها بُكرةً حين صلى الصبحَ، وهي في مسجدِها. ثم رجع بعد أن أَضحَى، وهي جالسةٌ. فقال " ما زلتُ على الحالِ التي فارقتُكِ عليها؟ " قالت: نعم. قال النبيُّ ﷺ: لقد قلتُ بعدكِ أربعَ كلماتٍ، ثلاثَ مراتٍ. لو وُزِنَتْ بما قلتِ منذُ اليومَ لوزَنَتهنَّ: سبحان اللهِ وبحمدِه، عددَ خلقِه ورضَا نفسِه وزِنَةِ عرشِه ومِدادَ كلماتِه) رواه مسلم .

قال الشوكاني : وقَدِ اخْتَلَفَ أَهْلُ العِلْمِ في هَذا العُمُومِ هَلْ هو مَخْصُوصٌ أَمْ لا ؟

فَقالَتْ طائِفَةٌ: لَيْسَ بِمَخْصُوصٍ، وحَمَلُوا التَّسْبِيحَ عَلى تَسْبِيحِ الدَّلالَةِ لِأَنَّ كُلَّ مَخْلُوقٍ يَشْهَدُ عَلى نَفْسِهِ ويُدِلُّ غَيْرَهُ بِأَنَّ اللَّهَ خالِقٌ قادِرٌ.

وقالَتْ طائِفَةٌ: هَذا التَّسْبِيحُ عَلى حَقِيقَتِهِ والعُمُومُ عَلى ظاهِرِهِ.

والمرادُ أَنَّ كُلَّ المخْلُوقاتِ تُسَبِّحُ لِلَّهِ سُبْحانَهُ هَذا التَّسْبِيحُ الَّذِي مَعْناهُ التَّنْزِيهُ وإِنْ كانَ البَشَرُ لا يَسْمَعُونَ ذَلِكَ ولا يَفْهَمُونَهُ، ويُؤَيِّدُ هَذا قَوْلُهُ سُبْحانَه (ولَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) فَإِنَّهُ لَوْ كانَ المرادُ تَسْبِيحَ الدَّلالَةِ لَكانَ أَمْرًا مَفْهُومًا لِكُلِّ أَحَدٍ.

وأُجِيبُ بِأَنَّ المرادَ بِقَوْلِهِ (لا تَفْقَهُونَ) الكُفّارُ الَّذِينَ يُعْرِضُونَ عَنِ الِاعْتِبارِ.

وقالَتْ طائِفَةٌ: إِنَّ هَذا العُمُومَ مَخْصُوصٌ بِالمِلائِكَةِ والثَّقَلَيْنِ دُونَ الجَماداتِ .

وقِيلَ: خاصٌّ بِالأَجْسامِ النّامِيَةِ فَيَدْخُلُ النَّباتاتُ، كَما رُوِيَ هَذا القَوْلُ عَنْ عِكْرِمَةَ، والحَسَنِ وخَصَّ تَسْبِيحَ النَّباتاتِ بِوَقْتِ نُمُوِّها لا بَعْدَ قَطْعِها وقَدِ اسْتُدِلَّ لِذَلِكَ بِحَدِيثِ (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ عَلى قَبْرَيْنِ وفِيهِ ثُمَّ دَعا بِعَسِيبٍ رَطْبٍ فَشَقَّهُ اثْنَيْنِ، وقالَ: إِنَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُما ما لَمْ يَيْبَسا) .

ويُؤَيِّدُ حَمْلَ الآيَةِ عَلى العُمُومِ قَوْلُهُ: (إِنّا سَخَّرْنا الجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالعَشِيِّ والإِشْراقِ) .

وقَوْلُهُ: (وإِنَّ مِنها لَما يَهْبِطُ مِن خَشْيَةِ اللَّهِ) وقَوْلُهُ: (وتَخِرُّ الجِبالُ هَدًّا) ونَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الآياتِ .

وثَبَتَ في الصَّحِيحِ أَنَّهم (كانُوا يَسْمَعُونَ تَسْبِيحَ الطَّعامِ، وهم يَأْكُلُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) .

وهَكَذا حَدِيثُ حَنِينِ الجِذْعِ .

وحَدِيثُ أنَّ حَجَرًا بِمَكَّةَ كانَ يُسَلِّمُ عَلى النَّبِيِّ ﷺ وكُلُّها في الصَّحِيحِ ومِن ذَلِكَ تَسْبِيحُ الحَصى في كَفِّهِ ﷺ .

ومُدافَعَةُ عُمُومِ هَذِهِ الآيَةِ بِمُجَرَّدِ الِاسْتِبْعاداتِ لَيْسَ دَأْبَ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ سُبْحانَهُ ويُؤْمِنُ بِما جاءَ مِن عِنْدِهِ . (فتح القدير)

قال الشنقيطي : وَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ لِلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ إِدْرَاكًا يَعْلَمُهُ هُوَ جَلَّ وَعَلَا، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُهُ، وَبِذَلِكَ الْإِدْرَاكِ أَدْرَكَتْ عَرْضَ الْأَمَانَةِ عَلَيْهَا، وَأَبَتْ وَأَشْفَقَتْ، أَيْ: خَافَتْ.

وَمِثَالُ هَذَا تَدُلُّ عَلَيْهِ آيَاتٌ وَأَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ، فَمِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى إِدْرَاكِ الْجَمَادَاتِ الْمَذْكُورِ:

قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ «الْبَقَرَةِ» ، فِي الْحِجَارَةِ (وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)، فَصَرَّحَ بِأَنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ مَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَهَذِهِ الْخَشْيَةُ الَّتِي نَسَبَهَا اللَّهُ لِبَعْضِ الْحِجَارَةِ بِإِدْرَاكٍ يَعْلَمُهُ هُوَ تَعَالَى.

وَمِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) .

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى (وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَمِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ قِصَّةُ حَنِينِ الْجِذْعِ، الَّذِي كَانَ يَخْطُبُ عَلَيْهِ ﷺ لَمَّا انْتَقَلَ بِالْخُطْبَةِ إِلَى الْمِنْبَرِ، وَهِيَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ.

وَمِنْهَا مَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ (إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ فِي مَكَّةَ) .

وَأَمْثَالُ هَذَا كَثِيرَةٌ. فَكُلُّ ذَلِكَ الْمَذْكُورِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِنَّمَا يَكُونُ بِإِدْرَاكٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُهُ ;كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) .

وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِتَسْبِيحِ الْجَمَادَاتِ دَلَالَتَهَا عَلَى خَالِقِهَا لَكُنَّا نَفْقَهُهُ، كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ، وَقَدْ دَلَّتْ عَلَيْهِ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ. (أضواء) .

فهذا القول هو الراجح ان كل شيء يسبح لله من جماد وغيره للأخبار الكثيرة في هذا الباب .

وممن اختار أنَّ الآيةَ (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) عامةٌ، وأنَّ التسبيحَ مِن جميعِ المخلوقاتِ تسبيحٌ حقيقيٌّ:

ابنُ جريرٍ، والسمعاني، والقرطبي، وابنُ تيميةَ، والخازنُ، وابنُ القيم، وابنُ كثير، والشوكاني، والشنقيطي.

قال ابن كثير : قوله تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) أي : وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله (وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) أي : لا تفقهون تسبيحهم- أيها الناس- لأنها بخلاف لغتكم وهذا عام في الحيوانات والنبات والجماد.

وهذا أشهر القولين كما ثبت في صحيح البخاري وغيره، عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل.

وفي حديث أبي ذر: أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات، فسمع لهن تسبيح كحنين النحل. وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ وهو حديث مشهور في المسانيد ...

ثم قال ويشهد لهذا القول آية السجدة في أول سورة الحج . (ابن كثير)

وهي قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ) .

التفسير الوسيط لطنطاوي (٨/ ٣٦١)

وقال القرطبي: قوله تعالى (تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ) أعاد على السموات والأرض ضمير من يعقل، لما أسند إليها فعل العاقل وهو التسبيح. وقوله وَمَنْ فِيهِنَّ يريد الملائكة والإنس والجن، ثم عمم بعد ذلك الأشياء كلها في قوله (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) .

واختلف في هذا العموم هل هو مخصص أو لا.

فقالت فرقة: ليس مخصوصاً، والمراد به تسبيح الدلالة، كل محدث يشهد على نفسه بأن الله عز وجل خالق قادر.

وقالت طائفة: هذا التسبيح حقيقة، وكل شيء على العموم يسبح تسبيحاً لا يسمعه البشر: ولا يفقهونه .

ولو كان ما قاله الأولون من أنه أثر الصفة والدلالة، لكان أمراً مفهوماً، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يفقه..

ويستدل لهذا القول من الكتاب بقوله تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلًا يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ) .

وقوله تعالى (وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ. إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ) .

ثم قال: فالصحيح أن الكل يسبح للأخبار الدالة على ذلك، ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة، فأي تخصيص لداود، وإنما ذلك تسبيح المقال، بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح. وقد نصت السنة على ما دل عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شيء فالقول به أولى. (القرطبي)

(**وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**) أي لا تفهمون تسبيح هذه المخلوقات التي على غير لغتكم ، بل يحيط بها علام الغيوب

(**إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً**) والحليم الذي لا يعاجل بالعقوبة .

فالله عز وجل لم يعاجل بالعقوبة من قال فيه قولاً تكاد السموات والأرض تتفطر منه وتخر له الجبال ، ولكنه أمهلهم وأنعم عليهم وعافاهم ورزقهم ودعاهم إلى بابه ، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر .

كما قال ﷺ (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ رسول الله ﷺ : (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) .

وقال تعالى (فكاين من قرية أهلكناها وهي ظالمة) .

وقال تعالى (وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة) .

(**غَفُوراً**) يغفر الذنوب والسيئات مهما عظمت وكثرت بشرط أن تكون توبة صادقة نصوحاً .

كما قال تعالى (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً) .

الفوائد :

١. عظمة الله حيث تسبح له السماوات والأرض .
٢. أنَّ المخلوقاتِ -وإنْ كانت جَمادًا- تُحِسُّ بعَظَمةِ الخالِقِ .
٣. أن كل شيء خاضع لله .
٤. أن كل شيء يسبح لله تعالى .
٥. فيه دَلالةٌ على أنَّ تَرْكَ قَتْلِ الدَّوَابِّ والحَشَراتِ التي سَكَتَ الشَّرعُ عنها -كالصَّراصيرِ والجِعْلانِ، والخُنْفُساءِ وما أشبَهَها- أَولى؛ فإنَّه وإنْ كان قَتْلُها مُباحًا، فتَرْكُها تُسَبِّحُ اللهَ عزَّ وجلَّ أَولى مِن قَتْلِها .
٦. فضل التسبيح لله .
٧. فضل سبحان الله وبحمده .

٨. وجوب تنزيه الله عن كل نقص .

٩. وجوب الثناء على الله وحمده .

(وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا (٤٧) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٤٨)) .

[الإسراء : ٤٥-٤٨] .

==========

(وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً) أي إذا قرأت القرآن يا محمد جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً : أي حائلاً وساتراً يمنعهم من فهم القرآن وإدراكه لئلا يفقهوه وينتفعوا به .

ومما يدل على ذلك :

أ- قوله تعالى (وقالوا قلوبنا في أكنة) .

وقوله تعالى (ختم على قلوبهم) .

وقوله تعالى (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه) .

ب-قوله تعالى بعدها (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً) .

وهذا القول رجحه : الطبري ، والبغوي ، وابن جزي ، والبيضاوي ، والخازن ، وابن القيم ، وابن كثير ، والآلوسي ، والسعدي .

قال ابنُ القيم: المعنى: جعلْنا بينَ القرآنِ إذا قرأتَه وبينهم حجابًا يحولُ بينَهم وبينَ فهمِه وتدبرِه والإيمانِ به، ويبينُه قولُه (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا) وهذه الثلاثةُ هي الثلاثةُ المذكورةُ في قولِه: وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَاب ، فأخبر سبحانَه أنَّ ذلك جعلُه، فالحجابُ يمنعُ رؤيةَ الحقِّ، والأكنةُ تمنعُ مِن فهمِه، والوقرُ يمنعُ مِن سماعِه . (شفاء العليل) .

وقال ابن جزي : قوله تعالى (جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة حِجَاباً مَّسْتُوراً) في معناه قولان :

أحدهما : أن الله أخبر نبيه ﷺ أنه يستره من الكفار إذا أرادوا به شراً، ويحجبه منهم، والآخر: أنه يحجب الكفار عن فهم القرآن، وهذا أرجح لما بعده . (التسهيل) .

وقال القاسمي : (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ) أي : على هؤلاء المشركين (جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ) أي : لا يصدقون بالبعث ولا يقرون بالثواب والعقاب ، جزاء على الأعمال (حِجَاباً مَّسْتُوراً) أي : من الجهل وعمى القلب . فيحجب قلوبهم عن أن يفهموا ما تقرؤه عليهم فينتفعوا به ؛ عقوبة منا لهم على كفرهم .

ومعنى كون الحجاب مستوراً ، أي : عن العيون ، فلا تدركه أبصارهم . (محاسن التأويل) .

وقيل في معنى الآية : أن المراد بالحجاب المستور أن الله يستره عن أعين الكفار فلا يرونه .

وقد جاء في حديث عن اسماء بنت أبي بكر قالت (لما نزلت [تبت يدا أبي لهب] أقبلت العوراء أم جميل ولها ولولة وفي يدها فهر وهي تقول : مذمماً أتينا ... أم أبينا .. ودينه قلينا .. وأمره عصينا ، ورسول الله ﷺ جالس وأبو بكر إلى جنبه ، فقال أبو بكر : لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك ؟ فقال : إنها لن تراني ، وقرأ قرآناً اعتصم به ، كما قال تعالى (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً) فجاءت حتى قامت على أبي بكر فلم تر النبي ﷺ فقالت : يا أبا بكر ! بلغني أن صاحبك هجاني ؟ فقال أبو بكر : لا ورب هذا البيت ما هجاك ، فانصرفت وهي تقول : قد علمت قريش أني نبت سيدها) رواه أبو يعلى .

ورجح هذا القول :

ابن عطية ، والقرطبي ، وأبو حيان .

قال أبو السعود : وإنما خُصَّ بالذكر كفرُهم بالآخرة من بين سائرِ ما كفروا به من التوحيد ونحوِه دَلالةً على أنها مُعظمُ ما أُمروا بالإيمان به في القرآن ، وتمهيداً لما سينقل عنهم من إنكار البعثِ واستعجالِه ونحو ذلك .

وقال ابن عاشور : ولما كان إنكارهم البعث هو الأصل الذي استبعدوا به دعوة النبي ﷺ حتى زعموا أنه يقول محالاً إذ يخبر بإعادة الخلق بعد الموت (وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مُزّقتم كل ممزق إنكم لفي خَلْق جديد أفترى على الله كذباً أم به جنة) استحضروا في هذا الكلام بطريق الموصولة لما في الصلة من الإيماء إلى علة جَعل ذلك الحجاب بينه وبينهم فلذلك قال: وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة) . (ابن عاشور) .

(**وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً**) جمع كنان وهو ما يستر الشيء ويغطيه .

(**أَن يَفْقَهُوهُ**) أي لئلا يفقهوا القرآن .

قال السعدي: وجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أي: أغطيةً وأغشِيةً لا يَفقَهونَ معها القُرآنَ، بل يَسمَعونَه سَماعًا تَقومُ به عليهم الحُجَّةُ .

(**وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً**) وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم ويهتدون به ، أي: وجعلنا في آذانهم ثقلاً وصمماً بحيث لا ينتفعون بما سمعوا.

كما قال تعالى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ).

قال القرطبي: وليس المعنى أنهم لا يسمعون ولا يفقهون ، ولكن لما كانوا لا ينتفعون بما يسمعون ، ولا ينقادون إلى الحق ، كانوا بمنزلة من لا يسمع ولا يفهم.

وقال ابن الجوزي: وإنما فُعلَ ذلك بهم مجازاة لهم بإقامتهم على كفرهم ، وليس المعنى أنهم لم يفهموه ولم يسمعوه ، ولكنهم لما عدلوا عنه ، وصرفوا فكرهم عما عليهم في سوء العاقبة ، كانوا بمنزلة من لم يعلم ولم يسمع.

قال الشنقيطي : بَيَّنَ في مواضِعَ أُخَرَ سَبَبَ الحَيلولةِ بينَ القُلوبِ وبينَ الانتفاعِ به، وأنَّه هو كُفرُهم، فجازاهم اللهُ على كُفرِهم بطَمسِ البصائِرِ، وإزاغةِ القُلوبِ، والطَّبعِ والختمِ، والأكِنَّةِ المانعةِ مِن وُصولِ الخَيرِ إليها :

كقوله تعالى (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) .

وقَولِه تعالى (بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ) .

وقَولِه تعالى (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ) .

وقَولِه تعالى(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا) .

وقَولِه تعالى (وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ)إلى غيرِ ذلك من الآياتِ . (أضواء)

وكذا قوله تعالى (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ).

وقال تعالى (وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ).

قال ابن القيم: أن كل من أعرض عن شيء من الحق وجحده، وقع في باطل مُقابل لما أعرض عنه من الحق وجحده، ولا، حتى في الأعمال ، من رغب عن العمل لوجه الله وحده ابتلاه الله بالعمل لوجوه الخلق ، فرغب عن العمل لمن ضَره ونفعه وموته وحياته وسعادته بيده ، فابتليَ بالعمل لمن لا يملك له شيئاً من ذلك

وكذلك من رغب عن إنفاق ماله في طاعة الله ابتُليَ بإنفاقه لغير الله وهو راغم.

(**وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ**) أي إذا وحدت الله في تلاوتك وقلت : لا إله إلا الله .

(**وَلَّوْاْ**) أي أدبروا راجعين .

(**عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً**) من شدة بغضهم له ، ومحبتهم لما هم عليه من الباطل .

كما قال تعالى

كما قال تعالى (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) .

وقال سُبحانَه (ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ) .

وقال عزَّ وجلَّ (إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ) .

وقال تعالى (كَبُرَ عَلَى المشركين مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ) .

وقال تعالى (وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الذين كَفَرُواْ المنكر يَكَادُونَ يَسْطُونَ بالذين يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا) .

وقال تعالى (وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) .

(**نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ**) أي نحن أعلم بالغاية التي يستمعون من أجلها للقرآن ، وهي الاستهزاء والسخرية .

قال المفسرون : كان المشركون يجلسون عند النبي مظهرين الاستماع وفي الواقع قاصدين الاستهزاء فنزلت الآية تسلية االرسول ؟؟؟ وتهديداً للمشركين .

(**إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى**) أي حين يستمعون إلى قراءتك يا محمد يتناجون ويتحدثون بينهم سراً .

(إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ) في مناجاتهم .

(**إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً**) ما تتبعون إلا رجلاً سُحر فجُنَّ فاختلط كلامه .

(**انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ**) أي انظر يا محمد وتعجب كيف يقولون تارة عنك ساحر ، وتارة إنك شاعر ، وتارة إنك مجنون ، وقد ضلوا بهذا البهتان والزور .

قال ابن عطية : ضرب المثل له هو قولهم مسحور ، ساحر ، مجنون ، متكهن ، لأنه لم يكن عندهم متيقناً بأحد هذه ، فإنما كانت منهم على جهة التشبيه .

وقال الشوكاني : قوله تعالى (انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأمثال) أي قالوا تارة : إنك كاهن ، وتارة ساحر ، وتارة شاعر ، وتارة مجنون . (فتح القدير) .

كما قال تعالى (بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) .

وقال تبارك وتعالى (وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ) .

وقال عزَّ مِن قائلٍ (ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ) .

وقال سُبحانَه (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) .

وقال جلَّ جَلالُه (وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) .

(**فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً**) أي لا يجدون طريقاً إلى الحق والهدى .

الفوائد :

١. مشروعية تلاوة القرآن .

٢. فضل فهم القرآن وتدبره .

٣. ذم من لا يفقه القرآن ولا يفهمه .

٤. أن الله يحب منا فهم القرآن وتدبره .

٥. وجوب الإيمان بالآخرة .

٦. مشروعية الإنصات للموعظة .

٧. خطر التكذيب والظلم والإعراض وأنه سبب لعدم فهم القرآن .

(وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (٤٩) قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً (٥٠) أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً (٥٢))

[الإسراء : ٤٩-٥٢] .

==========

(**وَقَالُواْ**) يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد القائلين استفهام إنكاري منهم لذلك :

(**أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً**) أي تراباً وأجساداً بالية .

(**أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً**) أي يوم القيامة بعدما بلينا وصرنا عدماً لا نذكر .

كما قال تعالى (يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً) .

وقال سُبحانَه (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) .

فأمر الله سبحانه رسول الله ﷺ أن يجيبهم فقال :

(**قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً**) إذ هما أشد امتناعاً من العظام والرفات .

فالحجارة والحديد أبعد عن الحياة وهي أصلب الأشياء ولو كانت أجسامكم منها لأعادها الله ، فكيف لا يقدر على إعادتكم إذا كنتم عظاماً ورفاتاً ؟

قال ابن عطية : المعنى : قل لهم يا محمد كونوا إن استطعتم هذه الأشياء الصعبة الممتنعة التأتي ، لا بد من بعثكم .

قال ابن الجوزي : فإن قيل : كيف قيل لهم : (كونوا حجارة أو حديداً) وهم لا يقدرون على ذلك؟ فعنه جوابان.

أحدهما : إن قدرتم على تغيُّر حالاتكم ، فكونوا حجارة أو أشدَّ منها ، فانا نميتكم ، وننفِّذ أحكامنا فيكم ، ومثل هذا قولك للرجل : اصعد إلى السماء فاني لاحقك.

والثاني : تصوَّروا أنفسكم حجارة أو أصلب منها ، فإنا سنُبيدكم .

(**أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ**) أي كونوا خلقاً آخر أوغل في البعد عن الحياة من الحجارة والحديد مما يصعب في نفوسكم تصور الحياة فيه فسيبعثكم الله .

قال مجاهد : المعنى كونوا ما شئتم فستعادون .

وقيل : أو خلقاً مما يكبر في صدوركم : يعني السماء والأرض والجبال .

قال الماوردي (أو خَلْقاً ممّا يكبر في صدوركم) فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أنه عنى بذلك السموات والأرض والجبال لعظمها في النفوس ، قاله مجاهد.

الثاني : أنه أراد الموت لأنه ليس شيء أكبر في نفس ابن آدم منه .

الثالث : أنه أراد البعث لأنه كان أكبر شيء في صدروهم قاله الكلبي.

الرابع : ما يكبر في صدوركم من جميع ما استعظمتموه من خلق الله تعالى، فإن الله يميتكم ثم يحييكم ثم يبعثكم، قاله قتادة. (انتهى)

وهذا الراجح .

والحاصل : أن المعنى أو كونوا ما شئتم مما يعظم في نفوسكم من سائر الأشياء فسيعيدكم الله ، وهذا يشمل جميع ما ذكره المفسرون مما يعظم في نفوس بني آدم ، ورجحه الطبري ، وابن عطية .

ولذلك قال ابنُ جرير : جائِزٌ أن يكونَ عنى به الموتَ؛ لأنَّه عَظيمٌ في صدورِ بني آدمَ، وجائِزٌ أن يكونَ أراد به السَّماءَ والأرضَ، وجائِزٌ أن يكونَ أراد به غيرَ ذلك، ولا بيانَ في ذلك أبيَنُ ممَّا بيَّنَ جَلَّ ثناؤه، وهو كُلُّ ما كَبُرَ في صُدورِ بني آدَمَ مِن خَلْقِه؛ لأنَّه لم يَخْصُصْ منه شيئًا دونَ شَيءٍ .

وقال ابن عطية : قال قتادة ومجاهد : بل أحال على فكرتهم عموماً ، ورجحه الطبري، وهذا هو الأصح، لأنه بدأ بشيء صلب، ثم تدرج القول إلى أقوى منه، ثم أحال على فكرهم ، إن شاؤوا في أشد من الحديد، فلا وجه لتخصيص شيء دون شيء .

(**فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا**) أي : من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر شديداً .

– قولهم هذا على وجه الاستبعاد والإنكار .

(**قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**) أي الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً ثم صرتم بشراً تنتشرون ، فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال .

كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

وقال تعالى (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) .

–في هذه الآية ذكر الله تعالى طريقة من طرق إثبات البعث ، أنه سبحانه خلقهم أول مرة .

وقد تنوعت طرق إثبات البعث في القرآن، وجاءت على سبع طرق:

الطريقة الأولى: آيات صريحة في إثبات ذلك:

قال تعالى: (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ) . وقال تعالى: (وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ) . وقال تعالى: (وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ) . وقال تعالى: (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) . وقال تعالى: (أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ. لِيَوْمٍ عَظِيمٍ. يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ).

وأمر نبيه أن يقسم به على المعاد:

فقال تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ).

وقال تعالى: (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ).

وقال تعالى: (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ).

وذم الله المكذبين بالمعاد:

فقال تعالى: (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ).

وقال تعالى: (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً).

الطريقة الثانية: التذكير بنشأة الإنسان الأولى:

قال تعالى: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ. يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ. إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ).

وقال تعالى: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ).

الطريقة الثالثة: الاستدلال بإنبات النبات على إحياء الأموات:

قال تعالى: (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وقال تعالى: (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

وقال سبحانه: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

الطريقة الرابعة: الإشارة ولفت الانتباه إلى خلق السماوات:

قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

الطريقة الخامسة: تنزيه الله سبحانه عن العبث.

فلو فرضنا أنه لا جزاء ولا حساب ولا بعث، فما فائدة الأوامر والنواهي.

قال تعالى: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ).

وقال تعالى: (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً). أي: لا يؤمر ولا ينهى، وقيل لا يبعث.

الطريقة السادسة: تنزيه الله عن الظلم:

فلو لم يكن هناك بعث لا استوى الناس، فاستوى المؤمن الذي ترك كثيراً من الشبهات مخافة ربه، والكافر لا يعرف ربه أصلاً.

قال تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ).

الطريقة السابعة: ذكر وقائع وأحداث يستدل بها على البعث.

كما في قصة قتيل بني إسرائيل.

وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت.

وقصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها.

وقصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة.

وقصة أصحاب الكهف، فقد أماتهم الله في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين، قال تعالى في قصتهم: (وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ ...).

(**فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ**) أي يحركون رؤوسهم مستهزئين متعجبين .

– الإنغاص : هو التحرك من أسفل إلى أعلى أو من أعلى إلى اسفل .

(**وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ**) إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك كما قال تعالى (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) وقال تعالى (يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا) .

(**قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً**) أي احذروا ذلك ، فإنه قريب إليكم سيأتيكم لا محالة ، فكل ما هو آت آت .

– عسى من الله و جبة .

(**يَوْمَ يَدْعُوكُمْ**) يعني : من القبور بالنداء الذي يُسمعكم .

والداعي لهم هو «إسرافيل» عليه السلام عند ما يأذن الله تعالى له بالنفخ في الصور، كما قال تعالى (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ) .

وكما قال سبحانه (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ. خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ. مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ) .

(**فَتَسْتَجِيبُونَ**) أي : تجيبون .

كما قال تعالى (إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ) أي إذا أمركم بالخروج منها فإنه لا يخالف ولا يمانع .

وقال تعالى (فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ) أي إنما هو أمر واحد بانتهار ، فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها .

(**بِحَمْدِهِ**) قيل : بأمره .

ورجحه السمرقندي ، والبغوي ، والخازن .

وقيل : بقدرته .

ورجحه القرطبي .

وقيل : بموضع حال ، أي : حامدين له .

قال سعيد بن جبير : يخرجون من قبورهم وينفضون التراب على رؤوسهم ويقولون : سبحانك وبحمدك .

ورجحه الزمخشري ، والواحدي ، وابن جزي .

قال صاحب الكشاف: وقوله (بِحَمْدِهِ) حال منهم. أي: حامدين، وهي مبالغة في انقيادهم للبعث، كقولك لمن تأمره بركوب ما يشق عليه فيتأبى ويتمنع، ستركبه وأنت حامد شاكر، يعنى: أنك تحمل عليه وتقسر قسرا. حتى أنك تلين لين المسمح– أي الذليل– الراغب فيه، الحامد عليه.

وعن سعيد بن جبير: ينفضون التراب عن رءوسهم ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك .

(**وَتَظُنُّونَ**) أي يوم تقومون من قبوركم .

(**إِن لَّبِثْتُمْ**) أي في الدار الدنيا ، وقيل : في القبور .

والأرجح الأول : لقوله تعالى (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ العادين) .

(**إِلاَّ قَلِيلاً**) أي زمناً قليلاً .

وقد أخبر الله تعالى في آيات أن الكفار يوم القيامة يستصغرون مدة بقائهم في الدنيا .

قال تعالى (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا) .

وقال تعالى (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ) .

وقال تعالى (يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً . يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً . نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً) .

وقال تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) .

وقال تعالى (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ العادين) .

وقال تعالى (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) .

الفوائد :

١. وجوب الإيمان بالبعث والنشور .

٢. أن عدم الإيمان بالبعث كفر .

٣. تعجيز هؤلاء الكفار ، وأن الله قادر على بعثهم مهما كانوا .

٤. أن من أدلة إثبات البعث : التذكير بأنه خلقهم ابتداء .

٥. أن يوم القيامة والبعث قريب .

(وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً (٥٣) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً (٥٥)) .

==========

(**وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**) أي: وقُلْ -يا مُحَمَّدُ- آمِرًا عبادي المؤمِنينَ بأن يَقولَ بَعضُهم لِبَعضٍ في مُحاوراتِهم ومُخاطباتِهم الكَلامَ الأحسَنَ؛ مِن الكَلِماتِ الطَّيِّبةِ اللَّيِّنةِ اللَّطيفةِ، التي هي أحسَنُ مِمَّا سِواها .

قال ابن كثير: يأمر تعالى رسوله – صلى الله عليه وسلم – أن يأمر عباد الله المؤمنين، أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة؛ فإنه إذ لم يفعلوا ذلك، نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإن الشيطان عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، فعداوته ظاهرة بينة؛ ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزغ في يده، أي: فربما أصابه بها.

وقال السعدي: قوله تعالى (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) وهذا أمر بكل كلام يقرب إلى الله من قراءة وذكر وعلم وأمر بمعروف ونهي عن منكر وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين فإنه يأمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما، والقول الحسن داع لكل خلق جميل وعمل صالح فإن من ملك لسانه ملك جميع أمره.

قال ابن عاشور : والمراد بقوله (لعبادي) المؤمنون كما هو المعروف من اصطلاح القرآن في هذا العنوان.

قال تعالى (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) .

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ ﷺ (الكَلِمةُ الطَّيِّبةُ صَدَقةٌ) .

والكلام الحسن :

يكون بهيئته : أن يكون بلطف ولين وعدم غلظة وشدة .

وفي معناه : أن يكون خيراً .

(**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ**) هذا الجملة (إن الشيطان ينزغ بينهم) تعليل للأمر بقول التي هي أحسن.

والمقصود من التعليل أن لا يستخفوا بفاسد الأقوال فإنها تثير مفاسد من عمل الشيطان.

النزغ : الإفساد والإغراء .

أي: قُلْ لهم يَقولوا التي هي أحسَنُ؛ لأنَّ الشَّيطانَ البَعيدَ مِن الرَّحمةِ وكُلِّ خَيرٍ يقومُ بالإفسادِ بينهم، وتَهييجِ العَداواتِ والشُّرورِ، مِن المخاصَمةِ والمقاتَلةِ وغَيرِ ذلك .

عن جابِرٍ ﷺ، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول (إنَّ الشَّيطانَ قد أَيِسَ أن يَعبُدَه المصَلُّونَ في جزيرةِ العَرَبِ، ولكِنْ في التَّحريشِ بينهم).

– فيه التحذير من الكلام الغير الحسن لأن الشيطان يزينه ويوجده حتى تحدث الخصومات والمنازعات .

فالآية دليل على فضل لكلمة الطيبة، وأنها صدقة، وأنها من أسباب النجاة من النار.

فالكلمة الطيبة: أجر كبير وعمل يسير من رب عزيز.

والكلمة الطيبة: هي التي تسر السامع وتؤلف القلب.

هي التي تحدث أثرا طيباً في نفوس الآخرين، هي التي تثمر عملاً صالحاً في كل وقت بإذن الله، هي التي تفتح أبواب الخير، وتغلق أبواب الشر.

فالكلمة الطيبة سبب لصلاح الأحوال وغفران الذنوب.

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا).

وأمر الله بالكلمة الطيبة.

فقال تعالى (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ).

وقال سبحانه (وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن).

وقال سبحانه (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه).

الكلمة الطيبة سبب لرضوان الله.

عن بِلالِ بن الحارِثِ المُزَنِيّ ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قَال (إنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَى مَا كَانَ يَظُنُّ أنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَومِ يَلْقَاه) رواه الترمذي.

والكلمة الطيبة سبب دخول الجنة.

عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا» فَقَامَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى لِلَّهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَام) رواه الترمذي.

وعن المقدام بن شريح عن أبيه عن جده ﷺ قال: قلت يا رسول الله حدثني بشيء يوجب لي الجنة. قال: «موجب الجنة: إطعام الطعام، وإفشاء السلام، وحسن الكلام) . رواه الطبراني

والكلمة الطيبة سبب للنجاة من النار.

لقوله ﷺ (اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَة).

الكلمة الطيبة شعبة من شعب الإيمان.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ» متفق عليه.

الكلمة الطيبة صدقة.

عن أَبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ (كُلُّ سُلامى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ: تَعْدِلُ بيْن الاثْنَيْنِ صَدقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعهُ صَدقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيبةُ صدقَةٌ، وبكُلِّ خَطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلاةِ صَدقَةٌ، وَتُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَة) متفق عليه.

قال ابن بطال: وجه كون الكلمة الطيبة صدقة أن إعطاء المال يفرح به قلب الذي يعطاه ويذهب ما في قلبه وكذلك الكلام الطيب فأشبهها من هذه الحيثية.

والكلمة الطيبة انتصار على الشيطان.

قال تعالى (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِيناً).

(**إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً**) أي ظاهرة العداوة منذ أن امتنع عن السجود لآدم .

ولذلك جاء التحذير من تتبع خطوات الشيطان .

كما قال تعالى (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) .

وقال تعالى (وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) .

وقال تعالى (ومِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ) .

وهو معلل بعلل جاءت في قول الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ).

وفي قوله تعالى (إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى الله مَا لَا تَعْلَمُون).

–من أعمال الشيطان :

أولاً : زرع العداوة والبغضاء بين الناس.

كما قال تعالى (إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ).

وقال تعالى (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ).

وقال تعالى عن يعقوب (قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ).

وقال تعالى (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً).

ثانياً : وهو يخوف المؤمنين بالأعداء.

كما قال تعالى (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) أي: يخوفكم بأوليائه.

ثالثاً : ويخوف بالفقر.

كما قال تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ) فيخوف المسلم من الفقر وذلك لأمور: أولاً: ليُمسك عن الصدقة فيحرمه أجرها وثوابها العظيم، ثانياً: ليصيبه بالقلق والحزن، ثالثاً: ليشك بوعد الله: وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه، رابعاً: ليقدم على أكل الحرام خوفاً من الفقر كما قال تعالى (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين).

رابعاً : ويحث على الرياء في الإنفاق والتبذير.

قال تعالى (والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قريناً).

وكما قال تعالى (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً).

خامساً : الدعوة إلى الكفر والارتداد عن الدين.

كما قال تعالى (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العلمين).

وقال تعالى عن الهدهد (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون).

وقال تعالى (ألم اعهد إليكم يا بني ادم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين).

وقال تعالى (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملي لهم).

سادساً : وهو يحب أن يحزن المؤمن .

كما قال تعالى (إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا) .

وأحب شيء إلى الشيطان: أن يحزن العبد ليقطعه عن سيره ويوقفه عن سلوكه.

(**رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ**) أيها الناس ، أي أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق .

(**إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ**) بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه .

(**أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ**) بالإماتة على الكفر والضلالة .

(**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً**) أي إنما أرسلناك نذيراً ، فمن أطاعك دخل الجنة ، ومن عصاك دخل النار .

قال ابن عاشور : وجملة (وما أرسلناك عليهم وكيلاً) زيادة لبيان أن الهداية والضلال من جعل الله تعالى ، وأن النبي غير مسؤول عن استمرار من استمر في الضلالة ، إزالة للحرج عنه فيما يجده من عدم اهتداء من يدعوهم ، أي ما أرسلناك لتجبرهم على الإيمان وإنما أرسلناك داعياً ... والوكيل على الشيء : هو المسؤول به.

(**وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**) أي بمراتبهم في الطاعة والمعصية .

– وفي الآية رد على المشركين الذين استبعدوا النبوة على رسول الله ﷺ وقالوا : كيف يكون يتيم أبي طالب نبياً ؟

قال ابن عطية : (وربك أعلم بمن في السماوات والأرض) وهو الذي فضل بعض الأنبياء على بعض بحسب علمه فيهم ، فهذه إشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم وإلى استبعاد قريش أن يكون الرسول بشراً ، المعنى : لا تنكروا أمر محمد عليه السلام ، وإن أوتي قرآناً ، فقد فضل النبيون ، وأوتي داود زبوراً ، فالله أعلم حيث يجعل رسالاته .

وقال ابن الجوزي : (وربك أعلم بمن في السموات والأرض) لأنه خالِقُهم ، فهدى من شاء، وأضلَّ من شاء، وكذلك فضَّل بعض النبيين على بعض، وذلك عن حكمة منه وعِلم، فخلق آدم بيده، ورفع إدريس، وجعل الذرّية لنوح، واتخذ ابراهيم خليلاً، وموسى كليماً، وجعل عيسى روحاً، وأعطى سليمان مُلْكاً جسيماً، ورفع محمداً ﷺ فوق السموات، وغفر له ما تقدم من ذَنْبه وما تأخر.

وقال الشوكاني : (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السموات والارض) أعلم بهم ذاتاً وحالاً واستحقاقاً، وهو أعمّ من قوله: (رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ) لأن هذا يشمل كل ما في السموات والأرض من مخلوقاته، وذاك خاص ببني آدم أو ببعضهم، وهذا كالتوطئة لقوله (وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النبيين على بَعْضٍ) أي : إن هذا التفضيل عن علم منه بمن هو أعلى رتبة وبمن دونه، وبمن يستحق مزيد الخصوصية بتكثير فضائله وفواضله .

(**وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ**) أي فضلنا بعض الأنبياء على بعض حسب علمنا وحكمتنا .

كما قال تعالى (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ) .

وقد أجمع العلماء على أن الأنبياء بعضهم أفضل من بعض، وأجمعوا على تفضيل الرسل منهم على الأنبياء، لتميزهم بالرسالة التي هي أفضل من النبوة، وأجمعوا على تفضيل أولي العزم منهم على بقيتهم، وعلى تفضيل نبينا على الجميع.

فإن قيل: ما الجمع بين هذه الآية وبين الأحاديث الواردة في النهي عن التفضيل:

كحديث أبي هريرة. قَالَ (اسْتَبَّ رَجُلَانِ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، قَالَ الْمُسْلِمُ وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّداً عَلَى الْعَالَمِينَ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ. فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ فَلَطَمَ وَجْهَ الْيَهُودِيِّ، فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ الْمُسْلِمِ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْمُسْلِمَ فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَصْعَقُ مَعَهُمْ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي، أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللَّهُ) متفق عليه. وفي رواية (لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ ...).

الجمع من وجوه:

الأول: أن النهي في الحديث محمول على ما إذا كان التفضيل يؤدي إلى توهم النقص في المفضول أو الغض منه، أو كان على وجه الازدراء به.

واختاره الخطابي، والبغوي، وابن تيمية، وابن أبي العز، وحافظ حكمي.

الثاني: أن النهي محمول على ما إذا كان التفضيل يؤدي إلى المجادلة والمخاصمة والتشاجر والتنازع.

ويؤيد هذا القول سبب ورود الحديث كما تقدم في حديث أبي هريرة.

الثالث: أن النهي محمول على ما إذا كان التفضيل بمجرد الرأي والهوى، لا بمقتضى الدليل.

الرابع: أن نهيه ﷺ على سبيل التواضع منه ﷺ .

الخامس: أن النهي الوارد في الأحاديث كان قبل نزول الآيات، وقبل أن يعلم النبي ﷺ أنه سيد ولد آدم» .

(**وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً**) أي وأنزلنا على داود الزبور المشتمل على الحكمة وغيرها .

وفي هذا تنبيه على فضل داود .

قال الزجاج : أي فلا تنكروا تفضيل محمد وإعطاءه القرآن فقد أعطى الله داود زبوراً.

قال القرطبي : (وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً) الزبور : كتاب ليس فيه حلال ولا حرام ، ولا فرائض ولا حدود ؛ وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد ، أي كما آتينا داود الزبور فلا تنكروا أن يؤتى محمد القرآن ، وهو في مُحاجّة اليهود.

الفوائد :

١. الأمر بالكلام الطيب الحسن .

٢. خطر اللسان .

٣. تأديب عظيم في مراقبة اللسان .

٤. الحذر من الكلام السيء .

٥. خطورة الشيطان في زرع الفتن والفساد بين الناس بالكلام السيء .

٦. عداوة الشيطان للإنسان .

٧. حكمة الله العظيمة في هداية بعض الناس دون بعض .

٨. عموم علم الله بكل شيء ، ويتفرع على هذا : علم الله بمن يستحق النبوة وبمن لا يستحقها .

٩. بيان أنه لا هداية بيد أحد إلا الله .

١٠. بيان أن الرسل وأتباعهم ليس عليهم هداية الناس وإنما التبليغ والبيان .

(قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)) .

[الإسراء : ٥٦-٥٧] .

==========

(**قُلِ**) يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله .

(**ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ**) من الأصنام والأنداد فارغبوا إليهم .

(**فَ**) إنهم .

(**لاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ**) أي إزالة المكروه عنهم بالكلية .

واكتفى- سبحانه- بذكر كشف الضر، لأنه هو الذي تتطلع إليه النفوس عند نزول المصائب، أكثر من تطلعها إلى جلب النفع، إذ عند نزول الضر، لا تشتغل الألسنة والقلوب إلا برجاء كشفه.

قال ابن عطية : الذين أمر رسول الله ﷺ أن يقول لهم في هذه الآية ، ليسوا عبدة الأصنام ، وإنما هم عبدة من يعقل .

قيل : إن قوماً عبدوا الملائكة فنزلت هذه الآية فيهم ، **وقيل** : إنها نزلت في الذين عبدوا المسيح وعزيراً ، **وقيل** : إن قوماً عبدوا نفراً من الجن فأسلم النفر من الجن ، وبقي أولئك الناس متمسكين بعبادتهم فنزلت هذه الآية .

(**وَلاَ تَحْوِيلاً**) أي بأن يحولوه إلى غيركم ، والمعنى أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر .

وهذا المعنى جاء في آيات كثيرة .

كما قال تعالى (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ) .

وقال تعالى (قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ) .

فقوله (ولا تحويلاً) أي : تحويل الضر من شخص إلى آخر . واختاره : ابنُ جرير، وابنُ كثيرٍ.

وقيل : أي تحويلُ حالِ الشخصِ إلى حالٍ أُخرَى، كتحويلِ المرضِ إلى الصحَّةِ، والفقرِ إلى الغنَى .

قال القرطبي : (وَلاَ تَحْوِيلاً) من الفقر إلى الغنى ومن السَّقَم إلى الصحة.

وممن جمَع بينَ المعنيينِ السابقينِ: ابنُ تيميةَ، والشنقيطي.

قال ابنُ تيميَّةَ : بَيَّنَ أنَّهم لا يَملِكونَ كَشْفَ الضُّرِّ عن الدَّاعِينَ ولا تَحويلَه؛ لا يَرفَعونَه بالكُلِّيَّةِ، ولا يُحَوِّلونَه مِن مَوضعٍ إلى موضعٍ، أو مِن حالٍ إلى حالٍ، كتَغييرِ صِفتِه أو قَدْرِه؛ ولهذا قال: وَلَا تَحْوِيلًا فذُكِرَ نَكِرةً تَعُمُّ أنواعَ التَّحويلِ .

وقال الشنقيطي: وَلَا تَحْوِيلًا، أي: تحويلَه من إنسانٍ إلى آخرَ، أو تحويلَ المرضِ إلى الصحَّةِ، والفَقرِ إلى الغنى، والقحطِ إلى الجدبِ، ونحو ذلك .

(**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ**) من الأنبياء والصالحين والملائكة .

(**يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ**) يتقربون إلى الله بالعمل الصالح ، والوسيلة : هو التقرب إلى الله بالعمل الصالح.

والمعنى : أولئك الذين يَزعُمُ المشرِكونَ أنَّهم آلِهةٌ مِن دُونِ اللهِ، مِن المَلائِكةِ والأنبياءِ، والصَّالحينَ مِن الإنسِ والجِنِّ، هم أنفُسُهم يَطلُبُونَ التقَرُّبَ إلى اللهِ بطاعَتِه مِن الواجِباتِ والمستَحَبَّاتِ، ويَدْعونَه ويَستَعيذونَ به وَحْدَه؛ فلماذا يَعبُدُهم المشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ ؟!

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ ﷺ، أنَّه قال في قَولِه عزَّ وجلَّ (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ قال: (كان نَفَرٌ مِنَ الجنِّ أسلَمُوا، وكانوا يُعبَدونَ، فبَقِيَ الذين كانوا يَعْبُدونَ على عِبادتِهم، وقد أسلَمَ النَّفَرُ مِن الجِنِّ) .

(**أَيُّهُمْ أَقْرَبُ**) أي يتنافسون في القرب من ربهم ، ويبذلون ما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة المقربة إلى الله تعالى .

قال البقاعي : أي يتسابقون بالأعمال مسابقة من يطلب كل منهم أن يكون إليه أقرب ولديه أفضل .

(**وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ**) ليدخلهم في جنته .

وفي هذا فضل الرجاء :

قال تعالى (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً) .

وقال تعالى (أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وقال ﷺ (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه) .

وفي الصحيح عنه: (يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء) .

وقد مدح الله تعالى أهله وأثنى عليهم :

فقال تعالى (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رسول الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً) .

وفي الحديث الصحيح الإلهي عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل: (يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (يقول الله عز وجل: "أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم وإن اقترب إلي شبرا اقتربت إليه ذراعا وإن اقترب إلي ذراعا اقتربت إليه باعا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة) رواه مسلم .

وقد أخبر تعالى عن خواص عباده الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقربون بهم إلى الله تعالى: أنهم كانوا راجين له خائفين منه .

فقال تعالى (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً) .

يقول تعالى: هؤلاء الذين تدعونهم من دوني: هم عبادي يتقربون إلي بطاعتي ويرجون رحمتي ويخافون عذابي فلماذا تدعونهم من دوني فأثنى عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم: من الحب والخوف والرجاء .

والرجاء حاد يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب وهو الله والدار الآخرة ويطيب لها السير .

وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه . وقيل: هو الثقة بجود الرب تعالى .

والفرق بينه وبين التمني أن التمني يكون مع الكسل ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد، والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل .

قال شاه الكرماني: علامة صحة الرجاء: حسن الطاعة .

(**وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ**) ليتجنبوا المناهي .

قال ابن كثير : لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء ، فبالخوف ينكف عن المناهي ، وبالرجاء يكثر من الطاعات .

قال في التفسير الوسيط : وقوله تعالى (وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذابَهُ) زيادة بيان لشدة حرص هؤلاء المعبودين على طاعة الله تعالى، أي: وهم فوق ذلك يرجون رحمة الله تعالى وفضله، بأن يحشرهم مع الأبرار، ويخشون عذابه ونقمته، ويتضرعون إليه أن يجنبهم عذاب النار، وبالرجاء والخشية يحيا الصالحون الأخيار، إذ الرجاء يدفع المؤمن إلى الإكثار من العمل الصالح، والخشية تمنعه من الوقوع في المعاصي.

(**إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً**) أي ينبغي أن يحذر منه ويخاف من وقوعه وحصوله .

الفوائد :

١. أنه لا يكشف الضر ويزيل الغم إلا الله .
٢. من لا يقدر على كشف الضر لا يستحق أن يكون إلهاً .
٣. عظمة الله .
٤. حمد الله على كماله وعظمته .
٥. أن كل أحد يبتغي القربى عند الله بطاعته .
٦. فضل الرجاء .
٧. فضل الخوف من الله .
٨. وجوب الحذر من عقاب الله بطاعته واجتناب نواهيه .

(وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِك فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨)) .
[الإسراء : ٥٨] .

==========

(وَإِن مَّن قَرْيَةٍ) أي : ظالمة .

ففي هذه الآية الكريمة حذف الصفة ، أي : وإن من قرية ظالمة إلا نحن مهلكوها.

وهذا النعت المحذوف دلت عليه آيات من كتاب الله تعالى.

كقوله (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القرى حتى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي القرى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ) .

وقوله (ذلك أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ) . أي بل لا بد أن تنذرهم الرسل فيكفروا بهم وبربهم.

وقوله (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) .

وقوله (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً) إلى غير ذلك من الآيات.

وغاية ما في هذا القول حذف النعت مع وجود أدلة تدل عليه. ونظيره في القرآن قوله تعالى (وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً) أي كل سفينة صالحة . (أضواء) .

وممن اختار أنَّ المرادَ بالقرَى هنا : القُرى الكافرةُ الظالمةُ : الخازن، وابنُ كثير، والبقاعي، وأبو السعودِ، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي.

قال ابن كثير : هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُ قَدْ حتَمَ وَقَضَى بِمَا قَدْ كَتَبَهُ عِنْدَهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ: أَنَّهُ مَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا سَيُهْلِكُهَا، بِأَنْ يُبِيدَ أَهْلَهَا جَمِيعَهُمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ (عَذَابًا شَدِيدًا) إِمَّا بِقَتْلٍ أَوِ ابْتِلَاءٍ بِمَا يَشَاءُ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ وَخَطَايَاهُمْ، كَمَا قَالَ عَنِ الْأُمَمِ الْمَاضِينَ (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) وَقَالَ تَعَالَى (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا) . (ابن كثير) .

وقال أبو السعود : والمرادُ بالقرية القريةُ الكافرةُ أي ما من قرية من قرى الكفار .

وقال ابن عاشور : فالمراد : القرى الكافرُ أهلُها ... لقوله تعالى (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) وقوله (وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) وحذف الصفة في مثل هذا معروف كقوله تعالى (يأخذ كل سفينة غصباً) أي كل سفينة صالحة ، بقرينة قوله (فأردت أن أعيبها) . (ابن عاشور)

وقال بعض أهل العلم : الآية عامة. فالقرية الصالحة إهلاكها بالموت ، والقرية الطالحة إهلاكها بالعذاب. ولا شك أن كل نفس ذائقة الموت .

وممن اختار أنَّ المرادَ عمومُ القرى : ابن جرير، والزجاج، والسمعاني، وابن عطية، والرازي، والرسعني، والبيضاوي، وأبو حيان، والثعالبي، والألوسي .

قال الآلوسي (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ ...) الظاهر العموم، لأن إِنْ نافية، ومِنْ زائدة لاستغراق الجنس. أي: وما من قرية من القرى إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ الْقِيامَةِ بإماتة أهلها حتف أنوفهم أَوْ مُعَذِّبُوها عَذاباً شَدِيداً بالقتل وأنواع البلاء.. وروى عن مقاتل أنه قال: الهلاك للصالحة والعذاب للطالحة .

(كَانَ ذَلِك) الإهلاك والتعذيب .

(**فِي الْكِتَابِ**) اللوح المحفوظ .

(**مَسْطُورًا**) أي : مكتوباً وثابتاً .

الفوائد :

١. إخبار بهلاك القرى إذا ظلمت وكفرت ، وقد أخبر الله أن هلاك القرى والأمم بسبب ذنوبهم وكفرهم.

قال تعالى (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ).

وقال تعالى (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً).

وقال تعالى (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا).

وقال تعالى (وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ).

وقال تعالى (وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ).

٢. عظمة الله ، وأنه لا يعجزه شيء سبحانه .

٣. أن أكثر القرى أهلكها الله لأنها كفرت وطغت .

٤. وجوب الحذر من الكفار والطغيان لأنه سبب الهلاك .

٥. أن زوال النعم عن القرى بسبب ذنوبها .

(وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا (٥٩)) .

[الإسراء : ٥٩] .

==========

(**وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ**) أي: وما منَعَنا أن نأتيَ بالآياتِ التي يقترِحُها كُفَّارُ قَومِك -يا مُحَمَّدُ- إلَّا تكذيبُ الأوَّلينَ بها بعدَ أن سألوها، فكَذَّبوا فعَجَّلْنا بهلاكِهم، فإذا كذَّبَ بها قَومُك -يا محمَّدُ- استحَقُّوا ما استحَقَّه أولئك مِن الهلاكِ والعذابِ؛ فليس لهم مَصلحةٌ في الإرسالِ بها، بل حِكمتُه سُبحانَه تأبى ذلك .

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال (سأل أهلُ مكَّةَ النبيَّ ﷺ أن يَجعلَ لهم الصَّفا ذهبًا، وأن يُنَحِّيَ الجبالَ عنهم فيَزدَرِعوا، فقيل له: إنْ شِئتَ أن تَستأنِيَ بهم، وإن شِئتَ أن تُؤتيَهم الذي سألوا، فإن كفَروا أُهلِكوا كما أهلكْتُ مَن قبلَهم، قال: لا، بل أستأني بهم، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ هـــذه الآيةَ: وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً). رواه أحمد

قال البقاعي : (بالآيات) أي التي اقترحتها قريش ، فكان كأنه لا آيات عندهم سواها .

قال الرازي : في المعنى : وجوه :

الوجه الأول : المعنى أنه تعالى لو أظهر تلك المعجزات القاهرة ثم لم يؤمنوا بها بل بقوا مصرين على كفرهم فحينئذ يصيرون مستحقين لعذاب الاستئصال ، لكن إنزال عذاب الاستئصال على هذه الأمة غير جائز ، لأن الله تعالى أعلم أن فيهم من سيؤمن أو يؤمن أولادهم ، فلهذا السبب ما أجابهم الله تعالى إلى مطلوبهم وما أظهر تلك المعجزات القاهرة.

الوجه الثاني : في تفسير هذا الجواب أنا لا نظهر هذه المعجزات لأن آباءكم الذين رأوها لم يؤمنوا بها وأنتم مقلدون لهم ، فلو رأيتموها أنتم لم تؤمنوا بها أيضاً.

الوجه الثالث : أن الأولين شاهدوا هذه المعجزات وكذبوا بها ، فعلم الله منكم أيضاً أنكم لو شاهدتموها لكذبتم فكان إظهارها عبثاً ، والعبث لا يفعله الحكيم.

وقال ابن عاشور : هذا بيان لحكمة أخرى في ترك إرسال الآيات إلى قريش ، تشير إلى أن الله تعالى أراد الإبقاء عليهم ليدخل منهم في الإسلام كثير ويكون نشر الإسلام على يد كثير منهم.

وتلك مكرمة للنبي ﷺ فلو أرسل الله لهم الآيات كما سألوا مع أن جبلتهم العناد لأصروا على الكفر فحقت عليهم سنّة الله التي قد خلت في عباده وهي الاستئصال عقب إظهار الآيات، لأن إظهار الآيات تخويف من العذاب والله أراد الإبقاء على هذه الأمة قال (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) الآية ، فعوضنا تخويفهم بدلاً عن إرسال الآيات التي اقترحوها. (ابن عاشور)

(**وَآتَيْنَا ثَمُودَ**) وهم قوم صالح .

كما قال تعالى (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا) نبياً يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد، وينهاهم عن الشرك والتنديد.

قال الرازي : المعنى أن الآية التي التمسوها هي مثل آية ثمود ، وقد آتيناها ثمود واضحة بينة ثم كفروا بها فاستحقوا عذاب الاستئصال فكيف يتمناها هؤلاء على سبيل الاقتراح والتحكم على الله تعالى.

قال الشوكاني : وإنما خصّ قوم صالح بالاستشهاد ، لأن آثار إهلاكهم في بلاد العرب قريبة من قريش وأمثالهم يبصرها صادرهم وارده .

(**النَّاقَةَ**) آية .

كما قال تعالى (قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ) أي: خارق من خوارق العادات، التي لا تكون إلا آية سماوية لا يقدر الناس عليها.

– ثم فسرها تعالى بقوله (هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) أي: هذه ناقة شريفة فاضلة لإضافتها إلى الله تعالى إضافة تشريف، لكم فيها آية عظيمة. وقد ذكر وجه الآية في قوله (لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ) .

وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية.

قال تعالى عنهم أنهم قالوا (فأتنا بآية إن كنت من الصادقين).

وفي سورة الشعراء (فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

(**مُبْصِرَةً**) أي : أن هذه الآية مبصرة: أي بينة تجعلهم يبصرون الحق واضحاً لا لبس فيه، دالة على وحدانية من خلقها وصدق رسوله الذي أجيب دعاؤه فيها.

قال ابن عطية : وهذا عبارة عن بيان أمرها ، ووضوح إعجازها .

وقال القرطبي : (مُبْصِرَةً) أي آية دالة مضيئة نَيّرة على صدق صالح ، وعلى قدرة الله تعالى.

وقال ابن عاشور : فالمعنى أنها مفيدة البصيرة ، أي اليقين ، أي تجعل من رآها ذا بصيرة وتفيدهُ أنها آية.

ومنه قوله تعالى : (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين) .

وخص بالذكر ثمود وآيتها لشهرة أمرهم بين العرب، ولأن آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبَة من أهل مكة يبصرها صادرهم وواردهم في رحلاتهم بين مكة والشام.

(**فَظَلَمُواْ بِهَا**) أي :كفروا بها وعقروها فأبادهم الله عن آخرهم وانتقم منهم.

كما قال تعالى (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ).

وقال تعالى (فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ).

وقال تعالى (فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) .

قال البقاعي : وخص آية ثمود بالذكر تحذيراً بسبب أنهم عرب اقترحوا ما كان سبباً لاستئصالهم ، ولأن لهم من علمها وعلم مساكنهم بقربها إليهم وكونها في بلادهم ما ليس لهم من علم غيرها ، وخص الناقة لأنها حيوان أخرجه من حجر .

(**وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا**) أي : وما نرسل بالآيات الكونية ، كالزلازل ، والرعد ، والخسوف والكسوف ، إلا تخويفا للعباد من المعاصي ، قال قتادة : إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات ، لعلهم يعتبرون ويرجعون

قال ابن عطية : وهي آيات معها إمهال لا معاجلة ، فمن ذلك الكسوف والرعد والزلزلة وقوس قزح وغير ذلك ، قال الحسن والموت الذريع ، وروي أن الكوفة رجفت في مدة عبد الله بن مسعود. فقال : أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فاعتبوه ، ومن هذا قول النبي ﷺ في الكسوف : " فافزعوا إلى الصلاة " الحديث .

قال الشوكاني : اختلف في تفسير (بالآيات) على وجوه :

الأوّل : أن المراد بها العبر والمعجزات التي جعلها الله على أيدي الرسل من دلائل الإنذار تخويفاً للمكذبين .

الثاني : أنها آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي .

الثالث : تقلب الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى تكهل ثم إلى شيب ، ليعتبر الإنسان بتقلب أحواله فيخاف عاقبة أمره .

الرابع : آيات القرآن .

الخامس : الموت الذريع .

والمناسب للمقام أن تفسر الآيات المذكورة بالآيات المقترحة ، أي : لا نرسل الآيات المقترحة إلا تخويفاً من نزول العذاب ، فإن لم يخافوا وقع عليهم. (فتح القدير) .

الفوائد :

١-رحمة الله بعباده حيث لم يرسل الآيات التي اقترحوها لعلمه عدم إيمانهم بها .

٢-دَليلٌ على تشريفِ هذه الأمَّةِ، وتفضيلِ رسولِها على سائرِ الرُّسُلِ ﷺ ؛ وذلك أنَّه جلَّ جلالُه كان مِن حُكْمِه في الأممِ السالفةِ أنْ نَزَّلَ العذابَ بكلِّ مَن كَفَر بآياتِه، فصرفَه عن هذه الأُمَّةِ بتركِ إرسالِ الآياتِ الموجِبةِ للعذابِ على مَن كَفَر بها .

٣-حلم الله على عباده .

٤-كثرة من كذب بالآيات من الأمم السابقة .

٥-شدة تكذيب قوم ثمود لنبيهم مع وضوح الآية التي جاءتهم .

٦-أن آيات الأنبياء كلها واضحة بينة .

٧-حكمة الله في إرسال الآيات وهي تخويف العباد ليتوبوا ويؤمنوا .

(وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠)) .

[الإسراء : ٥٩-٦٠] .

==========

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) أي: وإذْ قُلْنا لك - يا محمَّدُ: إنَّ رَبَّك مُحيطٌ بالنَّاسِ بقُدرتِه وعِلمِه؛ فهم في قَبضتِه، وتحتَ مَشيئتِه، واللهُ يعصِمُك منهم حتى تبَلِّغَ رِسالتَه؛ فلا تَخشَ منهم أحدًا، وامضِ لِما أمَرْناك به مِن تبليغِ رِسالتِنا .

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) .

قال الشنقيطي : بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه أخبر نبيه ﷺ أنه أحاط بالناس. أي فهم في قبضته يفعل فيهم كيف يشاء فيسلط نبيه عليهم ويحفظه منهم.

قال بعض أهل العلم : والآيات التي فصلت بعض التفصيل في هذه الإحاطة ، قوله تعالى (سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر) وقوله (قُلْ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ) الآية، وقوله (والله يَعْصِمُكَ مِنَ الناس) .

(وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ) أي: وما جعَلْنا رُؤيا عَينيك -يا محمَّدُ- التي أريناكَ ليلةَ الإسراءِ والمعراجِ مِن الغَرائبِ والعَجائِبِ إلَّا اختِبارًا وبلاءً للنَّاسِ؛ ليتبيَّنَ مَن يُصَدِّقُك ومَن يُكَذِّبُك .

كما قال تعالى (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) .

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما في قَولِه تعالى: وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ قال: (هي رُؤيا عينٍ، أُرِيَها رَسولُ الله ﷺ ليلةَ أُسرِيَ به إلى بيتِ المقدِسِ) .

وهذا قول جمهور المفسرين .

وهو الأصح وهو قول أكثر المفسرين أن المراد بها ما أراه الله تعالى ليلة الإسراء ، واختلفوا في معنى هذه الرؤيا فقال الأكثرون : لا فرق بين الرؤية والرؤيا في اللغة ، يقال رأيت بعيني رؤية ورؤيا ، وقال الأقلون : هذا يدل على أن قصة الإسراء إنما حصلت في المنام ، وهذا القول ضعيف باطل على ما قررناه في أول هذه السورة .

(إلا فتنة) أي : اختباراً وابتلاء .

قال الرازي : معناه أنه عليه الصلاة والسلام لما ذكر لهم قصة الإسراء كذبوه وكفر به كثير ممن كان آمن به وازداد المخلصون إيماناً فلهذا السبب كان امتحاناً.

وقال الماوردي : وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم أنه أُسريَ به.

(وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ) أي: وما جعَلْنا الشَّجَرةَ الملعونةَ في القُرآنِ -وهي شَجرةُ الزقُّومِ النابتةُ في الجَحيمِ- إلَّا فِتنةً للنَّاسِ أيضًا؛ ليتبيَّنَ مَن يُصَدِّقُ بها، ومَن يكَذِّبُ ويَستهزِئُ بها؛ إذ قال المشرِكون: يخبِرُنا مُحَمَّدٌ أنَّ في النَّارِ شَجرةً نابتةً، والنَّارُ تأكُلُ الشَّجَرَ، فكيف تَنبُتُ فيها ؟!

كما قال تعالى (أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ) .

وقال سُبحانَه (إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ) .

وقال عزَّ وجلَّ (ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ * هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ) .

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ قال: (هي شَجرةُ الزقُّومِ) .

قال الرازي : واختلفوا في هذه الشجرة ، فالأكثرون قالوا : إنها شجرة الزقوم المذكورة في القرآن في قوله (إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم * طَعَامُ الأثيم) وكانت هذه الفتنة في ذكر هذه الشجرة من وجهين :

الأول : أن أبا جهل قال : زعم صاحبكم بأن نار جهنم تحرق الحجر حيث قال (وَقُودُهَا الناس والحجارة) ثم يقول : بأن في النار شجراً والنار تأكل الشجر فكيف تولد فيها الشجر.

والثاني : قال ابن الزبعري ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد فتزقموا منه ، فأنزل الله تعالى حين عجبوا أن يكون في النار شجر (إِنَّا جعلناها فِتْنَةً للظالمين) الآيات.

قال الماوردي : وكانت فتنتهم بها قول أبي جهل وأشياعه : النار تأكل الشجر فكيف تنبتها.

قال ابن عطية : (والشجرة) هنا في قول الجمهور هي شجرة الزقوم ، وذلك أن أمرها لما نزل في سورة الصافات قال أبو جهل وغيره هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة ، ثم يزعم أنها تنبت الشجر ، والنار تأكل الشجر .

قال القرطبي : (والشجرة الملعونة فِي القرآن) هي شجرة الزَّقُّوم.

وبقول ابن عباس قالت عائشة ومعاوية والحسن ومجاهد وقَتادة وسعيد بن جُبير والضحاك وابن أبي نَجيح وابن زيد.

وكانت الفتنة ارتدادَ قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه أُسْرِيَ به.

وقيل : كانت رؤيا نوم.

وهذه الآية تقضي بفساده ، وذلك أن رؤيا المنام لا فتنة فيها ، وما كان أحد لينكرها. (القرطبي) .

وقال الشوكاني (والشجرة الملعونة فِي القرءان) عطف على الرؤيا ، قيل : وفي الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلاّ فتنة للناس.

قال جمهور المفسرين : وهي شجرة الزقوم ، والمراد بلعنها لعن آكلها كما قال سبحانه (إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم طَعَامُ الأثيم) .

وقال الزجاج : إن العرب تقول : لكل طعام مكروه : ملعون ، ومعنى الفتنة فيها : أن أبا جهل وغيره قالوا : زعم صاحبكم أن نار جهنم تحرق الحجر ، ثم يقول : ينبت فيها الشجر ، فأنزل الله هذه الآية.

قال البقاعي: (الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ) بكونِها ضارَّةً، والعرَبُ تسَمِّي كُلَّ ضارٍّ مَلعونًا، وبكونِها في دارِ اللَّعنةِ، وكُلُّ مَن له عَقلٌ يريدُ بُعْدَها عنه .

وقال ابن عاشور: والملعونة، أي: المذمومة في القرآنِ، في قَولِه (طَعَامُ الْأَثِيمِ) ، وقَولِه (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ) ، وقولِه (كَالْمُهْلِ تَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ) ، وقيل: معنى الملعونة: أنَّها موضوعةٌ في مكانِ اللعنةِ، وهي الإبعادُ مِن الرحمة؛ لأنَّها مخلوقةٌ في موضعِ العذابِ. وفي «الكشاف»: قيل: تقولُ العرَبُ لكُلِّ طعامٍ ضارٍّ: ملعونٌ). (تفسير ابن عاشور) .

قال ابن الجوزي : وللعلماء في معنى "الملعونة" ثلاثة اقوال.

أحدها : المذمومة ، قاله ابن عباس.

والثاني : الملعون آكلُها ، ذكره الزجاج ، وقال : إن لم يكن في القرآن ذِكْر لعنها ، ففيه لعن آكليها ، قال : والعرب تقول لكل طعام مكروه وضارٍّ : ملعون ؛ فأما قوله (في القرآن) فالمعنى : التي ذكرت في القرآن ، وهي مذكورة في قوله (إن شجرة الزَّقُّوم طعام الأثيم) .

والثالث : أن معنى "الملعونة" : المبعَدة عن منازل أهل الفضل ، ذكره ابن الانباري.

وقال الشنقيطي : وإنما وصف الشجرة باللعن لأنها في أصل النار، وأصل النار بعيد من رحمة الله. واللعن : الإبعاد عن رحمة الله، أو لخبث صفاته التي وصفت بها في القرآن، أو للعن الذين يطعمونها.

(**وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا**) أي: ونُخوِّفُ المشركين بما نتوعَّدُهم به مِن العَذابِ، فما يَزيدُهم تخويفُنا لهم إلَّا تماديًا في الكُفرِ والضَّلالِ !

كما قال تعالى (وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا) .

الفوائد :

١. تسلية الله لنبيه ﷺ حيث أعلمه أنه محيط بالكفار وعليم بهم .

٢. دفاع عن نبيه ﷺ .

٣. أن الناس عند الفتن ينقسمون إلى قسمين .

٤. حكمة الله في اختبار الناس .

٥. شدة عناد الكفار حيث يخوفهم الله ولا يزدادون إلا طغياناً وبعداً .

٦. المؤمن يجب عليه أن يسلّم لأمر الله .

٧. والمؤمن تزيده الفتن ثباتاً وإيماناً .

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١)) .

[الإسراء : ٦١] .

==========

(**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ** ...) هذا كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته، حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم.

وقال الآلوسي: وحكمة الأمر بالسجود إظهار الاعتراف بفضله عليه السلام.

(**فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ**) أي سجدوا جميعاً غير إبليس.

(**قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا**) رفض وأبى واستكبر كما قال تعالى (فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِ) .

وقال تعالى عنه (قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ) .

فائدة : ١

قوله تعالى (**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ**) اختلف العلماء ما المراد بالملائكة:

فقيل: ملائكة الأرض فقط.

وقيل: ملائكة الأرض والسماء.

ونسبه الرازي للأكثر.

ورجحه ابن كثير، لقوله تعالى (فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ).

قال القاسمي: اختلفوا في الملائكة الذين أمروا بالسجود، فقيل: هم الذين كانوا مع إبليس في الأرض.

قال تقي الدين ابن تيمية: هذا القول ليس من أقوال المسلمين واليهود والنصارى، وقيل: هم جميع الملائكة حتى جبريل وميكائيل، وهذا قول العامة من أهل العلم بالكتاب والسنة. (تفسير القاسمي).

وقال ابن تيمية: ومن قال خلافه فقد رد القرآن بالكذب والبهتان، لأنه سبحانه قال (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) وهذا تأكيد للعموم. ... (مجموع الفتاوي).

فائدة : ٢

– قوله تعالى (**اسْجُدُوا لِآدَمَ** ..) اختلف ما المراد بالسجود:

فقيل: المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء.

قال الرازي مضعفاً هذا القول: ... فضعيف أيضاً؛ لأن السجود لا شك أنه في عرف الشرع عبارة عن وضع الجبهة على الأرض فوجب أن يكون في أصل اللغة كذلك؛ لأن الأصل عدم التغيير.

وقيل: كان قبلة والسجدة لله.

وقيل: السجود لآدم إكراماً واحتراماً، وهي طاعة لله لأنها امتثال لأمر الله تعالى.

وهذا القول هو الراجح .

فهذا السجود تعظيم لله لأنه امتثال أمره لا عبادة آدم، ولا سجود إلا بأمر الله، والأمر إن كان ممتثلاً به أمر الله فالمطاع فيه الله، ونظيره أن ملَك الموت يقال له: اقبض روح محمد ﷺ وسائر الأنبياء، فأي جريمة في الدنيا أعظم من قتل النبي ﷺ ونزع روحه، وقتل الأنبياء والأولياء؟ لكن ملك الموت مأمور من الله، فهو مطيع في ذلك الفعل، لأنه إنما فعله بأمر الله.

فائدة : ٣

هذا الأمر بالسجود كان قبل خلق آدم كما قال تعالى في الحجر (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ).

قال الشنقيطي: قوله تعالى (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسجدوا لآدَمَ) لم يبين هنا هل قال لهم ذلك قبل خلق آدم أَو بعد خلقه؟ وقد صرح في سورة الحجر وص؛ بأنه قال لهم ذلك قبل خلق آدم، فقال في الحجر (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)، وقال في سورة ص (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ).

فائدة : ٤

إبليس سمي بذلك لأنه أبلَسَ من رحمة الله: أي أيس منها يأساً لا رجاء بعده.

فائدة : ٥

قوله تعالى (**فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا**) وفي البقرة (فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ...) لم يبين سبب رفض واستكبار إبليس عن السجود لكنه بينه تعالى في آيات أخرى كقوله تعالى (قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ أنا خير).

وهذا قياس فاسد لأمور:

أولاً: أنه في مقابلة النص، وأي قياس في مقابلة النص فاسد الاعتبار.

ثانياً: أنا لا نسلم أن النار خير من الطين، بل الطين خير من النار، لأن طبيعتها الطيش والإفساد والتفريق، وطبيعته الرزانة والإصلاح.

ثالثاً: أنا لو سلمنا تسليماً جدلياً أن النار خير من الطين، فإنه لا يلزم من ذلك أن إبليس خير من آدم، لأن شرف الأصل لا يقتضي شرف الفرع.

فائدة : ٦

قوله تعالى: (فسجدوا إلا إبليس) استدل بها بعض العلماء على أن إبليس من الملائكة، وهذه المسألة اختلف فيها العلماء على قولين:

القول الأول: أن إبليس ليس من الملائكة بل هو من الجن.

أ-للآية التي في سورة الكهف (إلا إبليس كان من الجن) والجن غير الملائكة، وهذا نص قرآني صريح في محل النزاع.

ب- ولأن الملائكة معصومين من ارتكاب الكفر الذي ارتكبه إبليس كما قال تعالى عنهم (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ).

ج- ولقوله ﷺ (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار) رواه مسلم.

د- أن إبليس له نسل وذرية قال الله تعالى (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو).

وقالوا إن استثناء الله إياه منهم لا يدل على كونه من جملتهم، وإنما استثناه منهم، لأنه كان مأموراً بالسجود معهم، فلما دخل معهم في الأمر جاز إخراجه بالاستثناء منهم.

القول الثاني: أنه أصله كان من الملائكة.

ونسب هذا القول القرطبي لجمهور العلماء.

قال القاسمي: قاله ابن عباس، وابن مسعود، وسعيد بن المسيب، واختاره الشيخ موفق الدين، والشيخ أبو الحسن الأشعري، وأئمة المالكية، وابن جرير الطبري. قال البغوي: هذا قول أكثر المفسرين.

لأنه سبحانه أمر الملائكة بالسجود لآدم. قال تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ) فلولا أنه من الملائكة، لما توجه الأمر إليه بالسجود، ولو لم يتوجه الأمر إليه بالسجود لم يكن عاصياً، ولما استحق الخزي والنكال.

وقالوا: فإخراجه بالاستثناء منهم دليل على أنه منهم.

فائدة : ٧

قال الماوردي: وعلى قول من يقول: إن إبليس كان من الملائكة، فاختلفوا في قوله تعالى (إِلاَّ إِبْلِيسَ كان مِنَ الْجِنِّ) لِمَ سماه الله تعالى بهذا الاسم، على أربعة أقاويل:

أحدها: أنهم حي من الملائكة يُسَمَّوْن جنّاً كانوا من أشدِّ الملائكة اجتهاداً، وهذا قول ابن عباس.

والثاني: أنه جعل من الجنّ، لأنه من خُزَّانِ الجنَّةِ، فاشتق اسمه منها، وهذا قول ابن مسعود.

والثالث: أنه سمي بذلك لأنه جُنَّ عن طاعة ربِّه، وهذا قول ابن زيدٍ.

والرابع: أن الجِنّ لكلِّ ما اجْتَنَّ فلم يظهر، حتى إنهم سَمَّوُا الملائكة جناً لاستتارهم، وهذا قول أبي إسحاق.

فائدة : ٨

بيان فضل آدم على الملائكة، حيث أن الله أمر الملائكة أن يسجدوا له تعظيماً له، ولآدم فضائل:

أنه أبو البشر – خلقه الله بيده – علمه الله أسماء كل شيء – أن الله نفخ فيه من روحه – وأسجد له الملائكة.

فائدة : ٩

أن السجود لغير الله إذا كان بأمر الله فهو عبادة، لأن الله تعالى يحكم بما شاء، ويدل على أن المحرم إذا كان بأمر الله كان عبادة قصة إبراهيم – عليه السلام –، حين أمره الله أن يذبح ابنه إسماعيل فامتثل أمر الله.

فائدة : ١٠

أن ترك السجود لله كفر بالله.

فائدة : ١١

أن الأمر يقتضي الوجوب إذا لم يوجد قرينة، وجه الدلالة: أن الله قال للملائكة (اسجدوا) فلما امتنع إبليس وبّخه وحكم عليه بالعصيان وقال (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ). ومما يدل على أن الأمر للوجوب قوله تعالى (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

فائدة : ١٢

الحذر من الرجس والسريرة الخبيثة، لأن إبليس غلبه ما في قلبه من الرجس والسريرة الخبيثة حتى استكبر وأبى.

فائدة : ١٣

طاعة الملائكة لربها.

(قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً (٦٥)).

[الإسراء : ٦٢-٦٥] .

==========

(**قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ**) أي : قال إبليس اللعين جراءة على الرب وكفراً به : آرأيتَ هذا المخلوق الذي فضلته على ، وجعلتَه أكرَم مني عندك ؟

(**لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**) أي : لئن أنظرتني وأبقيتني حيا إلى يوم القيامة .

كما قال تعالى عنه (قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) .

(**لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً**) أي : لأستأصلن ذريته بالإغواء والإضلال ، قال الطبري : اقسم عدوّ الله فقال لربه : لئن أخرتَ إهلاكي إلى يوم القيامة ، لأستأصلنهم ولأستميلنهم وأضلنهم إلا قليلاً منهم .

كما قال تعالى عنه (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)

وقال تعالى (وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ) .

وقال سُبحانَه (قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) .

وقال تعالى (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) .

قوله (**إلا قليلاً**) بين المراد بالقليل وهم المخلصون كما قال تعالى (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) .

(**قَالَ اذْهَبْ**) أي : ابذل جهدك فقد أنظرتك وأخرتك .

فليست من الذهاب التي هي نقيض المجيء ، وإنما معناه : امض لشأنك الذي اخترته .

جاء في (**التفسير الوسيط**) الأمر في قوله اذْهَبْ للإهانة والتحقير. أي: قال الله- تعالى- لإبليس اذْهَبْ مطرودا ملعونا، وقد أخرناك إلى يوم القيامة، فافعل ما بدا لك مع بنى آدم، فمن أطاعك منهم، فإن جهنم جزاؤك وجزاؤهم، جزاء مكملا متمما لا نقص فيه.

قال ابن جزي: اذْهَبْ قال ابنُ عطيةَ: وما بعدَه مِن الأوامرِ: صيغةُ أمرٍ على وجهِ التهديدِ، وقال الزمخشري: ليس المرادُ الذهابَ الذي هو ضدُّ المجيءِ، وإنَّما معناه: امضِ لشأنِك الذي اخترتَه خذلانًا له وتخليةً، ويحتملُ عندي أن يكونَ معناه للطردِ والإبعادِ .

وقال الواحدي: قولُه تعالى: (قَالَ اذْهَبْ) أي قال اللهُ تعالى لإبليسَ: اذهبْ، وهذا اللَّفظُ يتضَمَّنُ معنى إنظارِه، وتأخيرِ أجَلِه .

(**فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ**) على أعمالكم .

(**جَزَاء مَّوْفُورًا**) أي :كاملاً موفوراً عليكم لا ينقص لكم منه .

كما قال تعالى (قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِين) .

وقال تعالى (فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ . وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ) .

جاء في (التفسير الوسيط) قال الجمل: أمر الله- تعالى- إبليس بأوامر خمسة، القصد بها: التهديد والاستدراج، لا التكليف، لأنها كلها معاص، والله لا يأمر بها .

وهذه الأوامر الخمسة هي: اذهب، واستفزز ... وأجلب ... وشاركهم ... وعدهم.

(**وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ**) **أي:** قال اللهُ تعالى لإبليسَ آمِرًا له على سَبيلِ التَّهديدِ بعاقِبتِه الوَخيمةِ **:** واستَخِفَّ وأزعِجْ -يا إبليسُ- مَن استطَعْتَ أن تَستخِفَّه مِن بني آدَمَ بدُعائِك لهم إلى مَعصيةِ اللهِ .

فالمراد بصوتك :كُلّ داعٍ دعا إلى معصيةِ الله، .

وهذا هو الصواب .

قال ابن عطية : وهو الصواب لأنه يعم جميع ذلك .

واختاره : الزجاج ، والسمرقندي ، والبغوي ، وابن عطية ، والرازي ، والقرطبي ، والشوكاني ، والسعدي .

قال ابن تيمية: استفزازُه إيَّاهم بصوتِه يكونُ بالغناء -كما قال من قال من السلف- وبغيرِه من الأصواتِ، كالنياحة وغيرِ ذلك؛ فإن هذه الأصواتَ كُلَّها توجِبُ انزعاجَ القلبِ والنَّفسِ الخبيثةِ إلى ذلك، وتوجِبُ حركَتَها السريعةَ واضطرابَها، حتى يبقى الشيطانُ يلعب بهؤلاء أعظَمَ مِن لَعبِ الصبيان بالكرةِ! .

وقال ابنُ جرير : وأولى الأقوالِ في ذلك بالصِّحَّةِ أن يُقالَ: إنَّ الله تبارك وتعالى قال لإبليسَ: واستفزِزْ مِن ذريَّةِ آدَمَ مَن استطَعْتَ أن تستَفِزَّه بصَوتِك، ولم يَخْصُصْ من ذلك صوتًا دونَ صَوتٍ؛ فكلُّ صوتٍ كان دعاءً إليه وإلى عملِه وطاعتِه، وخلافًا للدعاءِ إلى طاعةِ الله، فهو داخلٌ في معنَى صوتِه .

وقال ابن القيم : وصوتُ الشيطانِ كُلُّ صوتٍ في غيرِ طاعةِ الله، نُسِبَ إلى الشيطانِ لأمرِه به ورضاه به، وإلَّا فليس هو الصوتَ نَفسَه .

وقال ابن تيمية : وصوتُ الشيطان ما يُحِبُّه ويأمرُ به وإن كان قائمًا بإنسانٍ أو جمادٍ كأصواتِ الملاهي وغيرها .

وقيل : بصوتك الغناء والمزامير .

وقيل : الوسوسة .

(**وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ**) أي: واجمَعْ -يا إبليسُ- على بني آدَمَ جُنودَك -الركبانَ منهم والمشاةَ- الذين يَدعُونَهم إلى مَعصيةِ اللهِ، فيَحمِلوا عليهم بكُلِّ ما يَقدِرونَ عليه مِن وَسائِلِ الفِتنةِ والكَيدِ لإضلالِهم .

كما قال تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) .

وعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ ﷺ (إنَّ إبليسَ يَضَعُ عَرشَه على الماءِ، ثمَّ يَبعَثُ سَراياه، فأدْناهم منه مَنزِلةً أعظَمُهم فِتنةً، يجيءُ أحَدُهم فيَقولُ: فعَلْتُ كذا وكذا، فيقولُ: ما صنعْتَ شَيئًا! قال: ثم يجيءُ أحَدُهم فيقولُ: ما تَرَكْتُه حتى فَرَّقتُ بينَه وبينَ امرأتِه، قال: فيُدنيه منه، ويَقولُ: نِعْمَ أنتَ) .

قال الطبري : المعنى اجمع عليهم من ركبان جندك ومشاتهم ، من يصيح عليهم بالدعاة إلى طاعتك ، والصرفِ عن طاعتي ، قال ابن عباس : خيله ورَجِله كل راكب وماش في معصية الله تعالى .

وهذا القول هو الراجح : أن كل راكب أو راجل في معصية الله فهو من خيل إبليس وجنوده .

ورجح هذا القول : الزجاج ، والواحدي ، والبغوي ، والقرطبي ، والسعدي .

وقيل : المراد ضرب المثل .

ورجح هذا القول : الزمخشري ، وابن عطية ، والرازي .

قال الزمخشري : الكلام وارد مورد التمثيل ، مُثلَت حالُه في تسلطه على من يُغويه بفارس مغوار ، أوقع على قومٍ فصوت بهم صوتا يستفزهم عن أماكنهم ، ويُقلقهم عن مراكزهم ، وأجلبَ عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم .

(**وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ**) مشاركته في الأموال تشمل :

منها : ما حرموا على أنفسهم من أموالهم طاعة له ، كالبحائر والسوائب ونحو ذلك .

ومنها : ما يأمرهم من إنفاق الأموال في معصية الله .

ومنها : ما يأمرهم به من اكتساب الأموال بالطرق المحرمة شرعاً كالربا والغصب وغيرها .

قال ابنُ جرير : أولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ قَولُ مَن قال: عنى بذلك كلَّ مالٍ عُصِيَ اللهُ فيه؛ بإنفاقٍ في حرامٍ، أو اكتِسابٍ مِن حرامٍ، أو ذَبْحٍ للآلهةِ، أو تَسْيِيبٍ، أو بَحْرٍ للشَّيطانِ، وغيرِ ذلك ممَّا كان مَعصِيًّا به أو فيه؛ وذلك أنَّ اللهَ قال: وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ؛ فكلُّ ما أُطيعَ الشَّيطانُ فيه مِن مالٍ وعُصِيَ اللهُ فيه، فقد شارك فاعِلُ ذلك فيه إبليسَ، فلا وجهَ لخُصوصِ بَعضِ ذلك دُونَ بَعض .

وقال الرازي : أما المشاركة في الأموال فهي عبارة عن كل تصرف قبيح في المال سواء كان ذلك القبيح بسبب أخذه من غير حقه أو وضعه في غير حقه ويدخل فيه الربا والغصب والسرقة والمعاملات الفاسدة ، وهكذا قاله القاضي وهو ضبط حسن .

قال ابن عطية : (وشاركهم في الأموال) عام : لكل معصية يصنعها الناس بالمال ، فإن ذلك المصرف في المعصية ، هو حظ إبليس ، فمن ذلك البحائر وشبهها ، ومن ذلك مهر البغي ، وثمن الخمر ، وحلوان الكاهن ، والربا ، وغير ذلك مما يوجد في الناس دأباً.

وقال السعدي: ذلك شامِلٌ لكُلِّ مَعصيةٍ تعَلَّقَت بأموالِهم وأولادِهم؛ مِن مَنْعِ الزَّكاةِ، والكفَّاراتِ، والحُقوقِ الواجبةِ، وعَدَمِ تأديبِ الأولادِ وتَربيتِهم على الخَيرِ، وتَرْكِ الشَّرِّ، وأخذِ الأموالِ بغَيرِ حَقِّها أو وَضْعِها بغَيرِ حَقِّها، أو استعمالِ المكاسِبِ الرَّدِيَّةِ، بل ذَكَر كثيرٌ مِن المفَسِّرينَ أنَّه يدخُلُ في مُشاركةِ الشَّيطانِ في الأموالِ والأولادِ تَركُ التَّسميةِ عند الطَّعامِ والشَّرابِ والجِماعِ، وأنَّه إذا لم يُسَمِّ اللهَ في ذلك شارك فيه الشَّيطانُ كما ورد فيه الحَديثُ .

(**وَالأَوْلادِ**) وأما مشاركتهم بالأولاد تشمل :

منها : قتلهم بعض أولادهم طاعة له .

ومنها : أنهم يمجسون أولادهم ويهودونهم وينصرونهم طاعة له وموالاة .

ومنها : تسميتهم أولادهم عبد الحارث وعبد شمس وعبد العزى وغير ذلك ، لأنهم بذلك سموا أولادهم عبيد لغير الله طاعة له .

فكل تصرف في الولد يؤدي إلى ارتكاب منكر وقبيح ، أي : كل ما عصي الله فيه أو به .

ورجح هذا القول : الطبري ، وابن عطية ، وابن كثير ، والشوكاني .

(**وَعِدْهُمْ**) وهذا الأمرُ للشَّيطانِ تَهَدُّدٌ ووَعيدٌ له. وقيل: استِخفافٌ به وبمن اتَّبَعَه . (تفسير القرطبي)

(**وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا**) أي: وعِدْهم -يا إبليسُ- بالوُعودِ الكاذِبةِ، وما يَعِدُهم الشَّيطانُ البَعيدُ عن الرَّحمةِ وكُلِّ خيرٍ إلَّا أمانيَّ باطلةً في الحَقيقةِ .

كما قال تعالى (يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا) .

وقال سُبحانَه (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

كالوعد بشفاعة الأصنام ، والوعد بالغِنى من المال الحرام ، والوعد بالعفو والمغفرة ، وسعَة رحمة الله ، والوعد باللذة والسرور في ارتكاب الموبقات ، وإيثار العاجل على الآجل .

(**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**) إخباره بتأييده تعالى عباده المؤمنين وحفظه إياهم وحراسته لهم من الشيطان الرجيم .

- المراد بعباده هنا المخلصين كما قال تعالى (إلا عبادك المخلصين) .

(**وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً**) أي حافظاً ومؤيداً ونصيراً .

الفوائد :

١. حكمة الله تعالى في وجود إبليس وإمهاله وإنظاره إلى يوم الوقت المعلوم .

٢. خطر الاستكبار .

٣. خطر إبليس وجنوده .

٤. على المسلم أن يعرف مصايد الشيطان ليتجنبها .

٥. وقوع كثير من الناس في مصيدة الشيطان .

٦. أن من اتبع إبليس وكفر بالله فمصيره جهنم .

٧. الشيطان يدعوا إلى معصية .

٨. مزمار الشيطان الغناء وكل صوت محرّم .

٩. صَوتُ الشَّيطانِ كُلُّ صَوتٍ في غيرِ طاعة الله .

١٠. غواية الشيطان لكثير من الناس بأكل المال من غير حله ووضعه في غير حله .

١١. كُلُّ راكبٍ في مَعصيةِ اللهِ فهو خَيَّالةُ الشَّيطانِ، وكُلُّ ماشٍ في معصيةِ اللهِ فمِن رَجَّالتِه، وكلُّ مالٍ أُخِذ من غيرِ حِلِّه وأُخرِجَ في غيرِ حَقِّه، فهو شَريكُ صاحِبِه فيه، وكُلُّ ولدٍ مِن نطفةِ زِنًا، فهو شريكُ أبيه فيه .

١٢. تحريم تعبيد الأولاد لغير الله .

١٣. الحذر من وعد الشيطان وتصديقه .

١٤. من أسباب النجاة من الشيطان الإخلاص لله تعالى .

١٥. أن المعصوم من عصمه الله . فلا حَولَ عن مَعصيةِ اللهِ إلَّا بعِصمةِ اللهِ، ولا قُوَّةَ على طاعةِ اللهِ إلَّا بتَوفيقِ اللهِ .

(رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦)) .

[الإسراء : ٦٦] .

==========

(رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ) أي ربكم أيها الناس هو الذي يسير لكم السفن في البحر لتطلبوا من رزقه في أسفاركم وتجاراتكم .

قال البقاعي : هو (الذي يزجي) أي يسوق ويدفع وينفذ .

(إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً) أي إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم .

كما قال تعالى (اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ) .

وقال تعالى (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون) .

الفوائد :

١. تذكير العباد بنعم الله عليهم .

٢. من نعم الله تسهيل سير السفن في البحر لطلب الرزق .

٣. جواز ركوب البحر .

٤. جواز التجارة والسفر من أجلها .

٥. من رحمة الله أن سهل الطرق للتجارة والتنقل .

(وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا (٦٧)) .

[الإسراء : ٦٧] .

==========

(وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ) فخفتهم من الهلام بسبب الريح أو الغرق .

– قال : وإذا مسكم الضر ، ولم يقل : وإذا أمسكم الضر لسببين :

أولاً : يعلمنا الله التأدب في الخطاب معه ، فلا ننسب الشر إليه .

ثانياً : يعلمنا الله التبرؤ من الشر وأن نبتعد بأنفسنا عن مواطن الأذى .

قال البقاعي : وإذا (مسكم) ولم يقل : أمسكم – بالإسناد إلى نفسه ، تأديباً لنا في مخاطبته بنسبة الخير دون الشر إليه ، مع اعتقاده أن الكل فعله ، وتنبيهاً على أن الشر مما ينبغي التبرؤ منه والبعد عنه .

(ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ) أي : ضل وذهب عن قلوبهم ما كانوا يدعون من دون الله في حال الرخاء من الأحياء والأموات ، فكأنهم لم يكونوا يدعونهم في وقت من الأوقات لعلمهم أنهم ضعفاء .

والمراد أن الإنسان في تلك الحالة لا يتضرع إلى الصنم والشمس والقمر والملك والفلك ، وإنما يتضرع إلى الله تعالى .

قال البقاعي : (إلا إياه) وحده ، فأخلصتم له الدعاء علماً منكم أنه لا ينجيكم سواه .

(فَلَمَّا نَجَّاكُمْ) من الغرق وأوصلكم :

(إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ) أي نسيتم ما عرفتم من توحيده في البحر وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له .

(وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً) أي سجيته هذا ، ينسى النعم ويجحدها إلا من عصم الله .

وجاء هذا مبيناً في آيات أخر :

كما قال تعالى (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) .

وقال تعالى (قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ) .

وقال تعالى (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) .

وقال تعالى (وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ) .

وقال تعالى (وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كالظلل دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَآ إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ) .

قال ابن عاشور : ... ومن أجل ذلك كان من آداب النفس في الشريعة تذكيرها بنعم الله ، قال تعالى (وذكرهم بأيام الله) ليقوم ذكر النعمة مقام معاهدتها.

تنبيه :

قال تعالى في سورة الإنعام (قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ).

قال الرازي: ولفظ الآية يدل على أن عند حصول هذه الشدائد يأتي الإنسان بأمور:

أحدها: الدعاء.

وثانيها: التضرع.

وثالثها: الإخلاص بالقلب ، وهو المراد من قوله: (وَخُفْيَةً).

تنبيه :

في هذا فضل التوحيد والإخلاص.

قال ابن القيم: التوحيد مفزع أعدائه وأوليائه ، فأما أعداؤه فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) وأما أولياؤه فينجيهم به من كربات الدنيا والآخرة وشدائدها ، ولذلك فزع إليه يونس فنجاه الله من تلك الظلمات ، وفزع إليه أتباع الرسل فنجوا به مما عذب به المشركون في الدنيا وما أعد لهم في الآخرة ، ولما فزع إليه فرعون عند معاينة الهلاك وإدراك الغرق له لم ينفعه ، لأن الإيمان عند المعاينة لا يقبل هذه سنة الله في عباده ، فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد ، ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد ، ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه بالتوحيد ، فلا يلقى في الكرب العظام إلا الشرك ، ولا ينجى منها إلا التوحيـــــد ، فهـــو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها. (الفوائد)

تنبيه :

سبب أن الله يستجيب الدعاء عند الشدة : لأن الإنسان ينقطع تعلقه بالمخلوق ، فلا يبقى في قلبه إلا الله.

ولذلك في الحديث (واعلم أن الفرج مع الكرب) .

الفوائد :

١. أنه لا ينجي من الكرب والشدة إلا الله .
٢. أن الإله الذي يستحق العبادة هو من يُلجأ إليه في الرخاء والشدة .
٣. فضل الإخلاص والتوحيد وأنه سبب للنجاة من الشدائد .
٤. بطلان عبادة كل آلهة غير الله .
٥. وجوب الالتجاء إلى الله عند الشدائد .
٦. طغيان الكفار حيث يرجعون إلى الله وقت الشدة ثم إذا أنجاهم كفروا وتركوا دعاء الله .
هكذا المشرك يرجع إلى الله ويخلص وقت الضراء ، ثم وقت الرخاء يشرك ويرجع .
٧. أن الكفار يعلمون أنه لا ينجي إلا الله ، ولذلك يدعونه في وقت الضراء.
٨. أن من أسباب إجابة الدعاء التضرع والإخلاص .

(**أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨) أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩)**) .

[الإسراء : ٦٨ -٦٩] .

==========

أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً) يقول تعالى : أفحسبتم بخروجكم إلى البر أمنتم من انتقامه وعذابه أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً وهو المطر الذي فيه حجارة .

قال ابن عاشور : والخسف انقلاب ظاهر الأرض في باطنها من الزلزال.

قال القرطبي : بيّن أنه قادر على هلاكهم في البر وإنْ سَلِموا من البحر.

والخَسْف : أن تنهار الأرض بالشيء ، يقال : بئر خسيف إذا انهدم أصلها.

وعين خاسف أي غارت حدقتها في الرأس.

وعَيْنٌ من الماء خاسفة أي غار ماؤها.

وخَسَفت الشمس أي غابت عن الأرض.

وجانب البر : ناحية الأرض ؛ وسماه جانباً لأنه يصير بعد الخسف جانباً.

وأيضاً فإن البحر جانب والبَرَّ جانب.

وقيل : إنهم كانوا على ساحل البحر ، وساحله جانب البر ، وكانوا فيه آمنين من أهوال البحر ، فحذّرهم ما أمنوه من البر كما حذرهم ما خافوه من البحر. (القرطبي) .

(**ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً**) أي ناصراً يرد ذلك عنكم وينقذكم منه .

قال أبو السعود : (**وكيلاً**) يحفظكم من ذلك أو يصرِفه عنكم فإنه لا رادَّ لأمره الغالب.

(**أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى**) يقول تعالى : أم أمنتم أيها المعرضون عنا بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر وخرجوا إلى البر، أن يعيدكم في البحر مرة ثانية .

(**فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم**) أي يرسل عليكم ريحاً تقصف الصواري وتغرق المراكب ، والقاصف هو : ريح البحار الشديدة التي تكسر المراكب .

قال الرازي : (فَنُرسل علَيْكُمْ قَاصِفًا) من الريح القاصف الكاسر يقال : قصف الشيء يقصفه قصفاً إذا كسره بشدة ، والقاصف من الريح التي تكسر الشجر ، وأراد ههنا ريحاً شديدة تقصف الفلك وتغرقهم .

وقال القرطبي : القاصف الريح الشديدة التي تَكْسر بشدة ؛ من قَصَف الشيءَ يَقْصِفه ؛ أي كسره بشدة.

والقصف : الكسر ؛ يقال : قصفت الريح السفينة.

وريح قاصف : شديدة.

ورعد قاصف : شديد الصوْت. (القرطبي) .

(**بِمَا كَفَرْتُمْ**) أي بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى .

(**ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً**) قيل ناصراً ، وقيل : نصيراً ثائراً أي يأخذ بثأركم بعدكم .

قال أبو السعود : (ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً) أي ثائراً يطالبنا بما فعلنا انتصاراً منا وذَرْكاً للثأر من جهتنا كقوله سبحانه : (وَلاَ يَخَافُ عقباها) .

الفوائد :

١. أن الله قادر على كل شيء .
٢. أن قادر على أن يهلك سواء في البر أو البحر .
٣. أن هلاك الله للأمم الكافرة متنوع ، مرة بالخسف ، ومرة بالغرق وهلم جرا .
٤. لا راد لقضاء الله .
٥. لا أحد يستطيع أن يمنع عذاب الله إذا جاء .
٦. من جنود الله الريح يرسلها عذاباً للقوم الكافرين .
٧. حكمة الله في تنوع عقوبات الأمم .
٨. أن عذاب الله ينزل بسبب الكفر .
٩. أن الله لا يظلم أحداً لعدله وإنما بسبب كفرهم .

(لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠)) .
[الإسراء : ٧٠] .

==========

(**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**) يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات، كما قال تعالى (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) أن يمي قائما منتصباً على رجليه ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بفمه، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً يفقه بذلك كله وينتفع به، ويفرق بين الأشياء ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية.

ومن ذلك : تَمييزُهم بالعَقلِ، وتَسخيرُ المخلوقاتِ لهم .

قال الشوكاني: هذه الكرامةُ يدخُلُ تحتَها خلْقُهم على هذه الهيئة الحَسَنةِ، وتخصيصُهم بما خصَّهم به من المطاعم والمشارب والملابس على وجهٍ لا يوجَدُ لسائر أنواع الحيوان مثلُه. وحكى ابنُ جرير عن جماعةٍ أنَّ هذا التكريمَ هو أنَّهم يأكُلون بأيديهم، وسائرُ الحيوانات تأكُلُ بالفم، وكذا حكاه النحَّاس. وقيل: ميَّزَهم بالنُّطقِ والعقل والتمييز. وقيل: أكرمَ الرجالَ باللِّحى والنساءَ بالذوائبِ. وقال ابن جرير: أكرمهم بتسليطِهم على سائر الخَلقِ وتسخيرِ سائرِ الخلقِ لهم. وقيل: بالكلامِ والخطِّ والفهم. ولا مانِعَ من حملِ التكريم المذكورِ في الآية على جميعِ هذه الأشياء، وأعظَمُ خصال التكريمِ العَقلُ؛ فإنَّ به تسلطوا على سائر الحيوانات، ومَيَّزوا بين الحَسَن والقبيح، وتوسَّعوا في المطاعم والمشارب، وكَسَبوا الأموالَ التي تسبَّبوا بها إلى تحصيلِ أمور لا يقدِرُ عليها الحيوان، وبه قَدَروا على تحصيل الأبنية التي تمنَعُهم مما يخافون، وعلى تحصيل الأكسية التي تَقيهم الحرَّ والبردَ . (فتح القدير)

وقال الألوسي: ... وقيل ، والكُلُّ في الحَقيقةِ على سَبيلِ التَّمثيلِ، ومَن ادَّعى الحَصرَ في واحدٍ، كابنِ عطيَّةَ، حيث قال: إنَّما التكريمُ بالعَقلِ لا غيرُ- فقد ادَّعى غَلطًا ورام شَطَطًا، وخالف صريحَ العَقلِ، وصَحيحَ النَّقلِ . (تفسير الألوسي) .

وقال ابن عاشور: التكريمُ: جعْلُه كريمًا، أي نفيسًا غير مبذولٍ ولا ذليلٍ في صورتِه ولا في حركةِ مَشيِه وفي بشَرتِه؛ فإنَّ جميعَ الحيوان لا يعرِفُ النظافةَ ولا اللباسَ ولا ترفيهَ المضجَعِ والمأكَلِ، ولا حُسنَ كيفية تناوُلِ الطعام والشراب، ولا الاستعدادَ لِما ينفَعُه ودفْعَ ما يضرُّه، ولا شعورَه بما في ذاتِه وعقلِه مِن المحاسِنِ فيستزيدُ منها، والقبائحِ فيستُرُها ويدفَعُها . (تفسير ابن عاشور)

(**وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ**) أي على الدواب من الأنعام والخيل والبغال .

(**وَالْبَحْرِ**) أي على السفن الكبار والصغار .

كما قال تعالى (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ) .

وقال سُبحانَه (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ) .

(**وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ**) أي من زروع وثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهاة اللذيذة ، والمناظر الحسنة ، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها .

قال الشوكاني: وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَيْ: لَذيذِ المطاعِمِ والمشارِبِ وسائرِ ما يستلذُّونَه وينتفِعونَ به .

(**وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**) أي من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات .

الفوائد :

١. نعمة الله على بني آدم بتكريمه على سائر المخلوقات .

٢. من أعظم ما كرّم به الإنسان العقل والنطق والعلم .

٣. وجوب شكر هذه النعمة .

من هذه النعم خلق الأنعام ليركبوها في تنقلاتهم .

وأيضاً خلق السفن الصغيرة والكبيرة لتحملهم في البحار .

(يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧١) وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢)) .

[الإسراء : ٧١-٧٢] .

===============

(**يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ**) أي : واذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ- يوم ندعو كل أناس من بنى آدم الذين كرمناهم وفضلناهم على كثير من خلقنا، بكتاب أعمالهم الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

وقد اختلف العلماء ما المراد [بإمامهم] :

فقيل : أي بنبيهم .

وَيَدُلُّ لِهَذَا الْقَوْلِ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) .

وَقَوْلُهُ (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا) .

وَقَوْلُهُ (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ) .

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : وَفِي هَذَا أَكْبَرُ شَرَفٍ لِأَصْحَابِ الْحَدِيثِ ; لِأَنَّ إِمَامَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ .

وقيل : بكتاب أعمالهم .

وَيَدُلُّ لِهَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) .

وَقَوْلُهُ تعالى (وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) .

وَقَوْلُهُ (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ) .

وَقَوْلُهُ تعالى (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا) .

وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ ابْنُ كَثِيرٍ ; لِدَلَالَةِ آيَةِ «يس» الْمَذْكُورَةِ عَلَيْهِ . وَهَذَا الْقَوْلُ رِوَايَةٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ذَكَرَهَا ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ ، وَعَزَاهُ ابْنُ كَثِيرٍ لِابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَالضَّحَّاكِ وَالْحَسَنِ ، وَعَنْ قَتَادَةَ وَمُجَاهِدٍ : أَنَّ الْمُرَادَ بِإِمَامِهِمْ نَبِيُّهُمْ .

ومما يدل عليه : قوله بعدها (فمن أوتي كتابه بيمينه ...) .

وقيل : (يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ) أَيْ : نَدْعُو كُلَّ قَوْمٍ بِمَنْ يَأْتَمُّونَ بِهِ ، فَأَهْلُ الْإِيمَانِ أَئِمَّتُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ ، وَأَهْلُ الْكُفْرِ أَئِمَّتُهُمْ سَادَتُهُمْ وَكُبَرَاؤُهُمْ مِنْ رُؤَسَاءِ الْكَفَرَةِ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ) .

قال القاسمي : وما رجحه ابن كثير هو الصواب ؛ لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، وأول ما ينبغي الاهتمام به في معاني الآيات ، هو الرجوع إلى نظائرها .

-ثم بين- سبحانه- حسن عاقبة الذين أخلصوا دينهم لله :

(**فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ**) أي : فمن أوتى من بنى آدم يوم القيامة، كتابه بيمينه، بأن ثقلت موازين حسناته على سيئاته، فأولئك السعداء يقرءون كتابهم بسرور وابتهاج، ولا ينقصون من أجورهم قدر فتيل، وهو الخيط المستطيل في شق النواة، وبه يضرب المثل في الشيء القليل

وجاء في آية أخرى أن من أعطي كتابه بيمينه سيقول من فرحه (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ . إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ . قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ . كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ) .

وجاء أيضاً في آية أخرى : بيان أن من أعطي كتابه بيمينه سوف يحاسب حساباً يسيراً .

قال تعالى (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ . فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً . وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً) .

(**وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً**) أي لا ينقصون من أجور أعمالهم شيئاً ولو كان بمقدار الفتيل .

- الفتيل : الخيط الذي في شق النواة .

كما قال تعالى (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ...) .

وقال تعالى (وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فلا يخاف ظلماً ولا هضماً) .

وقال تعالى (ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً) .

(**وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ**) أي في هذه الحياة الدنيا .

(**أعمى**) قال النَّيسابوري: لا خِلافَ أنَّ المرادَ بهذا العَمى: عَمى القَلبِ .

أي : أعمَى القلبِ عن حُجج الله وآياتِه وبيناتِه.

قال ابن جرير : الصوابِ قولُ من قال: معنى ذلك: ومَن كان في هذه الدنيا أعمى عن حجَجِ الله على أنَّه المنفرِدُ بخَلقِها وتدبيرِها، وتصريفِ ما فيها.

قيل: أعمَى القلبِ عن الهدَى، ضالٌّ عن الحقِّ، لا يبصرُ رشدَه.

وممن قال بنحو ذلك: البيضاوي، وابن جزي، وابن القيم، والسعدي، وابن عاشور.

(**فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى**) أي كذلك يكون .

فهو أعمَى القلبِ يومَ القيامةِ، حيرانُ يائسٌ مِن الخيرِ؛ لأنَّه قد باشَر الخيبةَ، ورأى مخايلَ العذابِ.

قال ابن عطية : والظاهر عندي أن الإشارة ب { هذه } إلى الدنيا ، أي من كان في دنياه هذه ووقت إدراكه وفهمه أعمى عن النظر في آيات الله ، فهو في يوم القيامة أشد حيرة وأعمى ، لأنه قد باشر الخيبة ، ورأى مخايل العذاب .

ويحتمل أن يراد بالعمى هنا عمى البصر أيضاً .

قال الشنقيطي : قال بعضُ أهل العلم: ليست الصيغةُ صيغةَ تفضيل، بل المعنى: فهو في الآخرةِ أعمى كذلك، لا يهتدي إلى نفعٍ؛ وبهذا جزم الزمخشري.

قال مقيِّده عفا الله عنه: الذي يتبادَرُ إلى الذهن أنَّ لفظة أَعْمَى الثانية صيغةُ تفضيل؛ أي هو أشدُّ عمًى في الآخرة. ويدُلُّ عليه قوله بعده: وَأَضَلُّ سَبِيلًا؛ فإنها صيغةُ تفضيل بلا نزاعٍ .

وقد اختُلِف في هذا العمى في الآخرة على قولين :

القول الأول : هو عمى البصيرةِ .

بدليل إخباره تعالى عن رؤية الكفَّارِ ما في القيامة ورؤيةِ الملائكةِ ورؤيةِ النار.

القول الثاني : أن يحمل العمى الثاني على عمى العين والبصر فمن كان في هذه الدنيا أعمى القلب حشر يوم القيامة أعمى العين والبصر .

كما قال (ونحشرهُ يَوْمَ القيامة أعمى قَالَ رَبّ لِمَ حَشَرْتَنِي أعمى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً قَالَ كذلك أَتَتْكَ آياتنا فَنَسِيتَهَا وكذلك اليوم تنسى) .

وقال (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمّا) وهذا العمى زيادة في عقوبتهم .

ورجِّحَ هذا بأن الإطلاقَ ينصرِفُ إليه، وبقَولِه (قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا) وهذا عمى العينِ؛ فإن الكافِرَ لم يكن بصيرًا بحجَّتِه.

وأجاب هؤلاء عن رؤية الكفَّارِ في القيامة بأنَّ الله يخرِجُهم من قبورِهم إلى موقف القيامة بُصَراءَ ويُحشَرونَ مِن الموقِفِ إلى النار عُميًا، قاله الفرَّاء وغيره .

(**وَأَضَلُّ سَبِيلاً**) أي وأضل منه كما كان في الدنيا عياذاً بالله من ذلك ، أي هو أشد عمى في الآخرة .

وجْهُ كونِ ضَلالِه في الآخرةِ أشدَّ: أنَّ ضلالَه في الدُّنيا كان في مُكْنَتِه أنْ ينجُوَ منه بطلَبِ ما يُرشِدُه إلى السَّبيلِ الموصِلِ من هَدْيِ الرَّسولِ والقُرآنِ، مع كونِه خليًّا عن لَحاقِ الألمِ به، وأمَّا ضَلالُه في الآخرةِ فهو ضلالٌ لا خَلاصَ منه، وهو مُقارِنٌ للعذابِ الدَّائمِ؛ فلا جرَمَ كان ضلالُه في الآخرةِ أدخَلَ في حقيقةِ الضَّلالِ وماهيَّتِه .

الفوائد :

١. وفي هذه الآية دليل على أن كل أمة تدعى إلى دينها وكتابها، هل عملت به أم لا؟

٢. وأنهم لا يؤاخذون بشرع نبي لم يؤمروا باتباعه .

٣. وأن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه ومخالفته لها.

٤. وأن أهل الخير، يعطون كتبهم بأيمانهم، ويحصل لهم من الفرح والسرور شيء عظيم، وأن أهل الشر بعكس ذلك، لأنهم لا يقدرون على قراءة كتبهم، من شدة غمهم وحزنهم وثبورهم. (ذكر هذه الفوائد السعدي) .

(وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً (٧٧)) .

[الإسراء : ٧٣-٧٧] .

==========

(**وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ**) أي يصرفوك .

(**عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ**) من القرآن .

(**لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ**) أي لتأتي بغير ما أوحاه الله إليك وتخالف تعاليمه .

(**وَإِذاً**) أي : لو فعلت ما يهوونه .

(**لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً**) أي حبيباً صفياً ، أعز عليهم من أحبابهم ، لما جبلك الله عليه من مكارم الأخلاق ، ومحاسن الآداب ، المحببة للقريب والبعيد ، والصديق والعدو .

لأنهم في الحقيقة لم يعادوك لذاتك ، وإنما لما جئت به ، كما قال تعالى (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) .

(**وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ**) أي : لولا أن ثبتناك على الحق بعصمتنا إياك .

(**لَقَدْ كِدتَّ**) أي قربت

(**تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً**) أي تميل إليهم وتسايرهم على ما طلبوا .

– قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ معصوماً ، ولكن هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الله تعالى وشرائعه .

(**إِذاً**) لو ركنت إليهم بما يهوونه .

(**لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ**) لضاعفنا لك عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، لأن الذنب من العظيم جرم كبير يستحق مضاعفة العذاب .

كما قال تعالى (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين) .

وهذه الآية تدل على أنه إذا كانت الدرجة أعلى كان الجزاء عند المخالفة أعظم .

كما قال تعالى (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ) .

قال القاسمي (إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ) أي : ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات ، يريد عذاب الدنيا وعذاب الآخرة . و(الضعف) عبارة عن أن يضم إلى الشيء مثله ، ودل على إضمار العذاب وصف العذاب بالضعف في كثير من الآيات ، كقوله تعالى (رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ) وقال (لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ) .

والسبب في تضعيف العذاب؛ أن أقسام نعم الله على الأنبياء أكثر. فكانت ذنوبهم أعظم. فكانت العقوبة المستحقة عليها أكثر. ونظيره قوله تعالى (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ) .

– الغرض من الآية : بيان فضل الله على رسوله في تثبيته على الحق، وعصمته من الفتن، ولو تخلى عن عصمته لمالَ إليهم بعض الشيء .

– لولا : حرف امتناع لوجود ، أي امتنع الركون إليهم لعصمته تعالى وتثبيته له ، فليس في الآية ما يُنقص من قدر الرسول ﷺ ، وإنما هي بيان لفضل الله العظيم على نبيه الكريم .

قال الشنقيطي : هذه الآية الكريمة أوضحت غاية الإيضاح براءة نبينا ﷺ من مقاربة الركون إلى الكفار ، فضلاً عن نفس الركون. لأن (وَلَوْلاَ) حرف امتناع لوجود. فمقاربة الركون منعتها (وَلَوْلاَ) الامتناعية لوجود التثبيت من الله جل وعلا لأكرم خلقه ﷺ. فصح يقيناً انتفاء مقاربة لإركون فضلاً عن الركون نفسه. وهذه الآية تبين ما قبلها، وأنه لم يقارب الركون إليهم البتة. لأن قوله (لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً) أي قاربت تركن إليهم هو عين الممنوع بـ (وَلَوْلاَ) الامتناعية كما ترى. ومعنى (تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ): تميل إليهم. (أضواء)

وقد بين القرآن الكريم في كثير من آياته، أن الرسول ﷺ أعرض عن مقترحاتهم ورفضها، ولم يلتفت إليها، ومن ذلك قوله تعالى: وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ، قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ، إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْراكُمْ بِهِ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ . (التفسير الوسيط) .

(**ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً**) ينقذك مما يحل بك من العذاب ، ولكن الله تعالى عصمك من أسباب الشر ، ومن الشر ، فثبتك وهداك الصراط المستقيم ، ولم تركن إليهم بوجه من الوجوه ، فله عليك أتم نعمة ، وأبلغ منحة .

في هذه الآية : شدة حاجة العبد إلى ثبيت الله ، والالتجاء إلى الله للثبات على الحق .

وفي حديث عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَقُولُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ) رواه مسلم .

عند الترمذي: عَنْ أَنَس قَالَ (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ». فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا قَالَ «نَعَمْ إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاء).

من أسباب الثبات على الدين :

أولاً: الإقبال على القرآن العظيم حفظًا وتلاوة وعملًا.

قال تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً).

كيف يكون القرآن مصدراً للتثبيت؟

* لأنه يزرع الإيمان ويزكي النفس بالصلة بالله.

* لأن تلك الآيات تنزل برداً وسلاماً على قلب المؤمن الذي تعصف به رياح الفتنة، فيطمئن قلبه بذكر الله.

* لأنه يزود المسلم بالتصورات والقيم الصحيحة التي يستطيع من خلالها أن يقوّم الأوضاع من حوله، و الموازين التي تهيئ له الحكم على الأمور، فلا يضطرب حكمه، ولا تتناقض أقواله.

* لأنه يرد على الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام من الكفار والمنافقين.

ثانيًا: الإيمان بالله والعمل الصالح.

قال تعالى (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاء).

قال قتادة: أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح، وفي الآخرة في القبر.

وقال سبحانه (ولو أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وأَشَدَّ تَثْبِيتاً)، أي على الحق".

وكان النبي ﷺ يداوم على الأعمال الصالحة، وكان أحب العمل إليه أدومه وإن قل، وكان أصحابه إذا عملوا عملًا أثبتوه.

ثالثًا: تدبر قصص الأنبياء ودراستها للتأسي والعمل.

والدليل على ذلك قوله تعالى (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِين).

رابعًا: الدعاء.

فإن من صفات عباد الله المؤمنين أنهم يتوجهون إلى الله بالدعاء أن يثبتهم كما علمنا سبحانه أن نقول (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا).

وعن عائشة (أن النبي ﷺ كان يكثر أن يقول: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) رواه أحمد.

والمسلم في كل صلاة لا بد أن يدعو فيها: (اهدنا الصراط المستقيم).

وروى الطبراني عن شداد بن أوس ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ (يا شداد بن أوس إذا رأيت الناس قد اكتنزوا الذهب والفضة فاكنز هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد، وأسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك ...).

وكان من دعائه (اللهم اهدني ويسر الهدى لي).

وكان ابن عمر – رضي الله عنهما – يدعو (اللهم يسرني لليسرى وجنبني العسرى).

وقد أمر النبي ﷺ عليًا أن يسأل الله – عز وجل – السداد والهدى، وقال له (اذكر بالسداد تسديدك السهم، وبالهدي هدايتك الطريق).

خامساً: قصر الأمل.

ومعناه العلم بقرب الرحيل وسرعة انقضاء مدة الحياة، وهو من أنفع الأمور للثبات على الطاعات، فإنه يبعث على انتهاز فرصة الحياة التي تمر مر السحاب، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحث على قضاء جهاز سفره وتدارك الفائت، ويزهد في الدنيا، ويرغب في الآخرة. فكلما قصر الأمل جد العمل، لأن العبد يقدّرُ أنه يموت اليوم فيستعد استعداد ميت، فإذا أمسي شكر الله تعالى على السلامة، وقدر أن يموت تلك الليلة فيبادر إلى العمل، وقد ورد الشرع بالحث على العمل والمبادرة إليه، فقد أوصى النبي ﷺ ابن عمر فقال له: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل).

سادساً : ذكر الله.

قال جل شأنه (أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوب).

وقال ﷺ (مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت).

وقد أمر الله تعالى عباده بالإكثار من ذكره فقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيرا. وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً. هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً).

فذكر الله كثيراً وتسبيحه كثيراً سبب لصلاته سبحانه وصلاة ملائكته التي يخرج بها العبد من الظلمات إلى النور ، وتأمل في هذا الاقتران في قوله عز وجل (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون)، فجعله من أعظم ما يعين على الثبات في الجهاد.

قال ابن القيم: حذار حذار من أمرين لهما عواقب سوء.

أحدهما: رد الحق لمخالفته هواك.

فإنك تعاقب بتقليب القلب ورد ما يرد عليك من الحق رأساً ولا تقبله إلا إذا برز في قالب هواك.

قال تعالى (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) فعاقبهم على رد الحق أول مرة بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم بعد ذلك.

والثاني: التهاون بالأمر إذا حضر وقته.

فإنك إن تهاونت به ثبطك الله وأقعدك عن مراضيه وأوامره عقوبة لك.

قال تعالى (فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ).

فمن سلم من هاتين الآفتين والبليتين العظيمتين فليهنه السلامة. (البدائع) .

قال تعالى عن يوسف عليه السلام (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ).

قال ابن تيمية: فيه عبرتان:

إحداهما: اختيار السجن والبلاء على الذنوب والمعاصي.

والثانية: طلب سؤال الله ودعائه أن يثبت القلب على دينه ويصرفه إلى طاعته، وإلا فإذا لم يثبت القلب وإلا صبا إلى الآمرين بالذنوب وصار من الجاهلين.

قال السعدي – رحمه الله –وفي هذه الآياتِ دليلٌ على شدَّة افتقار العبد إلى تثبيت الله إيَّاه، وأنَّه ينبغي له ألاَّ يزال متملقًا لربِّه أن يثبته على الإيمان، ساعيًا في كلِّ سبب موصل إلى ذلك؛ لأنَّ النبي ﷺ وهو أكملُ الخلق قال الله له (وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً) فكيف بغيره ﷺ ؟ .

قال ابن القيم – رحمه الله –:إنَّ العبد إذا عَلِم أنَّ الله سبحانه وتعالى مُقلِّب القلوب، وأنَّه يحول بين المرْء وقلبه، وأنه تعالى كلَّ يوم هو في شأن، يفعل ما يشاء، ويحكُم ما يريد، وأنه سبحانه يَهدي مَن يشاء، ويُضِلُّ مَن يشاء، ويرفع مَن يشاء، ويخفض مَن يشاء، فما يُؤمِّنه أن يقلِّب الله قلبَه، ويحول بينه وبينه، ويُزيغه بعد إقامته، وقد أثْنَى الله على عبادِه المؤمنين بقوله (رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) فلولاَ خوفُ الإزاغة لَمَا سألوه ألاّ يُزيغ قلوبَهم" ا.هـ.

وكان النبي ﷺ يستفتح قيامَ الليل بقوله (اللهمَّ ربَّ جبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، فاطرَ السموات والأرض، عالمَ الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلِف فيه من الحقِّ بإذنك، إنَّك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم).

رواه مسلم

وقد كان خيار أصحاب النبيِّ يسألون ربَّهم الثبات :

فعن أبي عبدالله الصنابحي قال (قدمتُ المدينة في خلافة أبي بكر الصديق ﷺ- فصلَّيت وراءه المغرب، فقرأ في الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورةٍ؛ سورةٍ من قصار المفصل، ثم قام في الثالثة فدنوتُ منه حتى إنَّ ثيابي لتكاد أن تمسَّ ثيابَه، فسمعتُه قرأ بأم القرآن وبهذه الآية (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) رواه مالك (٧٩/١) بإسناد صحيح.

(**وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا**) أي : وإن كان المشركون بمكرهم أن يخرجوك يا محمد من أرض مكة .

– اختلف فيمن نزلت : فقيل : نزلت في اليهود إذا اشاروا على الرسول ﷺ سكنى الام بلاد الأنبياء .

قال ابن كثير ، هذا قول ضعيف ، لأن هذه الآية مكية وسكنى المدينة بعد ذلك .

وقيل : نزلت في كفار قريش ، إذ هموا بإخراج الرسول ﷺ من بين أظهرهم ، فتوعدهم الله بهذه الآية .

وَإِذاً) أي إذا أخرجوك .

(**لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً**) أي لم يلبثوا بعد خروجك إلا زمناً يسيراً .

– قال ابن كثير : وكذلك وقع ، فإنه لم يكن بعد هجرته ﷺ من بين أظهرهم بعدما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف ، حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد ، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم ، فقتل اشرافهم وسبى ذراريهم ، ولهذا قال تعالى :

(**سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا**) أي هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذوهم بخروج الرسول ﷺ من بين أظهرهم يأتيهم العذاب .

قال القاسمي : يعني أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم ، فسنة الله أن يهلكهم .

(**وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً**) أي لن تجد لها تبديلاً أو تغييراً .

الفوائد :

١. حرص كفار قريش على صرفه ﷺ عن الذي أوحاه الله تعالى إليه من القرآن .

٢. أن أهل الكفر يتمنون من أهل الإسلام أن يتنازلوا عن بعض عقائدهم .

٣. تحريم اتخاذ الكافر صديقاً .

٤. كل أحد بحاجة إلى تثبيت الله وهدايته .

٥. شدة حاجة العبد إلى ثبيت الله .

٦. الالتجاء إلى الله للثبات على الحق .

٧. امتنان الله على نبيه بتثبيته إياه وعصمته وحفظه من الركون إلى المشركين .

٨. أن العقوبة على قدر النعمة .

٩. كلما كانت الدرجة أعلى كان العذاب عند المخالفة أعظم.

١٠. أن إخراج الرسل والدعاة من بلادهم سنة قديمة للكفار .

١١. الخروج والهجرة خوفاً على الدين .

١٢. أن من علامة الإيمان الهجرة من البلد الذي يخشى فيه الإنسان على دينه .

١٣. أن سنة الله في المرسلين قبله أن الأمم إذا أخرجوا رسولهم من بين أظهرهم أهلكوا بعد خروجه .

١٤. أن سنن الله في نصرة أوليائه وهلاك أعدائه لا تتغير ولا تتبدل .

(أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩) وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)) .

[الإسراء : ٧٨-٨١] .

==========

(أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ) يقول تعالى لرسوله ﷺ آمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها (أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ) دلوكها أي زوالها ، واختاره ابن جرير ، فيدخل في ذلك صلاة الظهر والعصر .

قال الرازي : القول الثاني : أن دلوك الشمس هو زوالها عن كبد السماء وهو اختيار الأكثرين من الصحابة والتابعين .

وقال السمعاني: اختلَفوا في الدُّلوك: قال ابن مسعود : هو الغروبُ، وقال ابن عباس: هو الزَّوالُ، وقد حكِيَ عنهما كلا القولين، وكذلك اختلف التابعون في هذا. وأصل الدُّلوكِ مِن الميل، والشَّمسُ تميلُ إذا زالت أو غرَبَت... وأولى القولين أن يحمَلَ على الزَّوالِ؛ لكثرة القائلين به، فإنَّ أكثر التابعين حملوه عليه، ولأنَّا إذا حمَلْناه عليه تناوَلَت الآيةُ جميعَ الصلواتِ الخمس؛ فإنَّ قوله: لِدُلُوكِ الشَّمْسِ يتناول الظُّهرَ والعصرَ، وقولَه: إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ يتناولُ المغرِبَ والعِشاءَ .

(إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ) أي ظلمته ، فدخل في ذلك صلاة المغرب وصلاة العشاء .

قال ابنُ عطية : هذه -بإجماعٍ مِن المفَسِّرينَ- إشارةٌ إلى الصَّلَواتِ المفروضةِ .

(وَقُرْآنَ الْفَجْرِ) أي : صلاة الفجر .

قال الرازي : أجمعوا على أن المراد منه صلاة الصبح .

وسميت قرآناً لمشروعية إطالة القرآن فيها ، أطول من غيرها ، ولفضل القراءة فيها .

(إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مشهوداً) أي : تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار .

قال الواحدي: كلُّهم قالوا: صلاةُ الفَجرِ تَشهَدُها ملائِكةُ اللَّيلِ ومَلائِكةُ النَّهارِ .

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم الله -وهو أعلم بهم- كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون) متفق عليه .

وقد جاءت الأحاديث الكثيرة في فضل صلاة الفجر :

تشهدها الملائكة :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاَةِ الْفَجْرِ وَصَلاَةِ الْعَصْرِ ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي فَيَقُولُونَ تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ) متفق عليه

تعدل قيام الليل .

عن عُثْمَان بْنُ عَفَّانَ. قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّه) رواه مسلم.

يكون في حفظ الله :

عن جُنْدَبَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ. قال: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ فَلاَ يَطْلُبَنَّكُمُ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ فَيُدْرِكَهُ فَيَكُبَّهُ فِي نَارِ جَهَنَّم) رواه مسلم، وجاء عند الطبراني (من صلى الصبح في جماعة).

أجرها عظيم :

عن أبي هريرة. قال: قال ﷺ (لو يعلمون ما في الصبح والعشاء لأتوهما ولو حبواً) متفق عليه.

من أسباب دخول الجنة :

عن أبي موسى الأشعرِيّ ﷺ، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ (مَنْ صَلَّى البَرْدَيْنِ دَخَلَ الجَنَّة) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

سبب للنجاة من النار.

قال ﷺ (لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، يعني الفجر والعصر) متفق عليه.

المحافظة عليها أمان من النفاق.

لقوله ﷺ (أَثقَلُ اَلصَّلَاةِ عَلَى اَلْمُنَافِقِينَ: صَلَاةُ اَلْعِشَاءِ, وَصَلَاةُ اَلْفَجْرِ, وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا) مُتَّفَقٌ عَلَيْه .

ولقول ابن مسعود (لقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق).

وقال ابن عمر (كنا إذا فقدنا الرجل صلاة العشاء أو صلاة الفجر أسأنا به الظن).

قال الحافظ ابن رجب: إسناده صحيح.

سبب لرؤية الله في الآخرة.

قال ﷺ (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا) متفق عليه.

قال الزجاج : وفي هذا فائدة عظيمة تدل على أن الصلاة لا تكون إلا بقراءة ، حين سمّيت الصلاة قرآناً.

قال السعدي: ففي هذه الآية ذكر الأوقات الخمسة، للصلوات المكتوبات، وأن الصلوات الموقعة فيها فرائض لتخصيصها بالأمر.

(**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ**) أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ (افضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل) رواه مسلم ، ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل ، فإن التهجد ما كان بعد نوم .

(**نَافِلَةً لَّكَ**) اختلف في معناها ، فقيل : معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك ، وهذا اختيار ابن جرير

وقيل : إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص ، لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وغيره من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التي عليه .

قال القرطبي : اختلف العلماء في تخصيص النبيّ ﷺ بالذكر دون أمته ؛ فقيل : كانت صلاة الليل فريضة عليه لقوله : "نافلة لك" أي فريضة زائدة على الفريضة الموظفة على الأمة.

قلت : وفي هذا التأويل بعدٌ لوجهين :

أحدهما : تسمية الفرض بالنفل ، وذلك مجاز لا حقيقة.

الثاني : قوله ﷺ (خمس صلوات فرضهن الله على العباد) وقوله تعالى: (هن خمس وهن خمسون لا يبدّل القول لَدَيَّ) وهذا نص، فكيف يقال افترض عليه صلاة زائدة على الخمس، هذا ما لا يصح، وإن كان قد روي عنه عليه السلام (ثلاث عليّ فريضة ولأمتي تطوع قيام الليل والوتر والسّواك) .

وقيل : كانت صلاة الليل تطوعاً منه وكانت في الابتداء واجبة على الكل، ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة، كما قالت عائشة، على ما يأتي مبيّناً في سورة "المزمّل" إن شاء الله تعالى.

وعلى هذا يكون الأمر بالتنفل على جهة الندب ويكون الخطاب للنبيّ ﷺ؛ لأنه مغفور له.

فهو إذا تطوّع بما ليس بواجب عليه كان ذلك زيادة في الدرجات.

وقال السعدي : (نَافِلَةً لَكَ) أي: لتكون صلاة الليل زيادة لك في علو القدر، ورفع الدرجات، بخلاف غيرك، فإنها تكون كفارة لسيئاته.

ويحتمل أن يكون المعنى: أن الصلوات الخمس فرض عليك وعلى المؤمنين، بخلاف صلاة الليل، فإنها فرض عليك بالخصوص، ولكرامتك على الله، أن جعل وظيفتك أكثر من غيرك، وليكثر ثوابك، وتنال بذلك المقام المحمود، وهو المقام الذي يحمده فيه الأولون والآخرون .

(عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً) أي افعل هذا الذي أمرتك به لنقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً، يحمدك فيه الخلائق كلهم.

حين يتشفع الخلائق بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، وكلهم يعتذر ويتأخر عنها، حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم، ليرحمهم الله من هول الموقف وكربه، فيشفع عند ربه فيشفعه، ويقيمه مقامًا يغبطه به الأولون والآخرون، وتكون له المنة على جميع الخلق.

قال الرازي : اتفق المفسرون على أن كلمة عسى من الله واجب .

قال ابن جرير : قال أكثر أهل التأويل : ذلك هو المقام الذي يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم .

قال الواحدي : أجمع المفسرون على أنه مقام الشفاعة .

وقال ابنُ حَجَرٍ: المقامُ المحمودُ هو الشَّفاعةُ العُظمى التي اختَصَّ بها، وهيَ إراحةُ أهلِ الموقِفِ من أهوالِ القَضاءِ بينَهم والفَراغِ من حِسابِهم .

عن ابن عمر قال (إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثاً كل أمة تتبع نبيها تقول: يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبيّ ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله المقامَ المحمود) رواه البخاري .

وفي صحيح مسلم عن أنس قال حدّثنا محمد ﷺ قال : (إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض فيأتون آدم فيقولون له اشفع لذرّيتك فيقول لست لها ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله فيأتون إبراهيم فيقول لست لها ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله فيؤتى موسى فيقول لست لها ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته فيؤتى عيسى فيقول لست لها ولكن عليكم بمحمد ﷺ فأُوتَى فأقول أنا لها) وذكر الحديث.

وروى الترمذِيّ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ في قوله (عسى أن يبعثك ربُّك مقاماً محموداً سئل عنها قال: هي الشفاعة) قال : هذا حديث حسن صحيح.

وعن جابِرِ بنِ عَبدِ الله رَضِيَ الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال (أُعطِيتُ خَمسًا لَم يُعْطَهُنَّ أحَدٌ قَبلي: نُصِرْتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ، وجُعِلَت لي الأرضُ مَسجِدًا وطَهورًا، فأيُّما رَجُلٍ من أمَّتي أدرَكَته الصَّلاةُ فليُصَلِّ، وأحِلَّتْ لي المغانِمُ ولَم تَحِلَّ لأحَدٍ قَبلي، وأُعطِيتُ الشَّفاعةَ، وكان النَّبيُّ يُبعَثُ إلى قَومِه خاصَّةً وبُعِثتُ إلى النَّاسِ عامَّةً) متفق عليه .

قال الخَطابيُّ: (ولُه: (أُعطِيتُ الشَّفاعةَ) فإنَّها هيَ الفَضيلةُ العُظمى التي لَم يُشارِكْه فيها أحَدٌ من الأنبياءِ، وبِها سادَ الخَلقَ كُلَّهم حَتَّى يَقولَ: أنا سَيِّدُ ولَدِ آدَم، وذلك في القيامةِ حَتَّى يَشفَعَ للخَلقِ في الحِسابِ، ولا يَشفَعُ غَيرُه .

وقال النَّوَويُّ: (قَولُه ﷺ (وأُعطيتُ الشَّفاعةَ) هيَ الشَّفاعةُ العامَّةُ التي تَكونُ في المِحشَرِ بفَزَعِ الخَلائِقِ إليه ﷺ؛ لأنَّ الشَّفاعةَ في الخاصَّةِ جُعِلَت لغَيرِه أيضًا .

وقال السَّعديُّ: قَولُه: (وأُعطيتُ الشَّفاعةَ) وهيَ الشَّفاعةُ العُظمى التي يَعتَذِرُ عنها كِبارُ الرُّسُلِ، ويَنتَدِبُ لها خاتَمُهم مُحَمَّدٌ ﷺ، فيُشَفِّعُه الله في الخَلقِ، ويَحصُلُ له المقامُ المحمودُ الذي يَحمَدُه فيه الأولونَ والآخِرونَ، وأهلُ السَّمَواتِ والأرضِ، وتَنالُ أمَّتُه من هذه الشَّفاعةِ الحَظَّ الأوفَرَ، والنَّصيبَ الأكمَلَ، ويَشفَعُ لهم شفاعةً خاصَّةً، فيُشَفِّعُه اللهُ تعالى .

(وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ) أخرج الترمذي عن ابن عباس قال (كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله : وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ) .

قال الحسن البصري : إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه ، فأراد الله قتال أهل مكة ، أمره أن يخرج إلى المدينة ، فهو الذي قال الله عز وجل : وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ .

(وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ) يعني المدينة .

(وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ) يعني مكة ، قال ابن كثير : وهذا القول هو أشهر الأقوال واختاره ابن جرير .

– قيل معنى آخر : وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ: أي أدخلني قبري مدخلاً حسناً، وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ : أي أخرجني من قبري عند البعث إخراجاً حسناً .

وقيل : المعنى أمتني إماتة صدق ، وابعثني يوم القيامة مبعث صدق ؛ ليتصل بقوله (عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا) كأنه لما وعده ذلك أمره أن يدعو ليُنْجِز له الوعد.

وقيل : أدخلني في المأمور وأخرجني من المنهيّ.

وقيل : المعنى أدخلني في الأمر الذي أكرمتني به من النبوّة مدخل صدق وأخرجني منه مخرج صدق إذا أمَتَّنِي ؛ قال معناه مجاهد.

ولابن القيم كلام جميل قال فيه :

قوله تعالى (رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ) أمر رسوله ﷺ أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق .

وأخبر عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين، فقال (وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ) .

وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق ومقعد صدق فقال تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ) .

وقال (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ. فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) .

فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق .

وحقيقة الصدق في هذه الأشياء: هو الحق الثابت المتصل بالله، الموصل إلى الله، وهو ما كان به وله من الأقوال والأعمال وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة.

فمدخل الصدق ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقًّا ثابتًا بالله، وفي مرضاته بالظفر بالبغية وحصول المطلوب ضد مخرج الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها، ولا له ساق ثابتة يقوم عليها كمخرج أعدائه يوم بدر، ومخرج الصدق كمخرجه ﷺ هو وأصحابه في تلك الغزوة، وكذلك مدخله ﷺ المدينة كان مدخل صدق بالله، ولله، وابتغاء مرضاة الله، فاتصل به التأييد والظفر والنصر وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة، بخلاف مدخل الكذب الذي رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب،

فإنه لم يكن بالله، ولا لله، بل كان محادة لله ولرسوله، فلم يتصل به إلا الخذلان والبوار، وكذلك مدخل من دخل من اليهود المحاربين لرسول الله ﷺ حصن بني قريظة، فإنه لما كان مدخل كذب أصابه معهم ما أصابهم، فكل مدخل ومخرج كان بالله ولله فصاحبه ضامن على الله، فهو مدخل صدق ومخرج صدق، وكان بعض السلف إذا خرج من داره رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إني أعوذ بك أن أخرج مخرجًا لا أكون فيه ضامنًا عليك، يريد أن لا يكون المخرج مخرج صدق .

ولذلك فسر مدخل الصدق ومخرجه بخروجه ﷺ من مكة ودخوله المدينة، ولا ريب أن هذا على سبيل التمثيل فإن هذا المدخل والمخرج من أجلِّ مداخله ومخارجه ﷺ . (التفسير القيم) .

(**وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً**) أي اجعل لي من عندك قوة ومنعة تنصرني بها على أعدائك وتعز بها دينك .

(**وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ**) الآية تهديد ووعيد لكفار قريش، فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه ولا قِبَل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع، وزهق باطلهم أي تضمحل وهلك .

(**إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً**) فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) .

عن ابن مسعود . قال (دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب ، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً . جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد) رواه البخاري .

الفوائد :

١. وجوب إقامة الصلاة .

٢. أن الصلوات المكتوبة لها وقت محدد بداية ونهاية .

٣. أن الوقت من شروط الصلاة .

٤. تحريم إقامة الصلاة خارج وقتها .

٥. أن وقت الظهر من زوال الشمس وصلاة العصر بعدها إلى الغروب .

٦. أن وقت صلاة المغرب بعد غروب الشمس ، وصلاة العشاء بعدها .

٧. فضل صلاة الفجر .

٨. استحباب إطالة القراءة فيها .

٩. أن القراءة ركن من أركان الصلاة .

١٠. من فضائل صلاة الفجر شهود الملائكة .

١١. مشروعية التهجد وقيام الليل .

١٢. فضل الصدق في كل شيء .

١٣. سؤال الله أن يدخله مدخل صدق وأن يخرجه مخرج صدق .

١٤. تهديد كفار قريش وكل كافر .

١٥. إثبات الحق ورسوخه .

١٦. لا بقاء للباطل .

(**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا (٨٢)**) .

[الإسراء : ٨٢] .

=========

(**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ...) يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كِتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ، إِنَّهُ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ أَيْ يُذْهِبُ ما في القلب مِنْ أَمْرَاضٍ مِنْ شَكٍّ وَنِفَاقٍ وَشِرْكٍ وَزَيْغٍ وَمَيْلٍ، فَالْقُرْآنُ يَشْفِي مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَهُوَ أَيْضًا رَحْمَةٌ يَحْصُلُ فِيهَا الْإِيمَانُ وَالْحِكْمَةُ وَطَلَبُ الْخَيْرِ وَالرَّغْبَةُ فِيهِ، وَلَيْسَ هَذَا إِلَّا لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ وَاتَّبَعَهُ، فَإِنَّهُ يَكُونُ شِفَاءً فِي حَقِّهِ وَرَحْمَةً، وَأَمَّا الْكَافِرُ الظَّالِمُ نَفْسَهُ بذلك، فلا يزيد سماعه القرآن إلا بعدا وَكُفْرًا، وَالْآفَةُ مِنَ الْكَافِرِ لَا مِنَ الْقُرْآنِ :

كقوله تَعَالَى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ).

وَقَالَ تَعَالَى (وَإِذا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ) .وَالْآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

فائدة : ١

قوله (**من القرآن**) مِنْ هنا للجِنسِ، وليست للتَّبعيضِ، فالقرآنُ كُلُّه شِفاءٌ ورَحمةٌ. وممَّن ذهب إلى هذا: الواحدي، وابنُ القيّم .

قال الرازي : قوله تعالى (وَنُنَزِّلُ مِنَ القرءان مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ} ولفظة {من} ها هنا ليست للتبعيض بل هي للجنس كقوله : (فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان) والمعنى وننزل من هذا الجنس الذي هو قرآن ما هو شفاء.

فجميع القرآن شفاء للمؤمنين ، واعلم أن القرآن شفاء من الأمراض الروحانية ، وشفاء أيضاً من الأمراض الجسمانية .

وقال ابن الجوزي : "مِنْ" هاهنا لبيان الجنس ، فجميع القرآن شفاء.

فائدة : ٢

فالقرآن شفاء كله :

فقد سمى الله القرآن العظيم شفاء في ثلاثة مواضع:

في هذه الآية. (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ...) .

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) .

وقال سُبحانَه (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) .

قائدة : ٣

القرآن شفاء من جميع الأمراض الجسدية والقلبية .

قال ابن القيم : (من القرآن) ومن ههنا لبيان الجنس لا للتبعيض فإن القرآن كله شفاء كما قال في الآية الأخرى فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أشجع في إزالة الداء من القرآن .

وقال السعدي : القرآن مشتمل على الشفاء والرحمة، وليس ذلك لكل أحد، وإنما ذلك للمؤمنين به، المصدقين بآياته، العاملين به، وأما الظالمون بعدم التصديق به أو عدم العمل به، فلا تزيدهم آياته إلا خسارًا، إذ به تقوم عليهم الحجة، فالشفاء الذي تضمنه القرآن عام لشفاء القلوب، من الشبه، والجهالة، والآراء الفاسدة، والانحراف السيئ، والقصود السيئة ... فإنه مشتمل على العلم اليقيني، الذي تزول به كل شبهة وجهالة، والوعظ والتذكير، الذي يزول به كل شهوة تخالف أمر الله، ولشفاء الأبدان من آلامها وأسقامها. (السعدي) .

فائدة : ٤

القرآن رحمة .

قال الشوكاني : ثم ذكر سبحانه أنه رحمة للمؤمنين لما فيه من العلوم النافعة المشتملة على ما فيه صلاح الدين والدنيا ، ولما في تلاوته وتدبره من الأجر العظيم الذي يكون سبباً لرحمة الله سبحانه ومغفرته ورضوانه

فائدة : ٥

القرآن لا يزيد من تركه وأرض عنه إلا حيرة وضلالاً .

وقد قال تعالى (هدى للمتقين) .

قال الشنقيطي: صرح في هذه الآية بأن هذا القرآن هدى للمتقين، ويفهم من مفهوم الآية – أعني مفهوم المخالفة المعروف بدليل الخطاب – أن غير المتقين ليس هذا القرآن هدى لهم، وصرح بهذا المفهوم في آيات أخر :

كقوله (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) .

وقوله (وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظالمين إَلاَّ خَسَاراً) .

وقوله (وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً فَأَمَّا الذين آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ) .

وقوله تعالى (وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً) الآيتين، ومعلوم أن المراد بالهدى في هذه الآية الهدى الخاص الذي هو التفضل بالتوفيق إلى دين الحق، لا الهدى العام، الذي هو إيضاح الحق. (أضواء) .

قال ابن القيم: والمقصود: أن المحل القابل هو قلب العبد المتقي المنيب إلى ربه الخائف منه الذي يبتغي رضاه ويهرب من سخطه فإذا هداه الله فكأنه وصل أثر فعله إلى محل قابل فيتأثر به فصار هدى له وشفاء ورحمة وموعظة بالوجود والفعل والقبول وإذا لم يكن المحل قابلاً وصل إليه الهدى فلم يُؤثِّر فيه كما يصل الغذاء إلى محل غير قابل للاغتذاء فإنه لا يؤثر فيه شيئاً بل لا يزيده إلا ضعفاً وفساداً إلى فساده كما قال تعالى في السورة التي نزلها (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم) وقال: (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً.

فائدة : ٦

قال البقاعي : (إلا خساراً) أي : نقصاناً ، لأنهم إذا جاءهم وقامت به الحجة عليهم ، أعرضوا عنه ، فكان إعراضهم ذلك زيادة في كفرانهم ، كما أن قبول المؤمنين له وإقبالهم على تدبره زيادة في إيمانهم ، وفي الدارمي عن قتادة قال : ما جالس القرآن أحد فقام عنه بزيادة أو نقصان – ثم قرأ هذه الآية .

وقال القرطبي : (وَلاَ يَزِيدُ الظالمين إَلاَّ خَسَارًا) لتكذيبهم.

قال قتادة: ما جالس أحد القرآن إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، ثم قرأ (وَنُنَزّلُ مِنَ القُرآنِ مَا هُو شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤمِنِين...).

ونظير هذه الآية قوله (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى). (القرطبي)

وقال ابن عاشور : أن القرآن كله شفاءً ورحمة للمؤمنين ويزيد خسارة للكافرين ، لأن كل آية من القرآن من أمره ونهيه ومواعظه وقصصه وأمثاله ووعده ووعيده ، كل آية من ذلك مشتملة على هَدْيٍ وصلاحِ حالٍ للمؤمنين المتبعينَه ، ومشتملة بضد ذلك على ما يزيد غيظ المستمرين على الظلم ، أي الشرك ، فيزدادون بالغيظ كراهية للقرآن فيزدادون بذلك خساراً بزيادة آثامهم واستمرارهم على فاسد أخلاقهم وبُعْدِ ما بينهم وبين الإيمان ، وهذا كقوله (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون) .

فائدة : ٧

من الشقاء : أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم، كما أن سيئ المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلا خبالاً ونقصاً.

الفوائد :

١. أن القرآن منزل غير مخلوق .
٢. إثبات علو الله تعالى .
٣. الثناء العظيم على القرآن الكريم وأنه شفاء من كل الأمراض .
٤. أن القرآن رحمة للمؤمنين .
٥. أن القرآن لا يزيد الظالمين – بسبب كفرهم به – إلا خساراً .
٦. من هجر القرآن ترك اتباعه والعمل به .
٧. من هجر القرآن ترك التداوي به .

(وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً (٨٤)) .

[الإسراء : ٨٣ – ٨٤] .

==========

(**وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ**) بمال وصحة وعافية وفتح ورزق ونصر ، ونال ما يريد .

(**أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ**) أعرض : أي ولى ظهره أي عرضه إلى ناحية ، ونأى بجانبه أي تباعد ، ومعنى النأي في اللغة البعد والإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه .

(**وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ**) المصائب والشدائد .

(**كَانَ يَؤُوسًا**) أي : قانطاً من رحمة الله .

والآية تمثيل لطغيان الإنسان ، فإذا أصابته النعمة بطر وتكبّر ، وإن أصابته الشدة أيس وقنط .

كما قال تعالى (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) . (يونس) .

وقال سُبحانَه (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا) .

ما قال تعالى: وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ [هود: ٩] .

وقال سُبحانَه (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ) .

قال الشوكاني في تفسير آية يونس السابقة " وهذه الحالة التي ذكرها الله سبحانه للداعي لا تختص بأهل الكفر، بل تتفق لكثير من المسلمين، تلين ألسنهم بالدعاء وقلبهم بالخشوع والتذلل عند نزول ما يكرهون بهم. فإذا كشفه الله عنهم غفلوا عن الدعاء والتضرّع، وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التي أنعم الله بها عليهم، من إجابة دعائهم ورفع ما نزل بهم من الضرّ، ودفع ما أصابهم من المكروه.

– قال الرازي: المقصود من هذه الآية، بيان أن الإنسان قليل الصبر عند نزول البلاء، قليل الشكر عند وجدان النعماء والآلاء، فإذا مسه الضر أقبل على التضرع والدعاء مضطجعاً أو قائماً أو قاعداً مجتهداً في ذلك الدعاء طالباً من الله تعالى إزالة تلك المحنة، وتبديلها بالنعمة والمنحة، فإذا كشف تعالى عنه ذلك بالعافية أعرض عن الشكر، ولم يتذكر ذلك الضر ولم يعرف قدر الإنعام، وصار بمنزلة من لم يدع الله تعالى لكشف ضره، وذلك يدل على ضعف طبيعة الإنسان وشدة استيلاء الغفلة والشهوة عليه، وإنما ذكر الله تعالى ذلك تنبيهاً على أن هذه الطريقة مذمومة، بل الواجب على الإنسان العاقل أن يكون صابراً عند نزول البلاء شاكراً عند الفوز بالنعماء، ومن شأنه أن يكون كثير الدعاء والتضرع في أوقات الراحة والرفاهية.

(**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ**) أي: قُلْ –يا مُحَمَّدُ– مُخبِرًا للنَّاسِ: كُلُّ إنسانٍ يعمَلُ على وَفقِ نِيَّتِه، وبحَسَب طريقَتِه التي تَليقُ به، وتُناسِبُ أخلاقَه وطَبيعَتَه، ومَذهَبَه وعادَتَه التي أَلِفَها؛ فالكافِرُ يعمَلُ بما يُشبِهُ طَريقَتَه مِن مُقابَلةِ النِّعَمِ بالمعاصي، والإعراضِ عن المنعِمِ، والمؤمِنُ يعمَلُ بما يُشاكِلُه مِن شُكرِ النِّعَمِ، ومَحَبَّةِ المنعِمِ بها، والثَّناءِ عليه، والتوَدُّدِ إليه، والحياءِ منه، والمراقبةِ له، وتَعظيمِه وإجلالِه عزَّ وجلَّ .

قال ابن الجوزي : وتحرير المعنى : أن كل واحد يعمل على طريقته التي تشاكل أخلاقه ، فالكافر يعمل ما يشبه طريقته من الإعراض عند النِّعم واليأس عند الشدة ، والمؤمن يعمل ما يشبه طريقته من الشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء ، والله يجازي الفريقين.

وقال ابنُ القيم: (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ) أي: على ما يشاكلُه ويناسبُه ويليقُ به، كما يقولُ الناسُ: «كلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضحُ .

وقال أيضًا: فالفاجِرُ يعمَلُ على ما يليقُ به، وكذلك الكافِرُ والمنافِقُ، ومريدُ الدنيا وجيفتِها عامِلٌ على ما يناسِبُه ولا يليقُ به سواه، ومحِبُّ الصُّوَر عامِلٌ على ما يناسِبُه ويليقُ به؛ فكلُّ امرئٍ يهفو إلى ما يحِبُّه، وكلُّ امرئٍ يصبو إلى ما يناسِبُه، فالمريدُ الصادِقُ المحِبُّ لله يعمَلُ ما هو اللائِقُ به والمناسِبُ له، فهو يعمَلُ على شاكلةِ إرادتِه، وما هو الأليقُ به والأنسَبُ لها).

قال النحاس: والمعنَى: وليس يَنبغي أن يكونَ كذلك، إنَّما يَنبغي أن يتَّبعَ الحقَّ حيثُ كان .

قال ابن كثير: وهذه الآيةُ –واللهُ أعلَمُ– تهديدٌ للمُشرِكينَ ووَعيدٌ لهم .

(**فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً**) فيعلم من يصلح للهدية فيهديه ، ومن لا يصلح لها فيخذله ولا يهديه .

الفوائد :

١. من طبيعة الإنسان – إلا ما رحم ربك – الإعراض عند النعمة والاغترار وعدم الشكر .

٢. من طبيعة الإنسان – إلا ما رحم ربك – اليأس الشديد من رحمة الله عند الشدة والكرب .

٣. على المسلم عند النعم أن يخضع لربه ويشكر نعمته ، وعند الضراء يتضرع ويرجوا من الله عافيته وإزالة الشدة .

٤. فضل الشكر عند النعم .

٥. ذم كفر النعم .

٦. على الإنسان أن يجاهد نفسه على شكر الله عند النعم .

٧. أن النعم تحتاج إلى صبر شديد ليقوم الإنسان بشكرها .

٨. أن البلاء والكرب يحتاج إلى صبر وثقة بالله .

٩. التحذير من القنوط من رحمة الله .

١٠. أن المنعم بسائر النعم هو الله .

١١. كل إنسان يعمل على طريقته وشاكلته وما يميل إليه ، فعامل خيراً وعامل شراً .

١٢. ربك أعلم بما في القلوب .

١٣. ربك أعلم من يصلح للهداية ومن لا يصلح لها .

١٤. سؤال الله الهداية والثبات .

(**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)**) .

[الإسراء : ٨٥] .

==========

(**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**) أي : يسألك يا محمد الكفار عن الروح ما هي ؟ وما حقيقتها ؟ فقل لهم إنها من الأسرار الخفية ، التي لا يعلمها إلا رب البرية .

قال السعدي : هذا متضمن لردع من يسأل المسائل، التي لا يقصد بها إلا التعنت والتعجيز، ويدع السؤال عن المهم، فيسألون عن الروح التي هي من الأمور الخفية، التي لا يتقن وصفها وكيفيتها كل أحد، وهم قاصرون في العلم الذي يحتاج إليه العباد.

ولهذا أمر الله رسوله أن يجيب سؤالهم بقوله: (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) أي: من جملة مخلوقاته، التي أمرها أن تكون فكانت، فليس في السؤال عنها كبير فائدة، مع عدم علمكم بغيرها.

وفي هذه الآية دليل على أن المسؤول إذا سئل عن أمر، الأولى بالسائل غيره أن يعرض عن جوابه، ويدله على ما يحتاج إليه، ويرشده إلى ما ينفعه. (السعدي) .

سبب النزول :

عن ابن مسعود قال (كنت أمشي مع رسول الله ﷺ في حرث في المدينة ، فمر بقوم من اليهود ، فقال : بعضهم لبعض : سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه، قال: فسألوه عن الروح، فقالوا: يا محمد ما الروح؟ فما زال متوكئاً على العسيب، قال: فظننت أنه يوحى إليه! فقال: **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**، فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه) متفق عليه .

قال ابن كثير : وهذا السياق يقتضي فيما يظهر بادي الرأي أن هذه الآية مدنية، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة، مع السورة كلها مكية، وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية ، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهي هذه الآية، ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة، ما رواه أحمد عن ابن عباس قال (قالت قريش ليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه، فنزلت: ويسألونك عن الروح ...) .

وقد اختلف العلماء ما المراد بالروح هنا :

فقيل : أن المراد أرواح بني آدم ، **وقيل** : المراد بالروح هنا جبريل ، **وقيل** : المراد به ههنا ملك عظيم يقدر المخلوقات كلها .

قال الرازي : للمفسرين في الروح المذكورة في هذه الآية أقوال أظهرها أن المراد منه الروح الذي هو سبب الحياة .

وقال ابن جزي : والروح هنا عند الجمهور هو الذي في الجسم، وقد يقال فيه : النفس وقيل : الروح هنا جبريل، وقيل : القرآن، والأول هو الصواب لدلالة ما بعده على ذلك .

وقال الشوكاني : قد اختلف الناس في الروح المسئول عنه ، فقيل : هو الروح المدبر للبدن الذي تكون به حياته ، وبهذا قال أكثر المفسرين.

وهذا قول جلة المفسرين : فقد اختاره ابن عطية ، واستظهره أبو حيان ، والجصاص ، وأبو السعود .

– والروح في القرآن على عدة أوجه :

أحدها : الوحي :

كقوله تعالى (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا) .

وقوله (يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) وسمى الوحي روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح .

الثاني : القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من شاء من عباده المؤمنين .

كما قال (أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيْمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ) .

الثالث : جبريل :

كقوله تعالى (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ) .

الرابع : الروح التي سأل عنها اليهود فأجيبوا بأنها من أمر الله .

الخامس : المسيح عيسى ابن مريم :

قال تعالى (إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ) .

(**وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**) أي ما أعطي الخلق بالنسبة لعلم الله إلا شيئاً قليلاً جداً .

كما قال تعالى (قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) .

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

قال ابن جزي : قوله تعالى (وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ العلم إِلاَّ قَلِيلاً) خطاب عام لجميع الناس ، لأن علمهم قليل بالنظر إلى علم الله .

وقيل : خطاب لليهود خاصة ، والأول أظهر ، لأن فيه إشارة إلى أنهم لا يصلون إلى العلم بالروح .

- وفي الآية دليل على أن المسؤول إذا سئل عن مسألة – نفعها قليل – أن يعرض عن إجابة السائل عما سأل عنه ، ويدله على ما يحتاج إليه ويرشده إلى ما ينفعه .

الفوائد :

١. سؤال اليهود للنبي ﷺ عن الروح تعنتاً وتعجيزاً .

٢. أن الروح من شأن الله وأمره الكوني .

٣. دفاع الله تعالى عن نبيه .

٤. على الإنسان أن يسأل عما ينفعه .

٥. عموم علم الله تعالى لكل شيء .

٦. أن علم المخلوق قليل ، فهو يسبق بجهل ويلحق بنسيان .

(**وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِـــدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً (٨٦) إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَـــضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧)**) .

[الإسراء : ٨٦-٨٧] .

==========

(**وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ**) يخبر تعالى أن القرآن والوحي الذي أوحاه إلى رسوله ، رحمة منه عليه ، وعلى عباده ، وهو أكبر النعم على الإطلاق على رسوله ، فإن فضل الله عليه كبير ، لا يقادر قدره ، فالذي تفضل به عليك ، قادر على أن يذهب به .

(**ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً**) ثم لا تجد راداً يرده ، ولا وكيلاً يتوجه عند الله فيه .

(**إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ**) أي لكن رحمة من ربك تركناه محفوظاً في صدرك .

(**إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً**) أي فضل الله عليك عظيم وكبير ، حيث أنزل عليك القرآن ، وأعطاك المقام المحمود ، وجعلك خاتم المرسلين وسيد الأولين والآخرين .

كما قال تعالى (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظِيماً) .

وقوله (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً لِّيَغْفِرَ لَكَ الله مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً وَيَنصُرَكَ الله نَصْراً عَزِيزاً) .

وقوله (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الذي أَنقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) ، إلى غير ذلك من الآيات.

وبين تعالى في موضع آخر : أن فضله كبير على جميع المؤمنين :

وهو قوله (وَبَشِّرِ المؤمنين بِأَنَّ لَهُمْ مِّنَ الله فَضْلاً كَبِيراً) .

وبين المراد بالفضل الكبير في قوله (والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فِي رَوْضَاتِ الجنات لَهُمْ مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الفضل الكبير) .

الفوائد :

١. امتنان الله بإنزاله القرآن على نبيه ﷺ .

٢. تعظيم القرآن الكريم .

٣. أن من رحمة الله وفضله أنه تكفل بحفظ القرآن الكريم .

٤. عظم فضل الله تعالى على نبيه ﷺ ومن أعظم هذه النعم إنزال القرآن الكريم .

(قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا (٨٩)) .

[الإسراء : ٨٨ – ٨٩] .

==========

(قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ ...) ... ثُمَّ نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى شَرَفِ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَوِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ كُلُّهُمْ، وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ مَا أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ، لَمَا أَطَاقُوا ذَلِكَ وَلَمَا اسْتَطَاعُوهُ، وَلَوْ تَعَاوَنُوا وَتَسَاعَدُوا وَتَظَافَرُوا، فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ لَا يُسْتَطَاعُ، وَكَيْفَ يُشْبِهُ كَلَامُ الْمَخْلُوقِينَ كَلَامَ الْخَالِقِ، الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ، وَلَا مِثَالَ لَهُ، وَلَا عَدِيلَ لَهُ؟! (ابن كثير)

قال ابن عاشور: معنى الاجتماعِ: الاتفاقُ واتحادُ الرأي، أي: لو تواردت عقولُ الإنسِ والجنِّ على أن يأتيَ كُلُّ واحدٍ منهم بمِثلِ هذا القرآنِ لَما أتَوا بمثله. فهو اجتماعُ الرأيِ لا اجتِماعُ التعاون، كما تدُلُّ عليه المبالغةُ في قولِه بَعدَه: وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا .

قال ابن تيمية : هو آيةٌ بيّنةٌ مُعجِزةٌ مِن وُجوهٍ متعَدِّدةٍ: من جهةِ اللَّفظِ، ومن جهة النَّظمِ، ومن جهةِ البلاغةِ في دَلالةِ اللَّفظِ على المعنى، ومن جهةِ معانيه التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائِه وصفاتِه وملائكتِه، وغير ذلك، ومن جهةِ معانيه التي أخبرَ بها عن الغيبِ الماضي، وعن الغيبِ المستقبَلِ، ومِن جهةِ ما أخبرَ به عن المعاد، ومن جهةِ ما بيَّنَ فيه من الدلائلِ اليقينيَّةِ والأقيسةِ العقليَّةِ التي هي الأمثالُ المضروبةُ .

وقد تحدى الله العرب بسورة من هذا القرآن العظيم في سورة البقرة قال: (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) .

وتحداهم بسورة منه في سورة يونس :

قال: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) .

وتحداهم بعشر سور في سورة هود :

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) .

وتحداهم به كله في سورة الطور: (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ) .

ثم بيّن في سورة بني إسرائيل أن عامة الخلائق لو تعاونوا واجتمعوا لا يقدرون على الإتيان بمثل هذا القرآن: (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)

قال ابن كثير: ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى، ... فكلٌ من لفظه ومعناه فصيح لا يحاذى ولا يدانى، فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء، وأمر بكل خير، ونهى عن كل شر كما قال تعالى (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً) أي صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام، فكله حق وصدق وعدل وهدى، ... لا يخلق عن كثرة الرد، ولا يمل منه العلماء.

(**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى** ...) أي: ولقد بيَّنَّا ونوَّعْنا للنَّاسِ في هذا القُرآنِ الحُجَجَ والبَراهينَ، والمواعِظَ والأمثالَ، والقَصَص والعِبَرَ؛ ليتذَكَّروا ويتَّقوا .

(**فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا**) أي: فلم يَرْضَ أكثَرُ النَّاسِ إلَّا الكُفرَ بالحَقِّ، والجُحودَ لهذه النِّعمةِ العُظمَى، فجحَدوا بما في القُرآنِ، ورَدُّوا الهُدى، واقتَرَحوا مِن الآياتِ ما ليس لهم .

الفوائد :

١. إعجاز هذا القرآن العظيم .

٢. من أعظم معجزات النبي ﷺ القرآن الكريم .

٣. تحدي الكفار أن يأتوا بمثل هذا القرآن .

٤. عظمة هذا القرآن .

٥. وجوب العناية بهذا القرآن الكريم تلاوة وحفظاً وعملاً .

٦. نعمة إنزال هذا القرآن .

٧. إقامة الحجة على الناس بإنزال هذا القرآن حيث صرف الآيات والعبر بهذا القرآن .

(**وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣)**) .

[الإسراء : ٩٠-٩٣] .

==========

(**وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً**) لما تبيّن إعجاز القرآن ولزمتهم الحجة وغلبوا أخذوا يتعللون باقتراح الآيات والخوارق لأجل التعنت لا لطلب الحق فقالوا : لن نصدقك يا محمد حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً : الينبوع : العين الجارية .

(**أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ**) أي : بستان من نخيل وعنب .

(**فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً**) فيفجر خلالها أو وسطها أنهاراً من الماء .

قال الألوسي: والمرادُ إمَّا إجراءُ الأنهارِ خلالَها عندَ سقيِها، أو إدامةُ إجرائِها، كما يُنْبِئُ الفاءُ .

(**أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً**) أي : تجعل السماء تتساقط علينا قطَعاً قِطَعاً كما كنت تخوفنا وتزعم أن الله سيعذبنا إن لم نؤمن بك .

قال المفسرون : أشاروا إلى قوله تعالى (إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاء من السماء) .

وقال الشنقيطي: أو يسقط السماء عليهم كِسَفًا: أي: قطعًا كما زعَم، أي في قوله تعالى (إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ) .

(**أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً**) أي تُحضر لنا الله وملائكته مقابلة وعياناً فنراهم .

– قبيلاً : قيل : معاينة ، وقيل : كفيلاً .

قال ابن الجوزي : قوله تعالى (أو تأتيَ بالله والملائكة قبيلاً) فيه ثلاثة أقوال.

أحدها : عياناً .

والثاني : كفيلاً أنك رسول الله ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، واختاره الفراء

والثالث : قبيلةً قبيلةً ، كل قبيلة على حِدَتها .

(**أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ**) أي : يكون لك قصر من ذهب .

قال ابنُ عطية : قال المفسّرون: الزُّخرفُ: الذَّهَبُ في هذا الموضِعِ .

وقال ابن الجوزي : فأما الزخرف ، فالمراد به الذهب .

(**أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء**) أي تصعد في سلم ونحن ننظر إليك .

(**وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ**) أي : لن يؤمنوا من أجل صعوده ، حتى ينزل عليهم كتاباً يقرؤونه .

قال ابن جرير: يقول: ولن نصدِّقَك من أجلِ رُقِيِّك إلى السَّماءِ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا منشورًا نَقْرَؤُهُ فيه أمْرُنا باتباعِك والإيمانِ بك.

وقيل: المرادُ: كتابٌ لكلِّ واحدٍ منَّا فيه الأمرُ باتباعِك، والإيمانِ بك .

كقولِه تعالى (بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً) .

وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: القرطبي، والشنقيطي .

قال القرطبي (حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ) أي :كتاباً من الله تعالى إلى كل رجل منا ؛ كما قال تعالى (بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يؤتى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً) .

(**قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي**) أي: قُلْ –يا مُحَمَّدُ– لهؤلاءِ المشرِكينَ: أُنزِّهُ ربِّي عن كُلِّ ما لا يَليقُ به مِن النَّقصِ والعَجزِ، ومِن ذلك تَنزيهُه عن العَجزِ عن فِعلِ ما اقتَرَحتُم؛ فهو قادِرٌ على كُلِّ شَيءٍ، وتَنزيهُه عن أن تكونَ آياتُه تابعةً لأهوائِكم، وأن يتقَدَّمَ أحَدٌ بين يديه في أمرٍ مِن أمورِ سُلطانِه ومَلَكوتِه، بل هو الفعَّالُ لِما يشاءُ .

(**هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً**) أي ما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وقد فعلت ذلك .

وبين هذا المعنى في مواضع أخر. كقوله :

كقوله تعالى (قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَآ إلهكم إله وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا) .

وقوله (قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَآ إلهكم إله وَاحِدٌ فاستقيموا إِلَيْهِ واستغفروه) .

وكقوله تعالى عن جميع الرسل (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ولكن الله يَمُنُّ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ) .

قال القرطبي : (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي) يعني النبيّ ﷺ ؛ أي قال ذلك تنزيهاً لله عز وجل عن أن يعجز عن شيء وعن أن يعترض عليه في فعل ، وقيل : هذا كله تعجب عن فرط كفرهم واقتراحاتهم. (القرطبي) .

وهذا التعنت والعناد العظيم الذي ذكره جل وعلا عن الكفار هنا بينه في مواضع أخر.

وبين أنهم لو فعل الله ما اقترحوا ما آمنوا. لأن من سبق عليه الشقاء لا يؤمن.

كقوله تعالى (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الذين كَفَرُواْ إِنْ هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ) .

وقوله (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الملائكة وَكَلَّمَهُمُ الموتى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ ليؤمنوا إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله) .

وقوله (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السماء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ) .

وقوله (وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ) .

وقوله (إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم) . (أضواء) .

الفوائد :

١. شدة عناد وطغيان كفار مكة .

٢. شدة تكذيبهم للنبي ﷺ .

٣. إثبات وجود الملائكة .

٤. وجوب تنزيه الله عن كل عجز ونقص .

٥. حكمةُ الله ألَّا يُرسِلَ بالآياتِ التي اقترَحها الكفارُ، وإلَّا فلو جاءَتْهم ولم يُؤمِنوا أتاهم عذابُ الاستِئصالِ .

٦. من سبق عليه الشَّقاءُ لا يؤمِنُ .

٧. أنه ﷺ بشر كغيره من البشر اختصه الله بالرسالة والوحي .

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦)).

[الإسراء : ٩٤-٩٦] .

==========

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً) أي: وما مَنعَ الكُفَّارَ أن يُؤمِنوا بالحَقِّ حين جاءَهم الهُدى مِن عِندِ اللهِ إلَّا قَولُهم -جَهْلًا منهم على وجهِ التعَجُّبِ والاستِغرابِ-: أأرسَلَ اللهُ إلينا بما له مِن العَظَمةِ والجَلالِ بَشَرًا مِثْلَنا؟! فهلَّا بعَث إلينا ملَكًا رَسولًا .

فائدة : ١

ففي هذه الآية : بأن إرسال رسول من البشر مَانِعٍ لِلنَّاسِ مِنَ الْإِيمَانِ ، وقد بينه الله في مواضع أخرى :

كقوله تَعَالَى عَنْهُمْ (فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا).

وَقَوْلُهُ (فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى (قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا).

فائدة : ٢

وجميع الأمم كذبوا عجبوا من إرسال بشر :

قال تعالى عن نوح (أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

وقالَ فِي عَجَبِ قَوْمِ نَبِيِّنَا ﷺ مِنْ ذَلِكَ (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ)، وَقَالَ (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ).

وَقَالَ عَنِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ (ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ).

وقال تعالى (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ).

قال تعالى (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ).

فائدة : ٣

وشُبْهَتُهُمْ هَذِهِ الْبَاطِلَةُ رَدَّهَا اللَّهُ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ:

كَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا).

وَقَوْلِهِ (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا) أَيْ: لَا مَلَائِكَةً.

وَقَوْلِهِ (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ).

قال القرطبي: لو جعل الله الرسول إلى البشر ملكاً لفروا من مقاربته وما أنسوا به ، ولداخلهم من الرعب والاتقاء له ما يكفهم من كلامه ، ويمنعهم عن سؤاله ، فلا تعم المصلحة ، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم لقالوا: لست ملكاً وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك وعادوا إلى مثل حالهم.

(**قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ**) أي : قل لهم يا محمد : لو كان أهل الأرض ملائكة يمشون على أقدامهم كما يمشي الناس ساكنين في الأرض مستقرين فيها .

(**لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً**) أي لنزلنا عليهم رسولاً من الملائكة ، ولكن أهل الأرض بشر فالرسول إليهم بشر من جنسهم ، إذ جرت حكمة الله أن يرسل إلى كل قوم رسولاً من جنسهم ليمكنهم الفهم عنه ومخاطبته .

قال الشنقيطي : بيّن جل وعلا في هذه الآية : أن الرسول يلزم أن يكون من جنس المرسل إليهم. فلو كان مرسلاً رسولاً إلى الملائكة لنزل عليهم ملكاً مثلهم. أي وإذا ارسل إلى البشر أرسل لهم بشراً مثلهم.

وقد اوضح هذا المعنى في مواضع أخر. كقوله (وَقَالُواْ لولا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأمر ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ) ، وقوله : (وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحي إِلَيْهِمْ) ، وقوله (وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام وَيَمْشُونَ فِي الأسواق) .

قال ابن عطية : (لو كان في الأرض ملائكة) يسكنونها (مطمئنين) أي وادعين فيها مقيمين لكان الرسول إليهم من الملائكة ليقع الإفهام ، وأما البشر فلو بعث إليهم ملك لنفرت طباعهم من رؤيته ، ولم تحتمله أبصارهم ولا تجلدت له قلوبهم ، وإنما أراد الله جري أحوالهم على معتادها.

وقال ابن الجوزي : والمراد من الكلام أن رسول كل جنس ينبغي أن يكون منهم.

وقال أبو حيان : الظاهر أن قوله : (وما منع الناس) إخبار من الله تعالى عن السبب الضعيف الذي منعهم من الإيمان ، إذ ظهر لهم المعجز وهو استبعاد أن يبعث الله رسولاً إلى الخلق واحداً منهم ولم يكن ملكاً ، وبعد أن ظهر المعجز فيجب الإقرار والاعتراف برسالته فقولهم : لا بد أن يكون من الملائكة تحكم فاسد .

وقال أبو السعود : وإنما عبرّ عنه بالقول إيذاناً بأنه مجردُ قولٍ يقولونه بأفواههم من غير أن يكون له مفهومٌ ومِصْداقٌ ، وحصرُ المانعِ من الإيمان فيما ذكر مع أن لهم موانعَ شتّى لِما أنه معظمُها أو لأنه هو المانعُ بحسب الحال . (التفسير) .

من رحمة الله ولطفه بعباد أنه بعث رسولاً من جنسهم ليفقهوا عنه ويفهموا

كما قال تعالى (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ) .

وقال تعالى (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ)

(**قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**) أي عالم بما جئتكم به ، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني أشد الانتقام كما قال تعالى (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ) .

قال السعدي : تفسير السعدي :فمن شهادته لرسوله :ما أيده به من المعجزات، وما أنزل عليه من الآيات، ونصره على من عاداه وناوأه.

(**إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً**) أي عليماً بهم بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية ممن يستحق الشقاء والإضلال والإزاغة .

الفوائد :

١. سبب عدم إيمان كثير من الناس تعجبهم – جهلا منهم – أن يبعث رسولاً من البشر .

٢. حكمة الله في أنه يبعث الرسل من البشر ليفهموا عنهم .

٣. أن الله يقيم الحجة على الناس بإرسال الرسل ومعهم الآيات البينات .

٤. يجب أن يكون المرسَل من جنس المرسل إليهم .

٥. الله شهيد على صدق النبي ﷺ حيث نصره وأيده .

٦. عموم علم الله تعالى ، فلا تخفى عليه خافية .

(وَمَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سعِيرًا (٩٧) ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إَلاَّ كُفُورًا (٩٩) قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا(١٠٠)

[الإسراء : ٩٧-١٠٠] .

==========

(**وَمَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ**) يقول تعالى مخبراً عن تصرفه في خلقه ونفوذ حكمه وأنه لا معقب له ، بأنه من يهده فلا مضل له ، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ، أي يهدونهم .

كما قال تعالى (مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً) .

وفي هذا دليل أن المهتدي من هداه الله.

قال تعالى (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ).

وقال تعالى (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا).

وقال تعالى (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ).

وقال تعالى (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ).

وقال تعالى (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ).

وقال تعالى عن أهل الإيمان يوم القيامة (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ).

-وفيها أن الإضلال بيد الله، فمن أضله الله فلا هادي:

كما قال تعالى (فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

وقال تعالى (وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً).

وقال تعالى (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ).

وقال تعالى (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً).

وفي الحديث القدسي (كلكم ضال إلا من هديته).

ويقول الرسول ﷺ (والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا) متفق عليه.

- قال الشنقيطي: وَيُؤْخَذُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ أَنَّ الْعَبْدَ يَنْبَغِي لَهُ كَثْرَةُ التَّضَرُّعِ وَالِابْتِهَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَهْدِيَهُ وَلَا يُضِلَّهُ ; فَإِنَّ مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ لَا يَضِلُّ، وَمَنْ أَضَلَّهُ لَا هَادِيَ لَهُ، وَلِذَا ذَكَرَ عَنِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا.

(**وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ**) عن أنس . قال (قيل : يا رسول الله ! كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ قال : الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم) متفق عليه .

قال القرطبي : قوله تعالى (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ) فيه وجهان :

أحدهما : أن ذلك عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم ؛ من قول العرب : قدم القوم على وجوههم إذا أسرعوا.

الثاني : أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في هوانه وتعذيبه.

وهذا هو الصحيح؛ لحديث أنس (أن رجلاً قال: يا رسول الله، الذين يحشرون على وجوههم، أيحشر الكافر على وجهه؟ قال رسول الله ﷺ: أليس الذي أمشاه على الرجلين قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة "قال قتادة حين بلغه: بَلَى وعِزّة ربّنا) أخرجه البخاريّ ومسلم ، وحسبك. (القرطبي) .

وهذا القول هو الراجح ورجحه : النحاس ، والسمرقندي ، والواحدي ، والقرطبي ، والشوكاني ، والآلوسي .

قال الشوكاني : أنهم يسحبون على وجوههم حقيقة، كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في إهانته وتعذيبه، وهذا هو الصحيح. (فتح القدير)

ولم يذكر ابن كثير غير هذا القول ، واستظهره أبو حيان ، واكتفى به البغوي .

(**عُمْياً**) أي لا يبصرون .

(**وَبُكْماً**) يعني لا ينطقون .

(**وَصُمّاً**) أي لا يسمعون .

قال السعدي رحمه الله : يحشرهم الله على وجوههم ـ خزيا ـ عميا وبكما ، لا يبصرون ولا ينطقون .

-هذه الآية الكريمة يدل ظاهرها على أن الكفار يبعثون يوم القيامة عمياً وبكماً وصماً. وقد جاءت آيات أخر تدل على خلاف ذلك كقوله تعالى (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا) وكقوله (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا) ، وكقوله: (رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا) : والجواب :

أن الحشر على هذه الصفة يكون أول الحشر، تبكيتا لهم وإظهاراً لهوانهم على الله، ثم يجعل الله لهم بعد ذلك أسماعاً وأبصاراً ومنطقاً.

كما قال الله تعالى : (وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ) ، وقال سبحانه : (إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا) وقال عز وجل : (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ) .

فلا يسمعون ولا يبصرون ولا ينطقون في مبدأ الأمر ، ثم يردّ الله تعالى إليهم أبصارهم ونطقهم وسمعهم ، فيرون النار ويسمعون زفيرها ، وينطقون بما حكى الله تعالى عنهم في غير موضع.

قال ابن جرير رحمه الله : فإن قال قائل : وكيف وصف الله هؤلاء بأنهم يحشرون عميا وبكما وصما ، وقد قال : (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا) فأخبر أنهم يرون ، وقال (إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا) فأخبر أنهم يسمعون وينطقون ؟

قيل : جائز أن يكون ما وصفهم الله به من العَمى والبكم والصمم يكون صفتهم في حال حشرهم إلى موقف القيامة ، ثم يُجعل لهم أسماع وأبصار ومنطق في أحوال أُخَر غير حال الحشر . (الطبري) .

وقال أبو حيان : الظاهر أن قوله { عمياً وبكماً وصماً } هو حقيقة وذلك عند قيامهم من قبورهم ، ثم يرد الله إليهم أبصارهم وسمعهم ونطقهم فيرون النار ويسمعون زفيرها وينطقون بما حكى الله عنهم.

وقال ابن كثير رحمه الله: قوله: (عُمْيًا) أي : لا يبصرون (وَبُكْمًا) يعني : لا ينطقون (وَصُمًّا) : لا يسمعون . وهذا يكون في حال دون حال .

قال الشوكاني : والأبكم : الذي لا ينطق ، والأصمّ : الذي لا يسمع ، وهذه هيئة يبعثون عليها في أقبح صورة ، وأشنع منظر ، قد جمع الله لهم بين عمى البصر وعدم النطق وعدم السمع مع كونهم مسحوبين على وجوههم .

(**مَّأْوَاهُمْ**) منقلبهم ومصيرهم .

(**جَهَنَّمُ**) التي جمعت كل همّ وغمّ وعذاب .

(**كُلَّمَا خَبَتْ**) أي سكنت وخمد لهيبها .

(**زِدْنَاهُمْ سَعِيراً**) أي لهباً ووهجاً وجمراً كما قال تعالى (فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً) .

قال تعالى (وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ) .

وقال سُبحانَه (فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا) .

وقال عزَّ وجَلَّ (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) .

وقال تبارك وتعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ) .

قال ابنُ الجوزي: قال المفسّرونَ: وذلك أنَّها تأكُلُهم، فإذا لم تُبقِ منهم شيئًا وصاروا فَحمًا ولم تجِدْ شَيئًا تأكُلُه، سكَنَت، فيُعادونَ خَلقًا جديدًا، فتعودُ لهم .

وقال القرطبي : وسكونُ التهائِها مِنْ غيرِ نقصانٍ في آلامِهم، ولا تخفيفٍ عنهم مِنْ عَذابِهم .

(**ذَلِكَ جَزَآؤُهُم**) أي الذي جازيناهم به من البعث على العمى والبكم والصم ، جزاؤهم الذي يستحقونه .

(**بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا**) لأنهم كذبوا بآياتنا وأدلتنا وحجتنا ، واستبعدوا وقوع البعث ، الذي أخبرت به الرسل ، ونطقت به الكتب

(**وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً**) أي إذا كنا عظاماً نخرة ، وذرات متفتتة .

أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً) أي بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك والتفرق والذهاب إلى الأرض نعاد مرة ثانية ؟

وقد رد الله تعالى عليهم بقوله :

(**أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ**) وهي أكبر من خلق الناس

(**قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ**) بلى ، إنه على ذلك قدير .

فاحتج تعالى عليهم ونبههم على قدرته على ذلك بأنه خلق السموات والأرض ، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك .

كما قال تعالى (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ) .

وقال تعالى (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) .

(**وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ**) أي جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدرة لا بد من انقضائها ، كما قال تعالى (وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ) .

قيل: المرادُ بالأجَلِ هنا: أجَلُ مَوتِهم في الدُّنيا.

وممَّن ذهب إلى ذلك: القرطبي.

وقيل: المراد: أجَلُ وُقوعِ البَعثِ يومَ القيامةِ.

وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير.

وممَّن جمع بين هذين المعنَيَينِ: الواحديُّ.

قال ابن عطية: الأجَلُ هنا يحتَمِلُ أن يريدَ به القيامةَ، ويحتَمِلُ أن يريدَ أجَلَ الموتِ... ومقصِدُ هذا الكلام: بيانُ قُدرةِ الله عزَّ وجَلَّ ومِلكِه لخَلقِه، وبتقريرِ ذلك يَقوى جوازُ بعثِه لهم حين يشاءُ لا إلهَ إلَّا هو .

فَأَبَى الظَّالِمُونَ) أي بعد قيام الحجة عليهم .

إِلاَّ كُفُوراً) إلا تمادياً في باطلهم وضلالهم وتكذيبهم بالبعث .

(**قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي**) التي لا تنفد ولا تبيد .

(**إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ**) أي إذاً لبخلتم به وامتنعتم عن الإنفاق خوفاً من نفادها، مع أنه من المحال أن تنفد خزائن الله، ولكن الإنسان مطبوع على الشح والبخل ولهذا قال :

(**وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً**) أي بخيلاً منوعاً .

كما قال تعالى (أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً) أي لو أن لهم نصيباً في ملك الله لما أعطوا أحداً شيئاً ولا مقدار نقير .

فالإنسان هنا المراد به جنس الإنسان فالآية عامة .

ورجح هذا القول : الزمخشري ، وابن عطية ، وابن كثير ، والقاسمي .

وقيل : المراد بالإنسان هنا المشرك .

ورجحه الزجاج ، وابن الجوزي .

قال ابن كثير : والله يصف الإنسان من حيث هو إلا من وفقه الله وهداه ، فإن البخل والجزع والهلع صفة له ، كما قال تعالى (إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً . إلا المصلين) .

وقال ابنُ عطيَّةَ: يريدُ أنَّ في طَبعِه ومُنتهى نَظَرِه أنَّ الأشياءَ تَتناهى وتفنى، فهو لو مَلَك خزائِنَ رَحمةِ الله لأمسَكَ خَشيةَ الفَقرِ، وكذلك يظُنُّ أنَّ قُدرةَ اللهِ تعالى تَقِفُ دون البَعثِ، والأمرُ ليس كذلك، بل قُدرتُه تعالى لا تتناهى؛ فهو مُخترِعٌ مِنَ الخَلقِ ما يشاء، ويخترِعُ مِن الرَّحمةِ الأرزاقَ، فلا يخافُ نَفادَ خَزائِنِ رَحمتِه .

وقال البقاعي: فلا تراه إلا مضيقًا في النفقةِ على نفسِه، ومَن تلزمُه نفقتُه، شديدًا في ذلك، وإن اتسعَتْ أحوالُه، وزادتْ على الحدِّ أموالُه .

وقال الماوردي : لو ملك أحد من المخلوقين من خزائن الله تعالى ، لما جاد كجود الله تعالى ، لأمرين.

أحدهما : أنه لا بد أن يُمسِك منه لنفقته ومنفعته.

والثاني : أنه يخاف الفقر ، والله تعالى منزَّه في جُوده عن الحالين.

الفوائد :

١. أن الهداية بيد الله .

٢. سؤال الله الهداية .

٣. من أراد الله هدايته فلن يستطيع أحد أن يضله .

٤. من أضله الله فلن يستطيع أحد أن يهديه .

٥. إثبات يوم القيامة .

٦. إثبات الحشر والبعث .

٧. أن من عذاب الكفار أنهم يحشرون على وجوههم .

٨. من عذاب الكفار أيضاً أنهم يحشرون عمياً وبكماً وصماً .

٩. الجزاء من جنس العمل .

١٠. أن الكافر مأواه جهنم .

١١. أن إنكار البعث كفر .

١٢. وجوب الإيمان بالبعث .

١٣. من أدلة البعث خلق السماوات والأرض .

١٤. كرم الله .

١٥. أن الأصل في الإنسان الشح والبخل والإمساك إلا من وفقه الله وهداه .

١٦. الحرص على الكرم والإنفاق في طاعة الله .

(**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤)**) .

[الإسراء : ١٠١-١٠٤] .

==========

(**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ**) يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون، ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها، كفروا بها وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً .

وهي العصا واليد والسنين والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات .

قال ابن عطية: قَولُه تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) اتَّفَق المتأوِّلونَ والرُّواةُ أنَّ الآياتِ الخَمسَ التي في سورةِ الأعرافِ هي مِن هذه التِّسعِ، وهي: الطُّوفانُ، والجَرادُ، والقُمَّلُ، والضَّفادِعُ، والدَّمُ، واختلفوا في الأربَعِ .

وقال الشوكاني: قال أَكثرُ المفسرينَ: الآياتُ التِّسعُ: هي الطُّوفانُ، والجرادُ، والقُمَّلُ، والضَّفادِعُ، والدَّمُ، والعصا، واليدُ، والسِّنينَ، ونقصُ الثَّمَراتِ .

(**فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءهُمْ**) أي فاسأل يا محمد بني إسرائيل عما جرى بين موسى وفرعون فإنهم يعلمونها مما لديهم في التوراة .

أي : فاسأل يا نبي الله المعاصرين لك من بني إسرائيل .

وعلى هذا : فالخطاب للنبي ﷺ .

ورجح هذا القول : الطبري ، والبغوي ، وابن عطية ، وابن جزي .

قال أبو حيان : والظاهر أنه خطاب للرسول محمد ﷺ أمره أن يسألهم عما أعلمه به من غيب القصة.

وقال ابن جزي : (فَسْئَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ) أي: اسأل المعاصرين لك من بني إسرائيل عما ذكرنا من قصة موسى لتزداد يقيناً، والآية على هذا خطاب لمحمد ﷺ، وقال الزمخشري: إن المعنى قلنا لموسى اسأل بني إسرائيل من فرعون أي اطلب منه أن يرسلهم معك، فهو كقوله : أن أرسل معنا بني إسرائيل، فلا يرد قوله اسأل لموسى على إضمار القول، وقال أيضاً: يحتمل أن يكون المعنى: اسأل بني إسرائيل أن يعضدوك ويكونوا معك ، وهذا أيضاً على أن يكون الخطاب لموسى، والأول أظهر . (التسهيل)

قال ابن الجوزي : قوله تعالى (فَاسْأَلْ بني إِسرائيل) قرأ الجمهور : "فاسأل" على معنى الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإنما أُمر أن يسأل من آمن منهم عما أخبر [به] عنهم ، ليكون حُجَّة على من لم يؤمن منهم.

وقيل : الخطاب لموسى ، أي : فقلنا لموسى سل بني إسرائيل ، أي : سلهم من فرعون ، وقل له : أرسل معي بني إسرائيل .

ورجح هذا القول : الزمخشري ، والسمرقندي .

قال الرازي : وليس المطلوب من سؤال بني إسرائيل أن يستفيد هذا العلم منهم ، بل المقصود أن يظهر لعامة اليهود وعلمائهم صدق ما ذكره الرسول فيكون هذا السؤال سؤال استشهاد .

(**فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ**) مع هذه الآيات .

(**إِنِّيَ لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً**) قيل : أي : سُحرت فكلامك مختل .

ورجح هذا القول : أبو حيان ، والبغوي ، والزمخشري ، وابن عطية ، وأبو السعود ، والشوكاني .

وقيل : معنى مسحوراً ، أي : ساحراً ، فوضع مفعولاً في موضع فاعل .

ورجح هذا القول : الطبري ، والنحاس ، والواحدي .

قال الطبري : أعطيت علم السحر .

(**قَالَ**) موسى

(**لَقَدْ عَلِمْتَ**) يا فرعون .

(**مَا أَنزَلَ هَؤُلاء**) الآيات .

(**إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ**) أي حججاً وأدلة على صدق ما جئتك به .

(**وَإِنِّيَ لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُوراً**) أي هالكاً ، وقيل : ملعوناً .

قال ابن الجوزي : قوله تعالى (وإني لأظنك) قال أكثر المفسرين : الظن هاهنا بمعنى العِلم .

وقال القرطبي : الظن هنا بمعنى التحقيق.

(**فَأَرَادَ**) فرعون .

(**أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ**) أي يخليهم منها ويزيلهم عنها .

(**فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعاً**) أي فأغرقنا فرعون وجنده أجمعين في البحر .

(**وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ**) أي قلنا لبني إسرائيل من بعد إغراق فرعون وجنده اسكنوا أرض مصر .

قال ابن الجوزي : قال العلماء : وفي هذه الآية تنبيه على نصرة رسول الله ﷺ ، لأنه لما خرج موسى فطلبه فرعون ، هلك فرعون وملَك موسى ، وكذلك أظهر الله نبيَّه بعد خروجه من مكة حتى رجع إليها ظاهراً عليها.

وقال ابن كثير : وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن السورة مكية قبل الهجرة ، وكذلك وقع ، فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها ، كما قال تعالى (وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا ..) ولهذا أورث الله رسوله مكة فدخلها ، وقهر أهلها ثم أطلقهم حلماً وكرماً ، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها ، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم .

(**فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً**) أي جميعاً ليجازي كل عامل بعمله .

الفوائد :

١. إثبات رسالة موسى .

٢. أن الله تبارك وتعالى يؤيد الأنبياء بالآيات البينات التي تدل على صدقهم .

٣. عظم ووضوح الآيات التي أوتيها موسى .

٤. شدة عتو فرعون وكفره بالآيات التي أرسل بها موسى .

٥. تسلية لكل داعية إلى الله تعالى .

٦. عادة كل الأعداء اتهام الدعاة إلى الله بالسحر والجنون .

٧. قوة موسى بالحق .

٨. استكبار فرعون مع علمه بصدق موسى .

٩. قوة يقين موسى بربه وثقته بهلاك فرعون .

١٠. نصر الله موسى على فرعون .

١١. قوة الله تعالى حيث أغرق فرعون ومن معه .

١٢. سيجتمع الجميع عند الله يوم القيامة للجزاء والحساب .

١٣. إثبات القيامة .

(وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (١٠٦)

[الإسراء : ١٠٥-١٠٦] .

==========

(وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ) أي أنزلنا هذا القرآن متلبساً بالحق ، لا يعتريه شك أو ريب .

كما قال تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه) .

قال الشنقيطي : بيَّنَ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّهُ أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ بِالْحَقِّ : أَيْ مُتَلَبِّساً بِهِ مُتَضَمِّنًا لَهُ : فَكُلُّ مَا فِيهِ حَقٌّ فَأَخْبَارُهُ صِدْقٌ ، وَأَحْكَامُهُ عَدْلٌ : كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) وَكَيْفَ لَا وَقَدْ أَنْزَلَهُ جَلَّ وَعَلَا بِعِلْمِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى (لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ) .

قال الرازي : أن الحق هو الثابت الذي لا يزول كما أن الباطل هو الزائل الذاهب ، وهذا الكتاب الكريم مشتمل على أشياء لا تزول وذلك لأنه مشتمل على دلائل التوحيد وصفات الجلال والإكرام وعلى تعظيم الملائكة وتقرير نبوة الأنبياء وإثبات الحشر والنشر والقيامة وكل ذلك مما لا يقبل الزوال ومشتمل أيضاً على شريعة باقية لا يتطرق إليها النسخ والنقض والتحريف ، وأيضاً فهذا الكتاب كتاب تكفل الله بحفظه عن تحريف الزائغين وتبديل الجاهلين كما قال (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لحافظون) فكان هذا الكتاب حقاً من كل الوجوه. .

(وَبِالْحَقِّ نَزَلَ) أي : وصل إليك يا محمد محفوظاً محروساً لم يشب بغيره ولا زيد فيه ولا نقص منه .

قال الشنقيطي : وَقَوْلُهُ (وَبِالْحَقِّ نَزَلَ) يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ فِيهِ تَغْيِيرٌ وَلَا تَبْدِيلٌ فِي طَرِيقِ إِنْزَالِهِ .

لِأَنَّ الرَّسُولَ الْمُؤْتَمَنَ عَلَى إِنْزَالِهِ قَوِيٌّ لَا يُغْلَبُ عَلَيْهِ حَتَّى يُغَيِّرَ فِيهِ ، أَمِينٌ لَا يُغَيِّرُ وَلَا يُبَدِّلُ ، كَمَا أَشَارَ إِلَى هَذَا بِقَوْلِهِ (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ) وَقَوْلِهِ (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : لَقَوْلُ رَسُولٍ ، أَيْ لَتَبْلِيغُهُ عَنْ رَبِّهِ ، بِدَلَالَةِ لَفْظِ الرَّسُولِ ؛ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مُرْسَلٌ بِهِ .

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ) يا محمد .

(إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً) مبشراً لمن أطاعك من المؤمنين بالجنة ، ونذيراً لمن عصاك من الكافرين بالنار .

كما قال تعالى (قال تعالى (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) .

وقال تعالى (رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) .

وقال تعالى (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) .

وقال تعالى (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً) .

(**وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ**) أي بيناه وأوضحناه ، وفرقنا فيه بين الحق والباطل .

قال القرطبي : قرأ جمهور الناس "فَرَقناه" بتخفيف الراء ، ومعناه بيناه وأوضحناه ، وفرقنا فيه بين الحق والباطل .

(**لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ**) أي لتبلغه الناس وتتلوه عليهم ، أي :

(**عَلَى مُكْثٍ**) أي مهل وتُؤدة وتثبُّتٍ فإنه أيسرُ للحفظ وأعونُ على الفهم .

كما قال تعالى (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) .

وقال تبارك وتعالى (كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) .

وقال سُبحانَه (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا) .

وقال عزَّ وجلَّ (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ) .

قال الشنقيطي : قَرَأَ هَذَا الْحَرْفَ عَامَّةُ الْقُرَّاءِ « فَرَقْنَاهُ » بِالتَّخْفِيفِ، أَيْ بَيَّنَّاهُ وَأَوْضَحْنَاهُ ، وَفَصَّلْنَاهُ وَفَرَّقْنَا بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ. وَقَرَأَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ (فَرَّقْنَاهُ) بِالتَّشْدِيدِ ، أَيْ أَنْزَلْنَاهُ مُفَرَّقًا بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ فِي ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً . وَمِنْ إِطْلَاقِ فَرَقَ بِمَعْنَى بَيَّنَ وَفَصَّلَ قَوْلُهُ تَعَالَى (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) .

وَقَدْ بَيَّنَ جَلَّ وَعَلَا أَنَّهُ بَيَّنَ هَذَا الْقُرْآنَ لِنَبِيِّهِ لِيَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ، أَيْ مَهَلٍ وَتُؤَدَةٍ وَتَثَبُّتٍ .

وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْرَأَ إِلَّا كَذَلِكَ ، وَقَدْ أَمَرَ تَعَالَى بِمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا) وَيَدُلُّ لِذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) وَقَوْلُهُ تَعَالَى (وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً) أي شيئاً بعد شيء . (أضواء) .

وهكذا فعل الصحابة ﷺ فإنهم لم يكن القرآن بالنسبة لهم متعة عقلية ونفسية فحسب ، وإنما كان القرآن بجانب حبهم الصادق لقراءته وللاستماع إليه منهجًا لحياتهم ، يطبقون أحكامه وأوامره ونواهيه وآدابه ... في جميع أحوالهم الدينية والدنيوية .

قال أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن ، أنهم كانوا يستقرئون عن النبي ﷺ ، وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يتركوها حتى يعملوا بما فيها " فتعلمنا القرآن والعمل جميعًا .

(**وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً**) يا مُحَمَّدُ- مُفَرَّقًا شيئًا بعد شَيءٍ في مدة تصل إلى ثلاث وعشرين سنة ، على حسب ما تقتضيه حكمتنا ، وعلى حسب الحوادث والمصالح .

الحكمة من نزول القرآن منجماً :

لقد نزل القرآنُ على رسول الله ﷺ متفرقًا حسب الوقائع والمناسبات وفي ذلك حِكَم بالغة:

أ-تثبيت قلب النبي ﷺ .

كما قال تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) .

ب-تيسير حفظ القرآن وفهمه: إن نزول القرآن مُفَرَّقًا يسهل للناس حفظه وفهمه، ولا سيما إذا كانوا أُميين كالعرب الذين نزل القرآن بلغتهم .

ج-تنشيط نفوس المؤمنين لقبول ما نزل من القرآن والعمل به .

د- مسايرة الحوادث والتدرج في التشريع .

الفوائد :

١. الثناء على القرآن وأنه حق وأحكامه كلها حق .

٢. إثبات أن القرآن منزل.

٣. إثبات علو الله.

٤. وظيفة الرسل التبشير والإنذار .

٥. هداية التوفيق بيد الله تعالى .

٦. تيسير القرآن لحفظه وتعليمه للناس .

٧. أن التؤدة والتأني في طلب العلم .

٨. أن القرآن نزل منجماً على رسول الله ﷺ .

(قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)) .

[الإسراء : ١٠٧-١٠٩] .

==========

(**قُلْ**) يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ (قل) يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جئتهم به من هذا القرآن العظيم .

(**آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ**) أي سواء آمنتم به أم لا ، فهو حق في نفسه أنزله الله ونوّه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسله .

قال ابنُ عطيَّةَ: قَولُه (قُلْ آمِنُوا بِهِ) تحقيرٌ للكُفَّارِ، وفي ضِمنِه ضَربٌ مِن التوَعُّدِ .

وقال القُرطبي: قَولُه تعالى (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا) يعني القُرآنَ، وهذا مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ على وَجهِ التَّكبيتِ لهم والتَّهديدِ، لا على وَجهِ التَّخييرِ .

وقال الماوردي : يعني القرآن ، وهذا من الله تعالى على وجه التبكيت لهم والتهديد ، لا على وجه التخيير.

وقال الشوكاني : أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقول للكافرين المقترحين للآيات : آمنوا به أو لا تؤمنوا ، فسواء إيمانكم به وامتناعكم عنه لا يزيده ذلك ولا ينقصه ، وفي هذا وعيد شديد لأمره بالإعراض عنهم واحتقارهم .

(**إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ**) أي من صالحي أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم ويقيمونه ولم يبدلوه ولا حرفوه .

(**إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ**) القرآن .

(**يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً**) أي على وجوههم ، شكراً لله تعالى على ما أنعم به عليهم من جعله إياهم أهلاً إن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب .

قال ابن عاشور : وذكر الذقن للدلالة على تمكينهم الوجوه كلها من الأرض من قوة الرغبة في السجود لما فيه من استحضار الخضوع لله تعالى.

قال القرطبي : قوله تعالى (وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ) هذه مبالغة في صفتهم ومدح لهم.

وحقّ لكل من توسّم بالعلم وحصّل منه شيئاً أن يجري إلى هذه المرتبة ، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويذل.

وفي مسند الدّارميّ أبي محمد عن التَّيْميّ قال : من أوتيَ من العلم ما لم يبكّه لخليق ألا يكون أوتي علماً؛ لأن الله تعالى نعت العلماء، ثم تلا هذه الآية. (القرطبي) .

– الأذقان : جمع ذقن وهو أسفل الوجه .

قال ابن عاشور: ذُكِرَ الذَّقَنُ للدَّلالةِ على تمكينِهم الوجوهَ كُلَّها من الأرضِ مِن قوَّةِ الرَّغبةِ في السجودِ؛ لِما فيه من استحضارِ الخُضوعِ لله تعالى .

وقال أيضاً : المرادُ بالذين أوتوا العلمَ، أمثالُ: ورقةَ بنِ نوفَل، فقد تسامعَ أهلُ مكَّةَ بشهادتِه للنبيِّ ﷺ ومَن آمنَ بعد نزولِ هذه السورة مِن مِثلِ: عبدِ الله بن سلام، ومعيقيب، وسلمان الفارسي. ففي هذه الآية إخبارٌ بمَغيبٍ . (ابن عاشور) .

ومما يدلُّ على أنَّ هؤلاء كانوا مِن أهلِ الكتابِ ما حكاه الله عنهم بعدَ ذلك؛ مِن قولهم: إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا أي: ببعثِ محمَّدٍ ﷺ ؛ لأنَّ الوعدَ ببعثتِه سَبَق في كتابِهم، فهم كانوا ينتظرونَ إنجازَ ذلك الوعدِ. يُنظر: (تفسير الرازي)

(**وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا**) أي تعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة ، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على ألسنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد ﷺ .

قال ابن عاشور : عطفت (ويقولون سبحان ربنا) على (يخرون) للإشارة إلى أنهم يجمعون بين الفعل الدال على الخضوع والقول الدال على التنزيه والتعظيم.

ونظيره قوله : (خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم) .

(**إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً**) أي : إنَّ وعْدَ ربّنا بإرسالِ نبيِّه محمَّدٍ ﷺ ، وإنزالِ القُرآنِ عليه كائِنٌ وواقِعٌ .

واختار هذا القول : الواحدي، والزمخشري، وابن الجوزي، والرازي ، وأبو حيان، وابن القيم، وابن كثير، والقاسمي.

قال ابن الجوزي : وقالوا (إن كان وعد ربنا) بإنزال القرآن وبعثِ محمد ﷺ (لمفعولاً) واللام دخلت للتوكيد. ... وهؤلاء قوم كانوا يسمعون أن الله باعثٌ نبيّاً من العرب ، ومُنزِلٌ عليه كتاباً ، فلما عاينوا ذلك ، حمدوا الله تعالى على إنجاز الوعد .

وقال ابن القيم : وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ؛ لأنَّ الله سبحانَه وتعالى وعَد بإرسالِ نبيٍّ في آخرِ الزمانِ يملأُ الأرضَ نورًا وهدًى، فلما سمِعوا القرآنَ علِموا أنَّ الله أنجَز ذلك الوعدَ الذي وعَد به .

وقال الواحدي: وهذا يدلُّ على أنَّ هؤلاء كانوا مِن أهلِ الكتابِ؛ لأنَّ الوعدَ ببعثِ محمدٍ ﷺ سبَق في كتابِهم، فهم كانوا ينتظرونَ ذلك الوعد .

وقيل: المرادُ به البَعثُ والجَزاءُ على الأعمالِ ثَوابًا أو عِقابًا.

وممَّن قال بهذا المعنى : السعدي.

قال السعدي : (إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا) بالبعث (لَمَفْعُولاً) لا خُلف فيه ولا شك .

(**وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ**) على وجوههم .

(**يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ**) القرآن .

(**خُشُوعاً**) إيماناً وتصديقاً وتسليماً .

أي : ويَزيدُهم القُرآنُ خُضوعًا لله، واستِكانةً له، ورِقَّةً ولِينًا في قُلوبِهم .

قال القرطبي: والخشوع: هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون وتواضع.

قال ابن القيم: وأجمع العارفون على أن الخشوع محله القلب وثمرته على الجوارح.

قال ابن رجب: فأصل الخشوع خشوع القلب، وهو انكساره لله وخضوعه وسكونه عن التفاته إلى غير من هو بين يديه، فإذا خشع القلب خشعت الجوارح كلها تبعاً لخشوعه، ولهذا كان النبي ﷺ يقول في ركوعه: خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وما استقل به قدمي.

وقال الشنقيطي : وَهُوَ فِي الشَّرْعِ خَشْيَةٌ مِنَ اللَّهِ تَكُونُ فِي الْقَلْبِ ، فَتَظْهَرُ آثَارُهَا عَلَى الْجَوَارِحِ .

فائدة : ١

من صفات أهل العلم البكاء عند الاستماع لآيات الله :

قال تعالى (إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً).

وهذه الآية (... يبكون ويزيدهم خشوعاً) .

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ، قَالَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ قَالَ «إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي». فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيداً) رَفَعْتُ رَأْسِي أَوْ غَمَزَنِي رَجُلٌ إِلَى جَنْبِي فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ) متفق عليه.

فائدة : ٢

هذه الآية الكريمة دلت على أنَّ مِنْ قَوْمِ مُوسَى أمة طيبة، على الحق وهذا المعنى جاء مُصرَّحًا بِهِ فِي آيات كثيرة.

قال تعالى (وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) .

وقال تعالى (لَيْسُوا سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ).

وقال تعالى (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لله لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ).

فائدة : ٣

قد بيّن القرآن أن هذه الطائفة من أهل الكتاب –التي كانت متمسكة بشريعة موسى وبما في التوراة إذا كانت على ذلك حتى آمنت بنبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – أنها تُؤتى أجرها مرتين، أجر إيمانها الأول بموسى وكتابه، وإيمانها بمحمد وكتابه .

قال تعالى (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا).

وقال ﷺ (ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: ... ورجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبي ﷺ فآمن به) متفق عليه .

فائدة : ٤

الثناء على من تدبر القرآن وتأثر به.

قال تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ).

فائدة : ٥

فضل البكاء من خشية الله :

قال تعالى (وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً).

وقال تعالى (أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ. وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ).

وقال ﷺ (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، قال: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين). متفق عليه

وقال ﷺ (لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع) رواه الترمذي.

وقال ﷺ (عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله ...) رواه الترمذي.

وقال ﷺ (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: ... ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه) متفق عليه.

فائدة : ٦

فضل الخشوع :

فهو يسهل فعل الطاعة.

كما قال تعالى (وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ) .

قال السعدي: أي فإنها سهلة عليهم خفيفة؛ لأن الخشوع وخشية الله ورجاء ما عنده يوجب له فعلها منشرحًا بها صدره، لترقُّبه للثواب وخشيته من العقاب. كما أن الخشوع هو العلم الحقيقي.

و**قال الشوكاني:** (إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ) لأنهم لما يعلمونه من تضاعف الأجر، وتوفر الجزاء، والظفر بما وعد الله به من عظيم الثواب، تسهل عليهم تلك المتاعب، ويتذلل لهم ما يرتكبونه من المصاعب، بل يصير ذلك لذة لهم خالصة، وراحة عندهم محضة. ولذلك قيل: من عرف ما يطلب، هان عليه ما يبذل، ومن أيقن بالخلف، جاد بالعطية.

وهو من علامات المؤمنين المفلحين.

قال تعالى (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ).

ومن صفات الأنبياء.

قال تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ).

ولهم مغفرة وأجراً عظيماً.

قال تعالى (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً).

وهو أول ما يرفع.

قال ﷺ (يوشك أن تدخل مسجد جماعة فلا ترى خاشعاً).

وعاتب الله الصحابة به.

قال تعالى (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ).

وحث النبي ﷺ على الخشوع.

قال ﷺ (هل ترون قبلتي ههنا، فوالله ما يخفى علي ركوعكم ولا خشوكم) متفق عليه.

والخشوع من أسباب دخول الجنة.

قال ﷺ (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: ... ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه) متفق عليه.

وأثنى الله على من آمن من أهل الكتاب بخشوعه.

قال تعالى (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً).
وكما في هذه الآية .

والخشوع من أسباب قبول العمل.

قال ﷺ (من توضأ نحو وضوئي هذا، ثن صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه بشيء إلا غفر له ما تقدم من ذنبه) متفق عليه.

قال سهل: من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان.

وقد استعاذ النبي ﷺ من قلب لا يخشع :

عنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ. قال: كان رسول الله ﷺ يَقُول (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا) رواه مسلم .

فائدة : ٧

قيل :

من ترك فضول الكلام منح الحكمة.

ومن ترك فضول الضحك منح الهيبة.

ومن ترك فضول الطعام منح لذة العبادة.

ومن ترك فضول النظر منح الخشوع.

(قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١١٠)) .

[الإسراء : ١١٠] .

==========

(قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى) اختلف في معناها :

فقيل : قُلْ يا مُحَمَّدُ – لهؤلاء المشركين – إنْ شِئْتُم فقُولوا في دُعائِكم: يا اللهُ، وإنْ شِئْتُم فقُولوا: يا رَحمنُ؛ فكِلاهما اسمٌ لله الواحِدِ الذي لا شَريكَ له .

كما قال تعالى (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) .

وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، وابنُ كثير.

قال ابنُ تيميَّةَ : أمَّا قَولُه تعالى: قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ الآية: فهذا الدُّعاءُ: المشهورُ أنَّه دُعاءُ المسألةِ، وهو سَبَبُ النُّزولِ. قالوا: كان النبيُّ ﷺ يدعو ربَّه فيَقولُ مَرَّةً: «يا اللهُ» ومَرَّةً: «يا رحمنُ»، فظَنَّ المشرِكونَ أنَّه يدعو إلهَينِ، فأنزل اللهُ هذه الآيةَ .

وقيل: المرادُ: قُلْ –يا مُحَمَّدُ– للمُؤمنينَ.

وممَّن قال بهذا: الواحدي.

أمر الله تعالى عباده في هذه الآية الكريمة : أن يدعوه بما شاءوا من أسمائه ، إن شاءوا قالوا : يا الله ، وإن شاءوا قالوا : يا رحمن ، فإنه ذو الأسماء الحسنى .

كما قال تعالى (وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) .

وقال تعالى (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

(**وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ**) أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبون القرآن .

(**وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا**) عن أصحابك ، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك .

(**وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً**) أي اقصد طريقاً وسطاً بين الجهر والمخافتة .

عن ابن عباس قال : كان رسول ﷺ يرفع صوته بالقراءة ، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن وسبوا من أنزله فنزلت .

وقيل : المراد بالصلاة هنا الدعاء ، أي : لا تجهر بدعائك ولا تخافت به .

عن عائشة قالت (أنزل ذلك في الدعاء) رواه البخاري .

وقيل : كما تقدم أنه نهي عن الجهر بالقراءة في الصلاة .

واختاره : الطبري ، والسمرقندي ، والبغوي ، والقرطبي ، والشوكاني ، والآلوسي .

فائدة : ١

أن لله أسماء ، وكلها حسنى .

كما قال تعالى أيضاً في الأعراف (وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى) له وحده الأسماء الكاملة في الحسن.

والحسنى تأنيث الأحسن، والمعنى: لله الأسماء التي هي أحسن الأسماء وأجلها، لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها.

فأسماء الله كلها حسنى بالغة الحسن غايته، فليس فيها نقص بوجه من الوجوه ولا بحال من الأحوال.

وقد ذكر سبحانه أن له الأسماء الحسنى في أربعة مواضع من القرآن الكريم:

قال تعالى: (وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

وقال تعالى: (قُلِ ادْعُوا اللّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى).

وقال تعالى: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى).

وقال تعالى: (هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى).

مثال: (الحي) من أسماء الله متضمن للحياة الكاملة التي لم تسبق بعدم ولا يلحقها زوال.

مثال: (العليم) اسم من أسماء الله تعالى متضمن للعلم الكامل الذي لم يسبق بجهل ولا يلحقه نسيان.

والحسن في أسماء الله تعالى، يكون باعتبار كل اسم على انفراده، ويكون باعتبار جمعه إلى غيره فيحصل بجمع الاسم إلى الآخر كمال فوق كمال.

مثال ذلك (العزيز الحكيم) فإن الله تعالى يجمع بينهما في القرآن كثيراً، فيكون كل منهما دالاً على الكمال الخاص الذي يقتضيه، وهو العزة في العزيز، والحكم والحكمة في الحكيم، والجمع بينهما دال على كمال آخر وهو أن عزته تعالى مقرونة بالحكمة، فعزته لا تقتضي ظلماً وجوراً وسوء فعل، كما قد يكون من أعزاء المخلوقين، فإن العزيز منهم قد تأخذه العزة بالإثم، فيظلم ويجور ويسيء التصرف. وكذلك حكمه تعالى وحكمته مقرونان بالعز الكامل بخلاف حكم المخلوق وحكمته فإنهما يعتريهما الذل.

فائدة : ٢

أسماء الله غير محصورة.

عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ (ما قال عبد قط إذا أصابه هَمٌّ وحَزَنٌ: اللهمِ إني عبدُك وابنُ عبدك وابنُ أَمَتك، ناصيتي بيدكِ، ماضٍ فيَّ حُكْمُك، عدْلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سمَّيْتِ به نفسَك أو أنزلتَه في كتابك، أو عَلّمته أحداً من خَلْقك، أو استأثرت به في علم الغيبِ عندك، أن تجعل القرآنَ ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاءَ حزني، وذَهَاب هَمّي، إلاَّ أذهب الله عز وجل هَمَّه، وأبدله مكان حُزْنه فَرَحاً"، قالوا: يا رسول الله، ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات؟، قال: "أجَلْ، ينبغي لمن سمعهنَّ أن يتعلمهنّ) رواه أحمد.

وما استأثر الله تعالى به في علم الغيب لا يمكن لأحد حصره ولا الإحاطة به.

فقوله ﷺ (أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ) دليل على أن من أسماء الله تعالى الحسنى ما استأثر به في علم الغيب عنده، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه، وهذا يدل على أنها أكثر من تسعة وتسعين.

قال شيخ الإسلام عن هذا الحديث: فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِلَّهِ أَسْمَاءً فَوْقَ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ.

وقال أيضاً: قَالَ الخطابي وَغَيْرُهُ: فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَهُ أَسْمَاءً اسْتَأْثَرَ بِهَا وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ: (إنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ) أَنَّ فِي أَسْمَائِهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ: إنَّ لِي أَلْفَ دِرْهَمٍ أَعْدَدْتهَا لِلصَّدَقَةِ وَإِنْ كَانَ مَالُهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. وَاَللَّهُ فِي الْقُرْآنِ قَالَ: (وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) فَأَمَرَ أَنْ يُدْعَى بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى مُطْلَقًا، وَلَمْ يَقُلْ: لَيْسَتْ أَسْمَاؤُهُ الْحُسْنَى إلا تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا.

وقال الشيخ ابن عثيمين: أسماء الله ليست محصورة بعدد معين، والدليل على ذلك قوله ﷺ في الحديث الصحيح (اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك. . إلى أن قال: أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك).

وما استأثر الله به في علم الغيب لا يمكن أن يُعلم به، وما ليس معلوماً ليس محصوراً.

فائدة : ٣

فإن قيل: ما الجواب عن حديث الباب (إن لله تسعة وتسعين اسماً ...) ؟

قال العلماء: هذا لا يدل على الحصر بهذا العدد، ولو كان المراد الحصر لكانت العبارة: إن أسماء الله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة.

قال النووي: وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاء عَلَى أَنَّ هَذَا الْحَدِيث لَيْسَ فِيهِ حَصْر لِأَسْمَائِهِ سُبْحَانه وَتَعَالَى، فَلَيْسَ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ أَسْمَاء غَيْر هَذِهِ التِّسْعَة وَالتِّسْعِينَ، وَإِنَّمَا مَقْصُود الْحَدِيث أَنَّ هَذِهِ التِّسْعَة وَالتِّسْعِينَ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّة، فَالْمُرَاد الْإِخْبَار عَنْ دُخُول الْجَنَّة بِإِحْصَائِهَا لَا الْإِخْبَار بِحَصْرِ الْأَسْمَاء، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيث الْآخَر: " أَسْأَلك بِكُلِّ اِسْم سَمَّيْت بِهِ نَفْسك أَوْ اِسْتَأْثَرْت بِهِ فِي عِلْم الْغَيْب عِنْدك .

وقال الشيخ ابن عثيمين: وأما قوله ﷺ (إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ)

فليس معناه أنه ليس له إلا هذه الأسماء، لكن معناه أن من أحصى من أسمائه هذه التسعة والتسعين فإنه يدخل الجنة، فقوله (مَنْ أَحْصَاهَا) تكميل للجملة الأولى وليست استئنافية منفصلة، ونظير هذا قول العرب: عندي مائة فرس أعددتها للجهاد في سبيل الله. فليس معناه أنه ليس عنده إلا هذه المائة؛ بل هذه المائة معدة لهذا الشيء" اهـ.

فائدة : ٤

ما معنى الإحصاء في قوله (مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ)؟

اخْتَلَفُ العلماء فِي الْمُرَاد بِإِحْصَائِهَا على أقوال:

القول الأول: معناه حفظها.

قال النووي: فَقَالَ الْبُخَارِيّ وَغَيْره مِنْ الْمُحَقِّقِينَ: مَعْنَاهُ: حَفِظَهَا، وَهَذَا هُوَ الْأَظْهَر؛ لِأَنَّهُ جَاءَ مُفَسَّرًا فِي الرِّوَايَة الْأُخْرَى (مَنْ حَفِظَهَا). (شرح مسلم).

وقال في (الأذكار) وهو قول الأكثرين.

القول الثاني: أي: أَطَاقَهَا أَيْ: أَحْسَن الْمُرَاعَاة لَهَا، وَالْمُحَافَظَة عَلَى مَا تَقْتَضِيه، وَصَدَّقَ بِمَعَانِيهَا.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: الْعَمَل بِهَا وَالطَّاعَة بِكُلِّ اِسْمهَا، وَالْإِيمَان بِهَا لَا يَقْتَضِي عَمَلًا.

قال الشيخ ابن عثيمين: معنى إحصاء هذه التسعة والتسعين الذي يترتب عليه دخول الجنة، ليس معنى ذلك أن تكتب في رقاع ثم تكرر حتى تحفظ فقط، ولكن معنى ذلك:

أولاً: الإحاطة بها لفظا.

ثانياً: فهمها معنى.

ثالثاً: التعبد لله بمقتضاها، ولذلك وجهان:

الوجه الأول: أن تدعو الله بها؛ لقوله تعالى (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) بأن تجعلها وسيلة إلى مطلوبك، فتختار الاسم المناسب لمطلوبك، فعند سؤال المغفرة تقول: يا غفور، وليس من المناسب أن تقول: يا شديد العقاب اغفر لي، بل هذا يشبه الاستهزاء، بل تقول: أجرني من عقابك.

الوجه الثاني: أن تتعرض في عبادتك لما تقتضيه هذه الأسماء؛ فمقتضى الرحيم الرحمة، فاعمل العمل الصالح الذي يكون جالبا لرحمة الله، ومقتضى الغفور المغفرة، إذا افعل ما يكون سببا في مغفرة ذنوبك، هذا هو معنى إحصائها.

فائدة : ٥

أسماء الله توقيفية، لا يجوز أن نسمي الله إلا بما سمى به نفسه أو سمى به رسوله ﷺ .

لقوله تعالى: (وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ).وإثبات اسم لله لم يسم به نفسه هذا من القول عليه بلا علم.

ولقوله تعالى (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) وإثبات اسم لله لم يسم به نفسه من قفو ما ليس لنا به علم.

ولقوله ﷺ (وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى) والحسنى البالغة في الحسن كماله، وأنت إذا سميت الله باسم، فليس عندك أنه بلغ كمال الحسن، بل قد تسميه باسم تظن أنه حسن، وهو سيء ليس بحسن.

فائدة : ٦

أسماء الله مشتقة، أي أن كل اسم يتضمن الصفة التي اشتق منها، ولولا ذلك لم تكن حسنى.

الخلاق: يضمن صفة الخلق.

العليم: يتضمن صفة العلم.

السميع: يتضمن صفة السمع.

(وقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)) .

[الإسراء : ١١١] .

==========

(وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً) أي: وقُلْ -يا مُحَمَّدُ: الثَّناءُ الجَميلُ لله المتَّصِفِ بالكَمالِ، المنَزَّهِ عن النَّقائِصِ، الذي لم يَجعَلْ له ولدًا .

كما قال تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا) .

وقال سُبحانَه حِكايةً عن قَولِ مُؤمِنِي الجِنِّ (وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا) .

وقال عزَّ وجلَّ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) .

قال ابن كثير : بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

(وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ) أي: ولا يُوجَدُ أحدٌ يُشارِكُه في مُلكِه وسُلطانِه .

كما قال تعالى (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ) .

وقال سُبحانَه (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

وقال عزَّ وجلَّ (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

(وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ) أي: ولا يُوجَدُ لله وليٌّ يُناصِرُه ويُدافِعُ عنه، ويتعزَّزُ به، ويُعاوِنُه مِن أجْلِ ذلٍّ فيه أو عَجزٍ أو افتقارٍ -سُبحانَه وتعالى- بل هو الغَنيُّ ذو العِزَّةِ والكِبرياءِ، وكُلُّ شَيءٍ خاضِعٌ له، وتَحتَ قَهرِه وقُدرتِه، ولا يكونُ إلهًا يُطاعُ ويُعبَدُ، مَن كان ذليلًا مَهينًا مُحتاجًا إلى وَليٍّ .

كما قال تعالى (إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) .

وقال سُبحانَه (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) .

وقال عزَّ وجلَّ (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) .

(وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً) أي: وعَظِّمْ -يا مُحَمَّدُ- ربَّك تَعظيمًا تامًّا شَديدًا، فلا تَعبُدْ غَيرَه، وأطِعْ أمْرَه، واجتَنِبْ نَهْيَه، وأخبِرْ عنه بأوصافِه الحُسنى، وأفعالِه العَظيمةِ، ونزِّهْه عن كلِّ آفَةٍ ونَقصٍ .

كما قال تعالى (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) .

فائدة : ١

الله عز وجل يحمد على كمال صفاته ، وعلى كمال إنعامه:

الحمد على كمال صفاته :

كقوله تعالى (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً) وقال تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ).

الحمد على إنعامه :

كقوله ﷺ (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشربَ الشربة فيحمده عليها) رواه مسلم .

فائدة : ٢

الأمر بحمد الله .

كما قال تعالى (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ).

وقال تعالى (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى).

فائدة : ٣

الحمد وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم.

الحمد لله: الألف واللام للاستغراق فجميع المحامد كلها لله، ومن أسمائه الحميد، قال ابن القيم:

وهو الحميدُ فكل حمدٍ واقع ... أو كان مفروضاً مدى الأزمان

ملأ الوجودَ جميعَه ونظيرَه ... من غير ما عدٍّ ولا حُسْبان

هو أهله سبحانَه وبحمده ... كل المحامد وصف ذي الإحسان .

فائدة : ٤

جاءت أحاديث في فضل الحمد لله.

قال ﷺ (الحمد لله تملأ ما بين السماء والأرض) رواه مسلم .

وقال ﷺ (أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله) رواه الترمذي .

فائدة : ٥

وجوب تنزيه الله عن كل عيب ونقص .

فائدة : ٦

الناقص لا يكون إلهاً .

فائدة : ٧

غنى الله الكامل .

فائدة : ٨

وجوب تكبير الله وتعظيمه .

والحمد لله أولاً واخيراً .

الخميس / ١ / ٦ / ١٤٤٥هـ